السياسة الدولية

وأشهر رجالها

القسم الأول

الأعمال والأخلاق والتقاليد

تأليف

الدكتور نجيب الأرمنازي

دمشق ١٩٥٠

مَكْتَبَةُ لِسَانِ العَرَب
أ. علاء الدين شوقي
رابط بديل
lisanerab.com
www.lisanarb.com

السياسة الدولية

وأشهر رجالها

القسم الأول

الأعمال والأخلاق والتقاليد

تأليف

الدكتور نجيب الأرمنازي

دمشق ١٩٥٠

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com
رابط بديل lisanerab.com

المقدمة

عنيت في السنين الاولى للحرب الاخيرة بتأليف هذا الكتاب ، في السياسة الدولية واساليبها ومناهج رجالها ، وجعلته قسمين : القسم الاول - وهو الذي يجده القارىء بين يديه - يبحث في الاخلاق والاعمال والتقاليد وما يتصل بها من اوضاع الدبلوماسية ومنشآت السياسة الخارجية ، والقسم الثاني - وسنخرجه عما قريب - يترجم لفريق من اقطاب السياسة ورجال الدولة ، الذين يمثلون طبقة ممتازة في هذه الصناعة ومذاهبها المختلفة ، تقليدية وواقعية ومثالية ، منذ مكيفلي الى الرئيس ولسن .

ولا حاجة بى الى اطالة القول في الفوائد التي يجدها قراء العربية من تتبع هذه النواحى ، التى طالعت لاجلها كتباً كثيرة ، منها ماهو نادر ومنها ماهو مشهور سائر ، عدا الوثائق والمذكرات ومقالات الصحف ، وجميعها باللغة الفرنسية والانكليزية ، وقد اكتفيت بما رأيت انه جدير ان يلتفت اليه ، واقتصرت عامداً على ماوجدت انه يؤلف مجموعة مهمة من الاحداث السياسية ، ووصلت بينها وبين اخبار العظماء من رجال السياسة ، الذين نوهت باقدارهم ، وذكرت ماجرى من امور خطيرة في ايامهم ، وعلى ايديهم ، فاجتمعت بذلك وجهات النظر ومناهج العمل ، وكان التاريخ السياسى الدليل الذي استرشدت به فيما كتبته ،وهو المرجع العظيم للشواهد والتجارب ، التي تقوم عليها صناعة السياسة بما فيها من علم وفن .

☆ ☆ ☆

وقد حدثتنى نفسى قبل ان ادفع هذا الكتاب الى الطبع ان اعيد النظر فيه ، وان اضيف اليه ماسار عليه رجال الدول ، من خطط سياسية في اثناء الحرب

الاخيرة او بعد انتهائها ، فرأيت ان هذا العمل يحتاج الى كتاب خاص به ، فضلا عن اننا لانزال حديثي عهد بتلك الوقائع والحوادث التي تتضح امورها شيئاً فشيئاً بما ينشر من المؤلفات والمذكرات .

على انه اذا رجعنا البصر الى الحوادث المتشابهة والحروب العظيمة التي نشبت في العصور الحديثة ، وجدنا ان السلام قد امكن توطيد بنيانه في اقصر مـدة ، بعد حروب نابليون او بعد الحرب العالمية الاولى مثلا ، اما الآن فقد القت الحرب اوزارها منذ خمس سنين ، ولا يزال السلم بعيد المنال ، كأن العالم الذي طوى مراحل عظيمة في مضمار التقدم المادي ، مابرح يتقهقر في شئونه المعنـوية ، ولم تجده نفعا المبادىء الجديدة التي قررت في الميثاق الاطلسي ، او في دمبرتن اوكس ، او في يالطة او غيرها ، لتشييد اركان السلم ، ونشر الوية العدل ، واحترام حقوق الشعوب ، وتجنب الفتح والتوسع .

ولقد حلت الامم المتحدة محل عصبة الامم ، ولايظهر انهـا ستكون اوفر حظاً منها ، ولا سيما بعد ان اختل التوازن العالمي ، وانكسرت المانية واليابان ذلك الانكسار الهائل ، الذي تنقضي عليه السنون قبل ان تقوم لهما قائمة ، فسلمتا بدون قيد او شرط تسليما ندم عليه الذين فرضوه ، لانه احدث خـلاء عظيما في اوربة والشرق الاقصى ، فاتسعت روسية اتساعا لم تدرك مثله في عهد مضى ، وصدق ماقيل في شأنها ، من انها ازالت القياصرة ولكنها لم تزل القيصرية ، وقـد انتهت الى الولايات المتحدة معظم قوى العالم المادية والحربية والفنية ، اما بريطانية العظمى فقد اضعفتها الحرب العالمية الثانية ، ولم تخرج منها كما خرجت من الحرب العالمية الاولى وهي اكثر عظمة ، كما قال لويد جورج .

وها ان الدول الحليفة التي كان الف بينها الخوف من تسلط المانية وغلبتها ، يحارب بعضها بعضا حربا مستترة ، وتستعد استعدادات خارقـة للاقتتال فيما بينهـا في حرب عالمية ثالثة ، بما وجدت السبيل الى اختراعه من الاسلحة الفتاكة الجهنمية التي لاتبقي ولاتذر .

فاذا كتب المؤرخون حوادث هذا الزمان واثبتوها في بطون الكتب ، فلابد ان يشيروا الى ماجرى فيه من الاضمحلال العجيب للمبادىء الدولية والقواعد الاخلاقية ، مها حاول رجال السياسة ان يدعوا مطابقة اعمالهم للشرائع والقوانين التي ينبغي ان تسود علائق الدول وصلاتها ، وان يلتمسوا وجود التأويل لما يصدر عنهم من اعمال مغايرة لها .

وقلما وضعت عهود وعقود دولية بقدر ما وضعت في هذا العصر ، ولكنها مزقت شر ممزق ، كأن لم يكن هنالك عهد ولا عقد ، حتى ان خائضي غمرات الحروب لم يجدوا في بعض الاحيان حاجة الى اعلان الحرب ، الذي هو من اول القواعد المتبعة حتى في العهود العريقة في القدم ، فكأن الانسانية تكاد تسقط مختارة في حمأة البربرية الاولى، بعد ان اشتبكت مصالح الشعوب ومنافعها اشتباكا كا لم يعهد له مثيل ، واصبحت كل حادثة تقع في جزء من اجزاء الارض تتجاوب باصدائها انحاء الارض كلها ، وصح قول القائل : عالم واحد ، غير انه متخاذل الاعضاء ، متداعي البناء .

آذار سنة ١٩٥٠ نجيب الارمنازي

فهرس الموضوعات

المقدمة : آ - ج

ص

الفصل الاول : صناعة السياسة ١ - ١٣

١ — الثقافة السياسية ١

٢ — اوصاف رجال السياسة ومميزاتهم ٤

٣ — السياسة والاخلاق ٨

الفصل الثاني : تاريخ السياسة ١٤ - ٣١

١ - مراحل السياسة وانشاء السفارات ١٤

٢ — خطط البندقية واوضاعها ١٧

٣ — المذاهب الجديدة في السياسة ٢٠

٤ — تطور رجل الدولة ٢٤

الفصل الثالث : المناهج السياسية واساليبها التقليدية ٣٢ - ١٥

١ — الحق العام ومصلحة الدولة ٣٢

٢ — نظام التوازن ٣٥

٣ — تحين الفرص ونقض المواثيق ٣٩

٤ — العبث بالملوك وبالشعوب ٤٢

٥ — السياسة والحرب ٤٨

ص

الفصل الرابع : مشاهير الملوك السياسيين	٥٢ ـ ٨١
١ ــ الملوك والسياسة	٥٢
٢ ــ لويس الرابع عشر	٥٩
٣ ــ بطرس الاكبر	٦٣
٤ ــ فردريك الكبير	٦٦
٥ ــ كاترين الثانية	٧١
٦ ــ نابليون الثالث	٧٦
الفصل الخامس : السلك السياسى	٨٢ ـ ٩٤
١ ــ وزير الخارجية	٨٢
٢ ــ السفراء	٨٧
٣ ــ القناصل	٩٣
الفصل السادس: المهمات السياسية	٩٥ ـ ١١٦
١ ــ المفاوضة	٩٥
٢ ــ كيف يبعث السياسيون الحرب	٩٩
٣ ــ المحالفات	١٠٣
٤ ــ المعاهدات	١٠٦
٥ ــ الحياد والدول المحايدة	١٠٨

الفصل السابع : السياسة الدولية بين حربين ١١٧ - ١٨٢

١ - انحطاط اوربة الفكري والاقتصادي ١١٧
٢ - السياسة الدولية في البحر المتوسط ١٢١
٣ - التوسع الايطالي ومقاومة بريطانية له ١٢٥
٤ - الاتحاد العربي وما يقال فيه ١٢٩
٥ - المشكلات الدولية وتأثير بعضها في بعض سياسة الولايات المتحدة واليابان وروسية ١٣٧
٦ - خطط المانية ونقض معاهدة لوكارنو ١٤٨
٧ - الأزمة الشيكوسلوفاكية ١٥٤
٨ - زوال شيكوسلوفاكية واثره في اوربة ١٦٣
٩ - مساعي روزفلت واجوبة هتلر ١٦٩
١٠ - أزمة الحرب وبواعثها ١٧٩

ملحق : آراء لرنان واناطول فرانس في العقائد والسياسة والمجتمع ١٨٣ - ١٩٠

الخطأ والصواب : ١٩٠ - ١٩٢

الفصل الاول

صناعة السياسة

١ — الثقافة السياسية

السياسة نصف قوة الدولة ، وهي احيانا تعطل عمل السلاح واحيانا تقوم مقامه وتضاعف من اثره ، فلا بدع اذا كانت في مقدمة الصناعات والعلوم وبلغت غاية النفع والخطر ، لانها سلاح شديد المضاء تتوقف عليه مصاير الشعوب ، واذا كانت في ايد غير صالحة فكثيراً ما تسبب القضاء على دول وممالك وتصنع بها ما لا تصنعه السيوف القواطع والحراب اللوامع .

وقد وضع المؤلفون تعاريف كثيرة للسياسة فوصفها السير ارنست ساتو بكتابه الممتاز — « الدليل السياسي » بانها ليست الا تطبيق ما يوحي به الذكاء وينطوي عليه من براعة على علائق الدول . وعرفها البارون سيلاسي الوزير المفوض المجري في « قاموس السياسة » انها الصناعة التي تدير شؤون امة وتمثل مصالحها في ديار اجنبية بحذق وحنكة ، ويتم بها تعهد الصلات الرسمية ودوامها بين دولة واخرى . وقال عنها من قبل براديه فودره في كتابه الممتع « الشرائع السياسية » انها صناعة تطلق على تمثيل مصالح البلاد وحكومتها في غيرها من البلاد والحكومات ، مع الحرص على صيانة حقوقها ومراقبة منافعها واعلاء شأنها وتدبير الشئون الدولية ومتابعة المفاوضات السياسية وتسييرها وادارتها ، والتقيد في تنفيذ ذلك بالخطط المرسومة والاوامر المنصوصة .

والسياسة في عرف تليران هي الوضع الذي تقوم الشعوب باداء مهمتها في

ظلاله ، ولما كان كل واحد يضع نصب عينيه انتماءه الى امـــة معينة ، فهو ينزل السياسة في المقام الاول ويغالي في شأنها وقيمتها .

ولا يكفي في السياسة ما يكفي في الفن من الاطلاع على القواعـد والاسس بل يتحتم على كل من يعانيها ان يمارسها كل الممارسة ، وان يتخذها صناعة يتغلغل في احشائها ويغوص على مكامنها ويكشف اسرارها ومخبآتها ، فاذا قيـل رجل سياسي كان المقصود بذلك الرجل القائم بوظيفة سياسية او المتعمق في السياسة الذي وقف عليها نفسه ، فهو يؤلف الاشتات ويجمع الحوادث .

وقد امتاز العمل السياسي على جميع المساعي الانسانية العظيمة بانـــه لا يبرح متصلا بالاراء التي تسود في ايام الحرب مرتبطا بها ، وهو كذلك شديد الامتزاج بالامور الشرعية والحقوقية لانه قائم في اساسه على المفاوضات والتمثيل فيستمد من شرائع الدول ما هو بحاجة اليه من الخطط والمناهج ، وكما ان الشرع الدولي متداخـــل في السياسة ، فالسياسة كذلك متداخلة في الشرع الدولي ، وكل منها يؤثر في صاحبه ويستعير منه ، وقد لا يخلو من التهكم ان يقال ان قواعد الشرع الدولي التي عرفت من العهود القديمـــة وتطورت تطوراً عظيما قـد اثرت في الاوضاع السياسية ولكنها لم تؤثر مطلقـــا في الروح ولا في المقاصد ، اما مؤلفات المتشرعين ومثلهم العليا فتخرج عن القواعد والمبادىء كبناء شامخ على شفا جرف هار .

والغاية التي ترمز اليها السياسة هي التأليف بين مصالح الامم وتوثيق عرى مودتها وتشييد اركان السلام فيها وتعهـد الفكرة الدولية المشتركة والسهر على منافع الامة التي ينتمي اليها والمحافظة على امنها وسلامتها والذود عن حقها وكرامتها واذا عرض للصلات الدولية عارض من شأنه ان يفسدها ويعكر صفوها ، فعلى رجال السياسة ان يعملوا على ازالته وان يعيدوا تلك الصلات الى احسن ما كانت عليه ، وقد شعرت الامم منذ الفت الجماعات السياسية وتوثقت بينهـا العلائق وتشابكت المنافع والمصالح ان العهود والعقود ليست بكافية وحدهـا لادراك

رغائبها وطلباتها ؛ وان هنالك حاجة عظيمة الى حسن العناية بالروابط والصلات والتوفر على استمرارها ودوامها ، عامة كانت ام خاصة ، والاتصال بسائر الجماعات والدخول معها بالمفاوضات والمذاكرات حتى تحقق السياسة غايتها التي تجاري الزمان في سيره وتساير الحاجات في تقدمها وتطورها .

ولا بد لصناعة السياسة من ثقافة خاصة ومعرفة كثيرة ، وقد كان في استطاعة رجال قلت معارفهم ان يكونوا بارعين في السياسة ، على ان هذا الرأي اذا كان يصح في ايام خلت فانه لا يصح اليوم ، اذ لا يستطيع رجل ان ينال مركزاً سياسياً رفيعاً ما لم يحرز منزلة عالية في العلم والفكر والتهذيب ، والعقل السليم وحده غير كاف لاحراز النجاح في السياسة ، والذي يظن هذا الظن ينقاد اليه بما يشاهده من نجاح فئة هي اقرب الى منزلة العوام ، وقد فاته ان المصالح اذا التبست وتشابهت فانه يعجز عن حلها العقل السليم والحس الصادق ، ومدرسة السياسيين الكبرى هي تجاريب العالم وتاريخه .

ولا يستغني السياسي بالنشأة السياسية الفعلية لان مشاغله تستغرق اوقاته منذ مباشرة العمل ، فلا يجد متسعا من الزمان يكفيه للبحث الدقيق والمطالعة الكثيرة وتتبع الحوادث واستخراج النتائج ، وهو اذا لم يهذب شعوره بالعلم ويصقل عواطفه بالدرس فانه لا يرجى له الفوز ، والتجربة ثمرة العمل ولكن الاستفادة منها تحتاج الى بحث ونظر .

واذا لم تكن السياسة تابعة لقواعد معينة ثابتة فلا بد من الاطلاع على طائفة من انواعها واختيار فروقها ومذاهبها ، كالبلاغات الرسمية والوثائق التاريخية والمذكرات السياسية التي ينبغي اقتناؤها ومطالعتها والقياس عليها واتباع اسلوبها وتناول اشباهها ونظائرها ومعرفة ما عكن ان يكون لها من الاثر في نفس المخاطب بها على حسب الزمان والمكان وتقلبات الايام .

وما اعظم ما يستفيده المرء من مطالعة المذكرات وتتبع الوقائع والتنقيب في بطون الاوراق والمدونات التي تزيد في التجربة والحنكة وفي قوة الحدس ودقة

الفراسه وتوقع الحوادث واجتناب خطيئات الاخرين ! وقد تكون الوقائع خير استاذ يلقي دروس السياسة ، وذلك بالتنبيه الى النقائص والاخطاء اكثر من التعريف بالمحاسن والمناقب ، وكثيرا ما تخيب الجهود في دفع الاضرار التي تحدثها الاغلاط والمساويء ، فعلى الذين يريدون سلوك هذا المسلك ان يكونوا على بينة مما يستقبلون في ايامهم من الاخطار ويلاقونه من العقبات التي ينبغي عليهم ايجاد طريقة لتذليلها والنجاة منها .

٢ — اوصاف رجال السياسة ومميزاتهم

قد لا تكون صناعة اكثر تنوعا واختلافا من السياسة لانها مرتبطة بجميع المشاكل التي يعالجها العالم ، ولذلك كانت وظيفة السياسي دقيقة غامضة تحتاج الى خبرة نادرة وتجربة شاملة وفراسة بعيدة وفكرة سديدة وقدرة على العمل وصيانة للاسرار ، فينبغي لمن يتعاطى السياسة ان يكون متمكنا من نفسه مسيطرا على هواه لا يستفزه حال الى اباحة ما لم يكن قد صح رأيه على اباحته ، وعليه ان يكتم ما يعرض في خاطره ويعمل به فكرته ، فلا ينطق بكل ما فكر به ولكن يفكر بكل ما ينطق به ، وليس الصمت في معرض البيان بحزم ، ولكن الحزم ان يحسن المرء القول حيث ينبغي ان يكون ، وليست قلة الكلام من شروط السياسة وقواعدها ، فان كثيرا من الساسة البارعين عرفوا برقة الحاشية وحلاوة المحضر وحسن الحديث وطلاوة النكتة .

وكان تاليران نزر الكلام في المجامع ولكنه مبتذل في مجالس ثقاته ، وكان مترنيخ احسن الناس حديثا واكثرهم نادرة ، وكان اللورد ليتون ، احد مشاهير السفراء البريطانيين في اوائل الجمهورية الثالثة في باريس ، موصوفا بفصاحة الاسلوب وسلاسة الكلام وخصب البيان وتدفق العبارات ، ولكن هذه المزايا لم تمنعه ان يكون شديد الكتمان لا يفتح شفتيه عن كلمة لا يريد ان يقولها ، ولا يغلب على منطقه الذي كان متمكنا منه ، وقلما وجد مثله رجل يجمع مختلف المواهب

العظيمة والمناقب النادرة والصفات الطبيعية التي يتمم بعضها عمل بعض . وقد كتبت جريدة التيمس عند موت هذا السياسي قائلة : كان يجمع بين التفكير والثقافة وصفات الرجل السياسي الدائب المتبصر وبين الرقة والعذوبة والفن والادب ، فمن يجده مساء يوم في محفل لطيف العشرة رقيق الحاشية مسرعا بالهتاف لما يستحسنه ، يلتف الرجال حوله ولا يفارقونه ، متعهدا اياهم بظرفه وعطفه ، يستغرب عندما يراه غداة يوم في مكان عمله ، سياسيا متناهيا في لطف مداخله ومخارجه وبعد نظره ، يناقش بنفس هادئة ادق الامور الدولية واكثرها تعقيداً .

ومن واجبات رجال السياسة ان يتحرزوا من افراغ الحوادث الصغيرة في قالب الامور الكبيرة وطبعها بطابع الشؤون العظيمة ، وان يسترسلوا الى الثقات حتى يتم بينهم غرس المودة وتبادل الثقة ، وقد يتعاطى السواس الاراء بينهم،والبراعة تكون في انتهاز هذه الفرص وحسن اغتنامها ، وقد قال مترنيخ: عليكم بتعلم اباحة الاسرار اليسيرة للتوصل الى ادراك الحقائق المهمة ، ولا يجوز ان يكون السياسي نزق الطبع متهورا فان الخشونة ليست من السياسة في شيء ، والذي يثير حفائظ محدثيه لا يتصل بمكنونات اسرارهم ولا يطلع على خفايا ضمائرهم ، وقد عد الكاردنال مزاران من ابرع المفاوضين لانه لم يكن يتيسر اكتشاف دخيلة نفسه بتعرف ملامح وجهه التي هي عنوان ما تنطوي عليه جوانح المرء من خير او شر ، وكذلك كان تليران ، فانه لو دفع في قفاه لما تغيرت اساريره !

والتفوق في عالم السياسة يحتاج الى لين في الجانب ورقة في الحاشية وملاءمة في الطباع ، وبذلك يستطيع السياسي ان يجري مع الدم ويستطلع خفايا القلوب . ولا يجتزىء السياسي باوصاف من الفضائل المعنوية والمعارف الواسعة بل لا بد له ان يستمد من قلبه نبل العواطف ومكارم الاخلاق وصحة العزيمة وقوة الارادة ، فاذا اقتضت منافع بلاده ان يدافع عنها دافع بكل صلابة وقوة وثبات

على الرأي الذي انضجته الفكرة وهذبته التجارب ، ولا شيء يودي بمصالح الامم مثل التردد والتواني كما ان من اشرف الخصال التي يسمو بها الساسة ويعلو قدرهم المضاء في الامور والوقوف عند الرأى الذي قطع به ومسايرته الى ان ينفذ ويبلغ اجله ، وقد كان الكاردنال رشيلو واسع الحيلة بعيد النظر ، ولكنه يتردد عندما ينقادالامر الى الغاية القصوى ولا يبقى الا انفاذه ، وفي هذه الساعة الاخيرة كان يسرع اليه الاب يوسف فيمده برأيه وحزمه .

وكذلك يجب على السياسي ان يكون حسن النظام في جميع اعماله واطواره بعيدا عن النقائص والمثالب ، خالصا من شوائب التخبط والاضطراب ، وماذا ترتجي المنافع العامة من رجل اغفل شؤونه الخاصة من كل تدبير ونظام ، او افرط في اللهو واللعب والتهالك الذي يحول دون الجد ويقف في سبيل النجح ، ومن المستبعد ان يحسن الذين يكونون على هذه الشاكلة من الاخلاق القيام باعبائهم ، ولا يستحق ان يدخل في عداد الساسة الرجال الذين تحكمهم اهواؤهم ولا يحكمونها ، وتستبد بهم نفوسهم ولا يستبدون بها ، على انه لا يكفي ان يكون الرجل الذي يجدر به ان يمثل امة معروفا بالعفة والنزاهة موصوفا بالذكاء والفطنة ، بل يراد منه فوق ذلك ان يكون على جانب غير يسير من الاطلاع والمعرفة ، راسخ القدم في تدبير المصالح السياسية ، يغشى مجالس العظماء فيستفيد منها جليل الفوائد ،وتعقد بينه وبين رجالها روابط المودة .

والفوز في كثير من الاحاديث الخطيرة يرجع في الغالب الى قيمة المحدث وما له من شأن ، وبلوغ النجح في المحافل والمجالس يفتقر الى مكانة اجتماعية وتهذيب رفيع ، وربما يكون هذا الشرط — كما قال براديه فودره — مثبطا لهمم فريق من الناس الذين تسمو بهم الانقلابات الى المنازل التي لم يكونوا اهلا لها .

وقد يبلغ الرجل السياسي المنزلة التي يستحقها اذا نجا من حسد الحاسدين ومكر الماكرين وتخرج في مسالك السياسة،وصعد بجده المراتب الرفيعة،ولم ينقد

في عمله الا لشعور الدفاع عن امن بلاده وكرامتها ، ولذلك ينبغي ان يكون متوقد الذكاء محيطا بدقائق الامور ، قادرا على استبطان الدخائل ، سريعا الى تمييز المقاصد الخفية ، بعيدا عن سبق الوهم ، يجتنب الحيلة والدسيسة لانه يدخل في مفاوضات كثيرة في غضون عمله ، فليس من الرأي ولا من الحكمة ان يدع سبيلا لجرح الثقة به او الريبة منه ، والسياسي الكامل منحة من منح الطبيعة التي قلما تجود بها ، وهي اقرب الى الغايات الخيالية منها الى الحقائق الواقعية .

وقد وصف سان سيمون احد رجال السياسة في القرن السابع عشر (ارنولد دي بومبون) بقوله : كان رجلا متفرداً بشعور الحق والعدل ولين الجانب ودماثة الخلق ، يزن كل شيء ويصنعه بنضج ودون بطء ، ويمتاز بمعالجة الامور بفن وبراعة ودقة ومرونة ، فيصل الى اغراضه بدون حيلة ولا استفزاز ، وهو على رقته وصبره لا يقصر في حزم ولا يغمز بنقص ولا يتوانى في الدفاع عن مصلحة الدولة وعظمة المملكة ، وعلى هذه الصفات التي عرف بها فقد حبب الى جميع الذين فاوضوه في مختلف البلاد ، فكان موضع التقدير واهلا للثقة ، مهذبا محسنا لم يأت وزير مثله في حياة متشابهة منسجمة ، بعيدة عن البذخ والترف والتظاهر والتكاثر ، لا يدع عمله العظيم الا لاسرته واصدقائه وكتبه . وعلاقاته العذبة تستهوي النفوس وتسحرها ، واحاديثه من غير ان يريد وان يتكلف لا تنتهي فائدتها لسامعيه . ولما جاءه الموت ونعاه الى حكومته سفير ايطاليا في فرنسة بعد ان قضى من العمر ثمانين سنة ، وصفه بانه الوزير الذي تم كل التمام والرجل الذي فاق جميع الرجال .

وصور الكاتب الفرنسي « لابروبير » رجل الدولة الذي يخلع عنه رداء المواكب ولباس الحاشية بسطور بليغة تنطبق على اوصاف رجال السياسة في كل مكان فقال : الوزير او الوزير المفوض هو كالحرباء في تلونه ، فلا يغير اسارير وجهه الا عمداً ، ويستشير في اعماله الزمان والمكان ويتحين الفرص ، ويتعرف ما لديه من قوة او ضعف ، ويترقب احوال الشعوب التي يعاملها ويتأمل طباعها

وامزجة رجالها الذين يفاوضهم او الذين يخلفونه ، وكل آرائه وقواعده ونظراته ، وكل تدقيقاته السياسية ومحاولاته انما ترمي الى غاية واحدة ان لا يكون قد خدع وان يتمكن من خديعة سواه ، ومن اعظم وسائل النجاح ان يعرف كيف يقول الحقيقة ، وهو فن يجب ان يبلغ الغاية من الاحاطة به ، فعليه ان يكون بعيد الغور شديد الابهام عندما يريد اخفاء حقيقة يذكرها وان لا يصدق نفسه فيما قاله عنها ، ويتظاهر بانه صريح صادق وان يخفي ما لا تجوز معرفته ويقنع مخاطبه بانه قد اطلعه على ما يريد الاطلاع عليه ولم يكتم شيئاً في نفسه ، وهو كذلك يؤازر حلفاءه اذا وجد في ذلك ما ينفع مدعياته ، ويؤازر ايضاً الضعفاء ويؤلف بينهم ، لمقاومة الاقوياء والاحتفاظ بالتوازن بين القوى المختلفة ، ويكون ايضاً لطيف العشرة ، ظاهر التمسك بقواعد الشرف بالغ الاثر في ادراك شؤون الحياة واتقان تصاريف الكلام ووجوهه ، مقتدراً على الاتيان بالحجج الشريفة ، مكيناً في معرفة ما يوافق الزمان ويناسبه ، لا يتكلم الا عن السلم وعن المحالفات وعن الطمأنينة العامة والخير العام ولكنه في الحقيقة لا يفكر الا بمنافع سيده او جمهوريته ، وهو لا يخدع بما يقول ولا يعتقد به ، ويرمي في مساعيه الى الجوهر والغاية ، ويستعد دائماً الى بذل الامور الصغيرة واهمال مسائل الشرف الموهومة .

٣ — السياسة والاخلاق

كانت السياسة مطلقة في معناها في الامور الداخلية والامور الخارجية في الماضي ، وكان الفرق بينهما ان السياسة الداخلية كانت قائمة على التضامن العام اما السياسة الخارجية فلم يكن يفكر فيها بشيء من التضامن مع الدول الاخرى ، وكان يسود مذهب حق الدولة والمصلحة والتوسع وما يحتاج اليه نجاح ذلك من القوة والارهاب والتهديد والوعيد والكذب والدسيسة والتخويف في اثناء المفاوضات ونبذ الدول كل واجب ، وعقد المعاهدات السرية التي يعبث فيها بحقوق

الاخرين وتسلط الدول العظمى على سواها ، وقد تغيرت هذه القواعد في الظاهر واخذ المجتمع السياسي يهتم بما يسميه العوامل الادبية والاخلاقية والمثل العليا ولكن جمهور السياسيين ورجال الدولة ما انفكوا يتمسكون باساليب التسلط القائمة على القوة وعلى المنفعة ويتهكمون على ما سواها من الاساليب ويزدرونها ، واذا عدت المانية مثالا لسياسة القوة ورددت الالسن قول رجل حربها مولتكه: ان السلم العام حلم ولكنه ليس بحلم لذيذ ؛ وقول رجل سياستها بسمرك : ان القوة هي الحكم في الخصومات ، فان الدول الاخرى لم تكن لتقصر في هذا المضمار ، وليس بمقدور احد ان ينكر ما يرمي اليه الساسة في جميع اعمالهم من الحرص على اجتلاب المنافع والاستخفاف بما سوى ذلك .

وقد كتب قديما الكونت او كسنستيرن (من رجال الدولة في السويد) الى ابنه : اذا شك انسان في امر فانه يبحث عن الطريق الذي يلابس الشرف اكثر من سواه ، واذا اعترى الشك رجال السياسة فانهم لا يبحثون عن سبيل غير سبيل المنافع ، وانه ليأخذك العجب اذا عرفت المقدار اليسير من الحكمة الذي يداربه العالم ، وانحى واتل (احد علماء الشرع الدولي) على الدسائس والمكائد السياسية بقوله : ربما يهزأ بكلامي الذين يتمتعون بعنوان كبار الساسة بما يأتونه من الافراط في الدقة والاسراف في الكياسة والانصراف الى خديعة مفاوضيهم والتغرير بهم ، ويفاخرون بعنوان دهاة العصر ويباهون بمناوأة العدل والانصاف ومخالفة القواعد الشريفة التي لا غبار عليها بدون استحياء ، والى متى يمعن رجال السياسة باعمال تقدح في شرف اي انسان وتضع من قدره ، فهم يهزأون بمكارم الاخلاق وقواعد الحق والعدل ولا يبالون اذا جاهروا بمخالفة السنن الشريفة والقواعد النبيلة ، وما اكثر الحوادث التي تنقلب فيها المنافع الموهومة الى مصائب وارزاء ، ولعل صفاء السريرة واستقامة السيرة هي اسلم الاساليب السياسية واحمدها عاقبة .

وفي رأي برتو (الوزير الفرنسي) ان السياسة تختلف عن الدسيسة كما

تختلف صفة الرجل السياسي عن الرجل الذي يتعاطى السياسة ويتخذها حرفة له من غير ان تهمه المصلحة العامة او ان يكترث بما يحمله المستقبل ، لانــه لا يرجو الا الفائده العاجلة والمنفعة الخاصة ، على انه يوجد بين السياسة والدسيسة شيء من الصلة الظاهرية التي لا تتعدى ان تكون كاذبة باطلة ، والرجــل الذي قضى عهدا طويلا في الدسائس يصعب عليه ان يخرج عنها ويسير بغير طريقها ، وليس بمحرم على الرجل السياسي ان يكون بارعا ولا ان يكون دقيقا بل ان هذه الصفات لازمة له ، ولكن البراعة غير الدسيسة والدقة غير الخديعة الا اذا اضيف اليها الكذب ، واذا قام الرجل السياسى بعمل فوق طاقته ، فلا بد له ان يظهر من القوة اكثر مما لديه ، وليس صحيحــا ان الطريق المعوج هو اقصر الطرق لبلوغ الغاية ، بل ان افضل الطرق هو الطريق الواضح ، والدسيسة تنفي الاخلاص ، وكما قال لامارتين : ان الانانية التي تريد خداع الاخرين تبدأ بخداع صاحبها . على ان الرجل السياسي يحتاج احيانا الى محترفي السياسة ، والذي يقوم بواجبه يستعين بالذي يتاجر بعمله ، وقد قال بوسويه : ليست الفضيلة من صفات الاعمال وينبغي ان يكون هنالك شيء اكثر مرونة لاكتساب محبة الرجــل ، والفضيلة كثيرة الجد كثيرة الترفع ، فهل يبحث عنها في دوائر العمل ؟

وربما كان الوزير صادقا فلا يسلم ان يكون بجانبــه رجال محرومون من الكرامة ، وقد لا يستغني عنهم في بعض الاحيان ، فالشرف والفضيلة والوجدان صفات جليلة ، ولكن ماتريد ان تصنع برجل صالح في عمل دقيق ؟ والسياسة لا يمكن ان تقوم كلها على اشراف الرجال ، ومن الممكن ان يستعان بسواهم من الذين لم يوصفوا بالمناقب الكريمة ولكن هذه الاستعانة ليست من الامور التي يسهل الاقدام عليهــا في جميع الاحوال ، فان هنالك فريقا من الاشخاص المغامرين الخطرين الدساسين المضرين ، فلا يدخلهم الوزير في خاصته وان كان يستخدمهم في بعض اغراضه ...

وقد يؤاخذ الرجل السياسي على علاقاته اكثر مما يؤاخذ على تقلباته

ومتناقضاته ، ويكفي ان يكون الرجل رجلا حتى يكون عرضـة للخطأ ، وما اكثر ما يغير الرجال آراءهم حتى في الامور الخطيرة ، وما اكثر ما تتبـدل الحقائق بالنسبة الى مكان ومكان ، وهل يمكن ان يطلب لآراء الرجال من الثبات اكثر مما يطلب للرجال انفسهم ؟ فالتجارب والسنون وظروف الحياة تبعث على كثير من التغير ، وفي المعارضة يكون الانتقاد ، اما في الحكم فيكون العمل ، وقد قال فيكتور هيغو : لا يمدح الرجل السياسي بانه لم يتغير في شيء لانه يدل على انه لم يستفد من عبر الزمان وتجاربه ولم يجعل فكره ورأيه يسايران الحوادث والحقائق ، وهل يمدح الماء الراكد والشجر الذي لا ينمو ؟ ولا يوجد امر مطلق في السياسة ، وللمرء ان يغير رأيه ولا عار عليه اذا لم يغير ضميره ، وقد يضحي المرء بفكرة عنده ورأي استقر عليه لاجل مصلحة بلاده ، والتمادي في الخطأ اشد اثما من ارتكابه .

واذا كان حظ الاخلاق ضئيلا في السياسة ، فان اعتبارات عملية تقضي بان تكون الصراحة والحقيقة من مزايا الرجل السياسي لا كما يظن ان الكذب هما من اول صفاته ، ولا يضر الكذب الذي يراد به الاصلاح ، او الاجوبة المخلصة لاسئلة خطرة او النظر المبهم ، والرجل الضعيف يرى في جميع انواع الكذب اخلالا في الاخلاق ، والرجل القوي يرى فيه وسيلة للتخلص ، والرجل المتفوق لا يهتم بالطريقة التي ينجو بها من محاسبة الضمير ، اما الرجل الشرير فانه لا يأبه لشيء من ذلك ، والكذاب يحتاج الى ذاكرة قوية ، واذا كانت الخلابة تبعث على الريبة فالكذب من باب اولى . وقد كان بالمرستن وبسمرك معروفين بالصراحة ، وكانت هذه الاساليب تفيدهما كثيرا لان سامعيهما كانوا يؤولانهـا تأويلات سحرية .

ومهما كانت السياسة تتظاهر بالعدول عن مناهجها القديمة وتبحث عن حسن النية والعدل في السياسة ، فان رجل الدولة لا تزال تنطبق عليه كلمات مكيفلي الذي ذهب اسمه مثلا في اساليب الخداع وسياسة القوة ومصلحة الدولة التي منها

هذه الجملة المأثورة : على صاحب السلطان ان يعرف الخطة التي يسلكها، بهيمية كانت ام انسانية ، فينبغي ان تكون فيه قوة الاسد وروغان الثعلب ، واذا اقتصر على خصلة الاسد فانه لا يحسن الصبر على لقاء الاهوال ، ولا يريد اولو البصيرة ان يكونوا اسودا فحسب ، وعلى العاهل الحصيف ان لا يحترم عهده متى وجد سبيلا للنجاة منه وكان فيه ما يورثه الضرر ، وعقبى الامور هي الغاية التي تسمو اليها ابصار الملوك ، اما عامة الناس فانهم يغترون بالظواهر والعناوين ، وليس الناس كلهم عامة ، ومبدأ سلامة الوطن يتغمد كل سيئة ويسبل عليها ستر العفو والمغفرة .

واذا كان نيل المآرب وادراكها بالجبر والاكراه من طبائع البشر وميولهم فان الساسة يرون ان لا يغفلوا مع ذلك الحيطة والحذر ، وصاحب السلطان الطامع في توسيع سلطانه لا يباغت عدوه بالغارة عن غير سابق انذار فذلك بطريقة قطاع السابلة اشبه والى مذهبهم اقرب ، ولكنه يعقد الحلف ويعد العدة ويعبىء الجند وينتحل الاعذار ويحمل حملته بعد ان يثق بنفسه وقوته .

وقد اوصى الكونت دي بيلوف ابنه الذي اصبح بعدئذ البرنس دي بيلوف المستشار الالماني حين انتمائه الى السلك السياسي بوصية اورد فيها جملة من المزايا التي ينبغي ان يتصف بها رجال السياسة ويحرصوا عليها قائلا : « الزم الحقيقة بدون هوادة ، ولا تتساهل في كل ما تنقله وترويه ، واياك ان تحمل من الانباء ما لا تعتمد على صحته وما يمكن ان تتصفح حقيقته ذات يوم ، واياك ان تقع في الاسفاف ونشر الشوائع والمبالغات والمفاخرات الباطلة وتلوين الاشياء بالوان زاهية كثيرا ، واحذر من الافراط في الاستنتاج واجتهد كل الاجتهاد لتحري الحقيقة عندما تذكر الارقام ، ولا تقع في الغرائب ، ولا تصف امرا باكثر مما هو في حقيقته اذا تأملته بهدوء وسكينة ، وكن حذرا فيما تقرره من حكم ، ولا تتكهن وتتنبأ فيما ترويه وتخبر عنه فقد انقطع عهد التنبوءات والمعجزات والاخبار بالغيب والكهانة والنجوم ، وكل شيء يمكن حدوثه، ولكن لا يمكن عقد الايمان على شيء

لان التغير والتبدل من الامور التي لا مفر منها ... ولا تجعل احدا يقع في مشكلة بسبب تقاريرك فانه لا يتفق مع اصول اللياقة واسباب الحزم ، ولا تكتب شيئا في ساعة غضبك .

وقد كان البرنس بسمرك يقول : لا معنى للغضب والحقد في السياسة ، فليس السياسي بواعظ ولا قاض في محكمة الجنايات ولا فيلسوف ، والامر الوحيد الذي ينبغي ان يهتم به هو مصلحة بلاده مجردة عن كل شيء ... وعليك بالحذر فيما ترسله من برقيات ، ولكن كن اكثر حذرا عندوضع الارقام التي يجب اعمال الفكرة كثيرا فيها ، واياك ان تفرط في تقاريرك فالنقد سهل والعمل صعب ، وعلاوة على ذلك فان هذه التقارير لا تبقى سرا مكنونا ... وكن هادىء النفس معتدل الطبع رزينا وقورا ، لا يأخذك الجزع في شيء ولكن جد في كل شيء واحرص على السبق وانتبه الى كل ما حولك ،ولا تنقد ابدا الى عواطف البغض والكره ، ولا تقل كلمة تحدث للحكومة مشكلة اذا لم تكن قد اذنت بها وزارة الخارجية ، واجعل اسلوبك واضحا موجزاً لا اضطراب فيه ولا تعقيد ولا املال ، وقد قال فولتير : كل الاساليب صحيحة ما عدا الاسلوب الممل .. واول واجب على السياسي ان لا يؤخذ على حين غرة ، والسياسة قائمة على التغير والتطور في كل حين ، وحذار ان تطلق العنان لتصوراتك وتخيلاتك وان تصنع الشيء الكبير من الشيء الصغير ، واعلم ان كل شيء ممكن ولكن يكاد لا يكون شيء مما لا بد منه ، واياك ان تتهالك على امر ،وحاول كل عمل في ساعته لان مصاعب الحياة تنشأ من الاقدام قبل الاوان او بعده ، والرجل السياسي في الديار الاجنبية لا يخرج مطلقا عما قال بسمرك من حسن استخدام الرجال الوصول الى نتائج حقيقية فكن كثير الاتصال برفاقك وزملائك ، ولا تنقطع عن الناس في حجرة بيتك ولكن احذر ان تكون وسيلة لاستثمار سواك او الاغترار بالاكاذيب ، اما اجتناب الافراط في الغيرة فهي قاعدة سماوية اذا ادرك مغزاها الحقيقي . »

الفصل الثاني

تاريخ السياسة

١ – مراحل السياسة وانشاء السفارات

يضم تاريخ السياسة في دفتيه تاريخ الانسانية باسرها، ومتى تكونت جماعتان في آن واحد حدثت بينهما علاقات وروابط، فاشتبكت المصالح ونشبت الحروب وعقدت العهود، ولهذا نري ان الاوضاع الدولية على ما فيها من ضعف ظاهر ترجع الى اسس كثيرة التشابه شديدة التماثل.

والسياسة قديمة كقدم العالم تبقى ببقائه وتفنى بفنائه، وقد تراسلت الامم والشعوب واتصل بعضها ببعض في الايام المتقادمة، وذلك على ايدي الرسل والسفراء، غير انه يجب ان لا يغيب عن انظارنا ان الصلات التجارية كثيراً ما سبقت الصلات السياسية، وما ارسال سفير او الدخول في مفاوضة الا في الغالب نتيجة علاقات سابقة احدثتها التجارة.

وتاريخ السياسة هو القسم المتعلق بمعرفة السياسة او بما ادركه السياسيون في احوال شتى من تاريخ الانسانية والمعاهدات والمفاوضات، ويبين تاريخ السياسة قبل كل شيء كيف نشأت الاوضاع السياسية عند الامم، وكيف تطورت وتبدلت بعد الحروب، وكيف تقاربت واتحدت الدول التي تدني بينها الروابط الدينية او الجنسية او الاخلاقية او المنافع او المصالح، سعيا وراء تثبيت السلام وضمانة الاستقلال والمحافظة على التوازن او التوسع وافتتاح الممالك، ولذلك

كان درس التاريخ في الشرائع السياسية كدرس التاريخ في الشرائع الدولية لا تضاهي فوائده من حيث الاطلاع على السوابق وتفهم الحوادث ومعرفة المراحل التي طواها الانسان في اعظم شؤونه .

والسياسة القديمة ترجع الى ابعد العهود في التاريخ وتستمر الى آخر القرون الوسطى وهي التي تدعى بالسياسة المتقطعة ، حيث كانت الحروب قاعدة للعلاقة بين الشعوب وكان يومئذ يرسل السفير عند حدوث فرصة او في احوال معينة كالمفاوضات في امر او اقتراح موضوع والبحث في عقد زواج او تحالف وتعزيز صلات مودة واظهار عوامل قوة ، فقطعت السياسة طريقا مشعثا من ايام اليونان والرومان الى عهد مكيفلي. ولم يكن عند الاولين رجال مختصون باعمال السياسة الخارجية . وبعد ان انشطرت الدولة الرومانية الى شطرين ، عرف عن رومة الشرقية انها انشأت قواعد سياسية عاشت الى حين سقوطها ، ويظهر ان الخشية من الجاسوسية هي التي كانت تحول دون انشاء الاوضاع السياسية الثابتة في ذلك العهد الذي كان يعتمد فيه قبل كل شيء على اساليب الدهاء والمكر والذي كانت الغاية فيه احراز اعظم ما يمكن احرازه من صاحب البلاد على يد السفير الذي يرسل اليه .

اما السياسة التي عرفها المسلمون فانها تشبه ما سميناه بالسياسة المتقطعة ، وقد لبست ثوب العصور المختلفة التي مرت بها ، ففي العهد الاول الذي كانت فيه الحروب والفتوح متصلة ، كادت السياسة تكون غير مذكورة ، وكان سلطان السيف فوق كل سلطان ، ثم اخذت الصلات بين المسلمين وسواهم تؤكد عن طريق المراسلات السياسية وتبادل الهدايا وفداء الاسرى ، ثم ارسال السفراء واستقبالهم احيانا ، وانتهى الامر بانشاء مراكز القناصل بعد ان جعلت الحروب الصليبية الاتصال محكما بين الشرق والغرب .

وبعد انقضاء هذه المرحلة جاءت المرحلة الثانية التي تحولت فيها البعثات والسفارات الموقتة والمتقطعة الى سفارات ثابتة ودائمة ، وذلك بعد ان تبين ان

استمرار الصلات بين الشعوب يحدث من المنافع اكثر من المضار التي كانت تخافها عقلية قليلة النمو كعقلية القرون الوسطى ، وقد اعانت الكنيسة بوضعها ونظامها على اقامة السفارات الثابتة ، فتسلم السياسة الخارجية في القرون الوسطى الرهبان الذين بذوا سواهم من الطبقات في العلوم والمعارف ، وكانت اللاتينية لغة التعامل السياسي ، وسادت في هذه العصور الاخلاق التي تلتمس العذر لعادات الكذب والرشوة والافساد التي كانت توصف بها السياسة وماتقتضيه من الاساليب الخفية .

وقد بدأ هذا التحول في القرن الخامس عشر حين ثارت في اوروبا نهضة واسعة بعيدة الغور عظيمة الاثر وذلك بعد سقوط القسطنطينية وانقضاء عهد القيصرية الشرقية وتضاؤل الامبراطورية المقدسة ، وقد وافق ذلك وقت اختراع الطباعة وادوات القتال الحديثة واكتشاف اميركا ويقظة الآداب والفنون ، وكانت حينئذ تنشأ ثلاث دول اوربية كبرى : فرنسا التي خرجت منتصرة من حروب الاعداء الذين اغاروا على بلادها ، واسبانيا التي ثبتت قواعد ملكها بفضل الجهود التي بذلها فردنند وازابلا ، وانكلترا التي اشتد كاهلها واعتز جانبها بعد ان كانت انهكتها الفتن والحروب الاهلية ، فاخذت الرغبة في التوسع والدفاع عن الحدود والمحافظة على الوحدة الوطنية تقضي بالاتجاه الى سياسة التقارب وتوثيق العلاقات الدولية التي بدأت تنمو وتزداد ويعلو قدرها ، وهذا ما امتازت به المدن الايطالية ولا سيما البندقية التي كانت اول من انتبه الى منافع السياسة واهتم بشأنها واعلا من خطرها ، ويكاد يرجع اليها الفخر في وضع الاسس للسياسة الحقيقية الدائمة ومنح اوربا الاساتذة الاولين السابقين في هذا المضمار .

وبعد ان كانت الدبلوماسية حبسا على رجال الدين وبعض رجال الشعب الذين وقع الخيار عليهم اعتباطا ، اصبحت بتأثير اصحاب المذهب الايطالي من اختصاص العلماء ورجال السياسة ، واخذت تسمو من حيث الكياسة والدقة والحيلة ، وتخفي حقائق امورها تحت ستار من الشرائع والقوانين ، وكانت

الحضارة قد اصبحت على حال لا تتفق وبقاء الحرب كوضع طبيعي ، واصبحت سياسة الوزارات هي التي تؤثر في العلاقات الدولية ، وقامت الى جانب صناعة السيف ، التي كانت ترفع من شأن صاحبها وتفتح له ابواب الغنى بما كانت تعرض له من اخطار ولا سيما بمقاتلته في صفوف مختلفة ، صناعة السياسة تضاهيها ، وكانت كذلك تخدم القضايا المتناوئة ولا يتردد اصحابها من تناول المرتبات من الدول الاجنبية ، ولم يكن الخصوم في الغالب ليحمل بعضهم لبعض احقاداً وعداوات ، وكان في العلاقات الدولية القديمة بساطة وسعة خلق ، ولم يكن للسياسيين مراسم ومراتب ، حتى ان مكيفلي عندما اوفدته بلاده لمفاوضة لويس الثاني عشر ملك فرنسة سافر على جواد له يستقر حيث يطيب له المقام ويجد منزلا يأوي اليه ، ينفق من جيبه وليس لديه مال كاف لبلوغ مقر عمله .

٢ — خطط البندقية واوضاعها

كانت البندقية جمهورية تجارية كبرى تحتاج الى استطلاع الاخبار بطريقة سريعة دائمة من البلاد التي يبلغها اسطولها وتتصل بها متاجرها . فمست الحاجة الى ممثلين خارجيين يقومون بهذه المهمة بنظام وتتابع ، وكان عليهم ان يكتبوا تقارير مفصلة عن اعمالهم ويدونوا كل ما اتصل بهم ، وهذه التقارير والمدونات التي سار ذكرها في ثلاثة قرون متوالية من اول القرن الرابع عشر تحمل الدلائل والبينات على بعد نظر هؤلاء السفراء وبراعتهم في التدبير وحسن السياسة ، وبقيت المثال المحتذى في تلك الايام ومصدر الاخبار العجيب ومرجع المؤرخين الذي لا ينضب معينه ، وحرص الامراء الاجانب على احراز هذه الوثائق الخطيرة وتنافسوا فيها وتسابقوا عليها ، وكثيراً ما ادركوا غايتهم واستطاعوا ان ينالوها على انها كانت تحفظ في ديوان مجلس الشيوخ ولا يعقل ان يكون هو الذي اذاعها واذن بالاطلاع عليها واباحة اسرارها .

وكانت عناية الجمهورية منظمة منذ القرن الثالث عشر في حماية المصالح

العامة وصيانة السفراء عن مواطن الزلل ، فحظرت عليهم ان ينالوا اي منفعة ، والزمتهم ان يسلموا عند عودتهم الى خزينة الدولة جميع مالديهم وما وصلهم من الهبات والعطايا ، وان يقسموا الايمان بانهم يزاولون اعمالهم في السفارات طبقا لما تقتضيه قواعد الشرف ومصالح الجمهورية ، وكانوا يقومون بتنفيذ ما يرادون عليه ولكن يختمون تقاريرهم راجين ان يعاد اليهم ما انتزع منهم ، وقد ارسلت البندقية منذ القرن الحادي عشر سفراءها الى رومة التي بقيت عهدا طويلا مركزاً للسياسة الدولية ، ولكنها كانت تحاذر تأثير الاكليروس فيهم وتحرص على ان يظلوا مستقلين في سياستهم ، وقد بلغت فيها الريبة انها كانت تقصي موقتا عن مجلس الشيوخ الاعضاء الذين يظن انهم ينتصرون لرومة .

وتدل جميع الاوامر والقرارات التي ارسلت للسفراء وحددت فيها مهامهم على حذر متناه ورأي صحيح ، فما كان يجوز لاي رجل من رعايا البندقية ان يكون سفيرا في بلاد يملك فيها كي لا يقتاده الحرص على املاكه الى التسامح في مصلحة دولته ، وقد حرم في اواخر القرن الخامس عشر على السفراء ان يحادثوا غير رجال الدولة بشؤون الجمهورية واحوالها ، واتخذت اساليب الحيطة والحذر لمنع اباحة الاسرار ، وسنت قوانين مختلفة تذهب الى حد الاعدام لمعاقبة من يذيعها ، ولم يكن يؤذن للسفير ان يغادر مكان سفارته في يوم من الايام ، وكانت هذه السفارة في بادىء الامر لا تتجاوز اربعة اشهر ومددت بعد ذلك الى سنتين ثم ثلاث سنوات ، وكان لهذا التحديد فوائد كثيرة منها ان يتيسر لجميع الاسر الكبرى ان تنتظم في هذا السلك ، وان لا يصبح السفير اجنبيا عن بلاده حتى لا يجهلها بسبب طول الغيبة ، وكل من غاب عن بلاده من غير ان يؤذن له ، وبدون موافقة جميع دوائر الدولة ، لا يستطيع ان يعود اليها ، وكان على السفير ان لا يغادر مقره قبل ان يصل خلفه ، وان يبدأ بزيارة الديوان الكبير عند رجوعه ويسجل اسمه في سجله ويبلغ خزينة الدولة حالة ثروته ، وبعد خمسة عشر يوما من وصوله يذكر احاديث رحلته في مجلس الشيوخ الذي يعقد برئاسة الامير وتحضره الوزارة .

وكذلك في وسط الاضطراب والقلق والفوضى الشاملة في اوربا حيث كانت العلوم السياسية في مهدها ، كان المجلس الكبير في البندقية يحدد، باوامر معينة وانظمة مقررة، وظائف رجال الدولة الذين ينتدبهم للقيام بمهمة في الخارج ، وقد اتسعت علاقات الجمهورية وتجاوزت الحدود الايطالية ممتدة الى المشرق بعد ان جنت اعظم الثمرات في ايام الحروب الصليبية غير مبالية بما ترمي اليه هذه الحرب من مقاصد دينية ومعنوية ، وكانت سفارتها في القسطنطينية بعد دخول الاتراك اعظم سفاراتها واكثرها اتصالا بمصالحها ومنافعها ، فتنتخب رجالها من ارقى الاسر الذين يكونون في الغالب جديرين بعظم هذا المنصب الذي تجلت فيه مزايا سياسة البندقية واقامت البرهان على سهرها وسعة معارف اصحابها ، حتى ان سفيراً اسبانياً في اوائل القرن السابع عشر كتب في تقرير الى فيليب الثاني يذكر فيه صلات البندقية بالقسطنطينية ويطري اطراء عظيما سفراء هذه الجمهورية ودهاءهم وعبقريتهم وما يوضع تحت تصرفهم من الاموال الكثيرة التي كانوا يبذلونها بسخاء في سبيل تحقيق رغباتهم ويستعينون بها على استمالة الباب العالي ورشوة عماله والتظاهر بالاخلاص له والافساد بينه وبين سائر الدول النصرانية ، وكانت البندقية تكافىء الخدمات الحسنة التي يؤديها السفراء ورجال السياسة القدماء بمناصب ادارية كبرى وخاصة في المشرق لتعويض ما قد يخسرونه في مهماتهم اذا كانت نفقاتهم تزيد على مخصصاتهم ، وكثيرا ما كان يقع ذلك حتى ان بعض الاشخاص كانوا يحجمون عن قبول السفارات بسبب تكاليفها الكثيرة واعبائها الثقيلة .

والامتيازات المشهورة في الشرق بدأت بالرخص التي كان يمنحها امراء الاسلام ومن قبلهم قياصرة الروم لجوالي البندقية في الغالب ، ومنذ القرن الحادي عشر كان لهذه الجوالي قناصل ذو وصفة تجارية وسياسية ، وكان يستقبل السلاطين في عهد المماليك في مصر هؤلاء الوكلاء مرات في السنة فيحملون اليهم مطالب

رعاياهم ، وقد بلغ الامر بالسلاطين انهم كانوا يمنحونهم في السنة مالا معينا من صندوق الجمارك ، وقد انتقد الاستاذ هوار في كتابه تاريخ العرب هذه القاعدة التي كانت تؤيدها العهود بصراحة ، لان مساوىء هذه المطايا انها كانت تجعل الوكلاء خاضعين للسلطات المحلية كأنهم رهائن في ايديهم مسؤولون عن كل عدوان تقوم به بلادهم وعرضة للعقاب في سبيله .

وقد ذكر دوما لاتري في كتاب العهود بين الدول الاسلامية والنصرانية عهدا اعطي في سنة ١٣٧٣ او ١٣٧٤ الى جان باردباديكو سفير البندقية وقنصلها في دمشق جاء فيه ان للقنصل حق القضاء بين البندقيين في كل امورهم سوى ما يتعلق بالجنايات والعقوبات ، وكل مسألة فيها سفك دم فهي من اختصاص نائب السلطان الذي يحكم فيها طبقا للشرع الاسلامي ، واذا مات بندقي وله وصية نفذت وصيته ، واذا مات بدون وصية سلمت امواله للقنصل ليقوم بحراستها ، واذا القت الريح مراكبهم على السواحل السلطانية وجبت العناية بها ، ولهم الحق في استخراج الخمر وبيعه بينهم ولكنه محظور عليهم ان يبيعوه للمسلمين ، واذا حدثت مشكلة ولم يستطع القنصل ان يتفق وامير البحر ساغ له ان يرفع الامر الى السلطان من دون ان يعترضه عائق ، وقد اضيفت المادة الاتية : يأمر السلطان القنصل ان يعامل جميع البندقيين باخلاص ، ويأمر كذلك ان يخبر القنصل ابناء جاليته نائب السلطان بدمشق اذا اتصل بهم نبأ اسطول واذا لم يقم القنصل بهذا الواجب فللسلطان ان يعاقبه ، وكأن القناصل في هذا الشرط عيون على بلادهم لا عيون لها ، مكلفون بمهمة خطيرة تقضي عليهم بان يضحوا بمصالح بلادهم العليا لاجل مصالحهم التجارية او بان تنالهم العقوبة .

٣ — المذاهب الجديدة في السياسة

ظن الناس في ساعة من الساعات بعد انتهاء الحرب العظمى (١٩١٤—١٩١٨) ان اساليب السياسة القديمة سيقضي عليها ، وقد استشهد المتنبئون بذلك أن

هذه الاساليب لم تنجح في دفع تلك الحرب ومجابهة اخطارهـا ، ولذلك وجب التخلص من اوضاع لا تأتلف مع مقتضيات الزمان ومناحيه ، حتي قال ادوارد غراي الوزير الانكليزي ان الحرب العظمى اقامت حاجزا بين عهدين في السياسة الدولية ، فالذين عاشوا وعملوا مثلنـا في السنين التي سبقت سنة ١٩١٤ هم الان مضطرون ان يعالجوا اموراً يحسبونها جديدة وهي لا تخلو من اثارة قلقهم واضطرابهم وقد انتقلت مقـاليد الامور الى ايدي رجال هم اكثر شبابا ... وهم بدون شك اكثر قدرة على ادراك الشؤون الحديثة ، ولا يجوز لنا ان نعتقد أننا بما نعرفه عن الماضي نكون اكثر معرفة للمستقبل ، وكل مـا نستطيع عمله هـو ان نحمل اليهم ثمرات تجاربنـا ونتـائج تفكيرنا ، مؤملين ان يجدوا فيها ما ينفعهم و يفيدهم .

غير انه لا يطلب من وضع اكثر مما يقدر عليه ، والسياسة لا تستطيع ان تشفي العالم من امراضه ، وقد كانوا في الماضي ينقمون من الحكومات ويحملونها تبعة كل كارثة تحدث في العلاقات الدولية ، ولكن نشوء الدول الدمقراطية وسيادة فكرة الجماهير الجريئة دل على خطأ الشكوى ، فالسيـاسة العلنية التي اريد ان تحل محل السياسة السرية لم تكن نتائجها مرضية للذين عقدوا الآمال عليهـا ولا سيما بسبب الاعلان وتوجيه الانظار قبل الانجاز ، وهنـاك فرق بين التأجيل وانتظار الوقت المناسب لاعلان الشروط وبين اطلاع الجمهور بصورة متمادية على سير المفاوضات ، ومن حسن الرأي ان يترك المفاوضون بعيدين عن المؤثرات العامة في محادثاتهم ومفاوضاتهم لتذليل العقبات وتسوية المشاكل ، امـا الذين يريدون اعلان كل شيء حتى المفاوضات فانهم يجهلون ان اللاعب لا يطلع صاحبه على مكنون امره ودخيلة نفسه .

وليست السياسة هي التي احدثت اساليب العمـل وخططه بل الظروف والحاجات والتقاليد والعادات وتجارب الشعوب ، ولا يمكن لسلطة ان تلغيها وتحل غيرها في محلها ، واذا كانت السياسة ما زالت تلجأ الى خطط بالية وتسرف في

مظاهر تنكرها بساطة الزمان واخلاق اهله وتعدها عقبة في سبيل المحبة وتبادل الثقة ، فان رجال السياسة بقدر ما يعتمدون على تهذيبهم ودقتهم وبراعتهم فيما يضطلعون به من الاعمال الخطيرة يعينون على تسوية المشاكل وازالة اسبابها ويخففون من شدة الوسائل الشرعية والحقوقية بحيث تصبح العلاقات بين الدول والشعوب اكثر مرونة واقرب الى الخطط الصحيحة واكثر انطباقا على وسائل الحياة الدولية العامة وتعزيز جانب الحق بمقاومة السلطة والقوة .

ولا مجال للشك في ان انتصار الاراء الحرة والقواعد الدمقراطية وانتشار الصحافة وبث الآراء السلمية والنمو الاقتصادي والصناعي في القرن التاسع عشر ، ولا سيما التطور الكبير الذي حدث في المواصلات وابلغها حد الكمال ، قد اثر تأثيرا عظيما في اساليب السياسة ، غير انه لم يطرأ تغيير يذكر على غايات السياسة ومقاصدها ، فقد اصبحت الحروب قومية ولم يبق الملوك وحدهم هم الذين يثيرونها ، واخذت الصحافة في حمل الشعوب على الاعتقاد باشياء ليست في الحقيقة مما يجب الاعتقاد به ، اما رجال العسكرية والصناعات العظيمة فعليهم اتمام ما بقي وبعث الشعور الوطني الكامن .

والممثل الحديث لا ينوب عن ملك ولكن عن حكومة ، قد تكون في كثير من الاحيان سريعة الزوال ، ولا يقل ذلك في التأثير على سير السياسة واساليبها من نقص المسافات ، فيتصل الوزراء بعضهم ببعض ويحلون المشاكل الخطيرة باجتماعاتهم ومحادثاتهم ولكن هذه الاحوال لا تسوغ ان يصبح الممثل لا عمل له ولا شأن وان ينقاد الى الراحة والعجزة والكسل ، ويمكن ان يستفيد الممثل من قصر المسافات فبدلا من ارسال برقية قد يطلع عليها ويعلن مضمونها يذهب بنفسه ويحادث حكومته ، ولا يهتم الممثل بمصالح الدولة وحدها بل عليه كذلك ان يهتم بمصالح مواطنيه ، وهو اذا احرز نجاحا فانه ينال مقاما كبيرا ونفوذا عظيما في بلاده ، وقد يخطيء اذا قصر في هذه الناحية .

اما الشؤون الاقتصادية فانه ينبغي ان يعنى بها كل العناية حتى يصبح التمثيل

السياسي ممتزجا بالتمثيل القنصلي ، على انه مهما وجب الاهتمام بهـذه الشؤون فلا يجوز ان يبلغ الدرجة التي يتقدم بها على مصالح الدولة العليا ، ويزداد هـذا الاشتباك بين السياسة والاقتصاد بعد ان اتسعت العلاقات وكثرت المصانع والمتاجر ، والغايات العليا تسير جنبا الى جنب مع الغايات المادية ، ويسهل نفوذ الممثل السياسي ومكانته الاعمال التجارية والاقتصادية لبلاده .

والحياة الحديثة تستلزم تحسن المصالح السياسية ودوائرهـا واساليبها ، ولا شك انه يكون ضياعا من جميع نواحي الفكر والتصور والحس اذا اهملت الاوضاع القديمة اهمالا تاما ولم يعد يعتنى بها مطلقا ، فستبقى العلاقات بـين الشعوب وتبقى معها الاساليب والتقاليد ، على ان مسائل النفوذ والكرامة والتمثيل لم يبق لهـا من الشأن ما كان في الماضي ، واذا كان رجال من السياسيين من جماعات متعارضة لا يقدمون منذ الخطوة الاولى على التمهيد لاجتماعات خاصة فليس ذلك تمسكا بتلك الاساليب ولكن خشية من الرأي العام الذي تقوده الصحافة ، والسياسة والصحافة في هذه الايام لا تنفكان متعاونتين متلازمتين متشابهتين .

وقد اتضحت الان غايات السياسة واصبح ممثل دولة ما يتلقى في مكانه النائي البلاغات الضافية والسلطة الواسـعة .فاذا اسرف في الوسائل والاساليب فان موقفه يصبح شديد الحرج ، وليس ذلك في مصلحته ، ولا في مصلحة حكومته فوجب عليه ان يكثر من الحيطـة والحذر وان يعمل على احراز الثقة : ثقة الدولة التي هو فيهـا وثقة زملائه ، ولكن لا يجوز ان يكون اكثرهم سذاجة .

ثم ان عنصرا جديدا اخذ يدخل في السياسة ، وهو انه منذ عهد عريق في القدم يكاد يدرك قبل التاريخ ، كانت الفتوحات عنوان فخر لا يضاهيه شيء ، فجاء زمن مل فيه الناس الحروب والمعارك واخذت تزداد المخاوف من المخترعات العظيمة الحديثة وما تحدثه الوقائع والمذابح ، وانتشرت الاراء السلميـة وعقدت المؤتمرات لصيانة السلام وشعر الناس بالحاجة الى الغاء الحروب ؛ وخفت الحماسة

التي عرفها الناس للقتال ، وتنصلت الدول من تبعات اثارة الحرب وما يترتب عليها من النتائج ، ونادت كل دولة ببراءتها منها ، حتى انه بدأ التباغض بين ممثلي الدول المتحاربة في البلاد المتحايدة ، وذلك مالم يعهد من قبل ، ويدل على الكره العظيم وعلى ما تثيره في النفوس من حقد . وتحدث رجال الدول بنزع السلاح ، ولكن لم يتحقق شيء من ذلك فالجيوش الوطنية والقوى البرية والبحرية والجوية بلغت حدا من التوسع خارق العادة .

وبعدان لاحت في سماء الانسانية بوارق الرجاء ما لبثت ان استولت عليها الظلمات واصبحت اكثر الشعوب تعاني ارزاء القتال ومصائبه وذهبت ضياعا دلائل التطور الذي حدث في النفوس ، والاستعداد لقبول المبدأ الاخلاقي في علائق الدول ، وحق الشعوب في تقرير مصيرها ، ومراقبة عصبة الامم والغاء الاتفاقات والمحالفات وانشاء دول اوربا المتحدة ، وغير ذلك من القواعد التي ذهبت آثارها وقضي بفشلها واخفاقها ، ثم كانت الحرب العظمى الثانية وانشاء الامم المتحدة لخدمة السلام العام ، ولا ينتظر ان تكون اوفر حظا من عصبة الامم التي سبقتها ، ولم تدل الدلائل على ذلك حتى الان .

٤ — تطور رجل الدولة

قال جول كمبون في كتابه (الدبلوماسي) : عندما كان الجيش الفرنسي قد اوشك في ايار سنة ١٨٧١ ان ينتهي من اخضاع الثائرين والقضاء عليهم كنت اصحب الوزير جون سيمون في يوم شديد الحر وقد اقفرت باريز وكانت المدافع تدوي من بعيد ، وبعد ان مشينا خطوات لم استطع الا الخروج من الصمت وقلت ان هذا القتال المؤلم يجعل الفرنسيين يشتبك بعضهم ببعض ، على حين ان الجيش الالماني ما زال يحتل (سان دني) ، فالتفت الى جول سيمون قائلا : انك لاتزال في شبابك ! الا تعلم انه لاتوجد حرب يسوغها العقل كالحروب الاهلية والحروب الدينية . وقد ظلت هذه الكلمة تتردد في سمعي احيانا كثيرة ، فاذا كان الرجال

يستطيعون القضاء على الحرب بين الشعوب فان حرب الطبقات وحرب المذاهب لا تلبث ان يستعر اوارها ، وما من رجل لاتجد الرحمة سبيلا الى قلبه كذلك الحالم الذي يريد تحقيق حلمه واماني نفسه ، فانظر الى ان اكثر الناس حرصا على مقاومة فكرة الحرب بين الشعوب اشدهم اقداما على ايقاد نار الحرب الاهلية. ان العالم مفتوح الابواب للنضال والانسان بارع في ايجاد الاسباب للبغضاء والقتال. وقد قال منتسيكو قبل روسو انه متى اجتمع الرجال فانهم يضيعون شعور ضعفهم وتبدأ الحرب بينهم :

وهكذا فمنذ العصور التاريخية الاولى لا نرى في تاريخ الشعوب التي تهزنا اعجابا كالآشوريين والبابليين والمصريين الا نضالا مستمرا في سبيل الفتح وبسط السلطان ، وقد بقي ذلك الى ان جاء الرومان وكان شعارهم : تذكر ايها الروماني ان عليك ان تسود الشعوب عن طريق الامبراطورية ... وظلت هذه الامبراطورية تتطور الى ان اصبحت موضع هزء فولتير وسخريته وقضى عليها نابليون بدون عناء.

ورغم الجهود التي بذلت للاصلاح والتغيير فان روح التنازع والنضال في سبيل التفوق والسيادة لا تزال الغالبة في سياسة الدول وعلاقات الشعوب . ولا يختلف رجل الدولة في حالة الاعتداء او حالة الدفاع ، فهو يتخذ جميع الوسائل التي تصل اليها يده لتحقيق اطماعه اولصيانة بلاده ، لان روح الاعتداء التي تحيط به وروح الدفاع التي تملأ جوانحه لا تبقي له مجالا للاختيار .

نعم ان هناك تطورا او اعتدالا نشأ عن حقوق الدولة وتقدمها وعن تحول الاخلاق والعادات ، وقد زال كثير من التفاصيل المؤذية او انها سترت بقناع من الرياء يقال انه تكرمة الفضيلة للرذيلة ، ولكن ما هو شأن الفضيلة التي تقتنع بمثل هذه التكرمة ؟ فالرجل الذي يمثل الفتح والاستعمار لم يتغير فيه شيء ، لان الفتح والاستعمار لاعلاقة لهما بالاخلاق، وهما من الاعمال الوطنية اذا ساغ لنا هذا القول . وليس الذي يراد للشعوب هو الهناءة والرغد والتقدم في الثقافة والاقتصاد بل عظمة السلطان وزيادة التوسع

والتغلب على الاخرين ، وهذا ما تبذل في سبيله الفدى العظيمة التي لا فائدة منها في الحقيقة الا للذين بيدهم مقاليد الامور ، اما الاجيال القادمة التي ليس لها ان تتألم او تتعذب فهي التي تجري في عروقها هزة الظفر عند قراءة كتب التاريخ التي يوحى بانشائها لتحل فوق كل اجلال وتوضع فوق كل فخر ، ولكن ما نسيت هذه الكتب ان تقوله او ما أغفلت على الاقل ان تشرحه هو رد الفعل التاريخي والانقلاب الذي لا بد منه بعد كل نجاح لا يتفق مع طبيعة الاشياء .

وقد نجت فرنسة من مثل هذه العاقبة بعد حروب نابليون لان اعداءها المتحالفين كانوا اكثر رغبة بتثبيت النظام الجديد في فرنسة المشابه الى ما يتقبلونه من الانظمة ،منهم الى الانتقام للانكسارات التي نزلت بهم ، ولكن هذه الحادثة تعتبر مستثناة بسبب المشاكل السياسية التي احاطت بها ، وقد جنت المانية ثمار انتصارها سنة ١٨٧١ كما تريد،فسبب ذلك رد الفعل الذي شهدناه وادى الى حرب سنة ١٩١٤ ، وقد يكون رد الفعل سريعا ، وقد يكون بطيئا ، ولكنه امر لا بد من وقوعه ، والحرب دائرة خبيثة لا يستطاع الخروج منها ، واذا تقلد السيف شعب للتحرر من مظلمة واراد الانتقام لنفسه فقلما يقف في حالة انتصاره عند الحد الذي يعوض فيه ما اصابه من الخسران ، وهو يرغب ان ينال جزاء الجهود التي بذلها والضحايا التي كلفته حرب المطالبة بالحق ، ويكره في دوره المغلوب على شروط تجعل كل تراض في المستقبل يكون مستحيلا ،ومن هذا القبيل ما لقيته المانية من عنف واسراف في معاهدة فرساي قادها الى طلب الثأر لنفسها في الحرب والسياسة .

على ان بعض المعاهدات نسجت على غير هذا المنوال ، واذا استشهدنا بالحوادث التي لا تبرح ذكراها ماثلة في الخواطر ، ينبغي ان نعد في المقدمة معاهدة السلم بين انكلترة والبوير التي منحت بريطانية خصمها المغلوب بعد ان قاتلها قتالا شديدا الحرية والسيادة ، ولم يكن يستطيع بدونهما ان يعلو شأنه وان يصبح ركنا من اركان الامبراطورية ، وكذلك ما صنعه لنكلن ، بعد ان غلب الولايات

الجنوبيه ، واستسلمت له فاعاد اليها حقوقها كاملة وصان بذلك وحـدة الولايات المتحدة المعنوية والسياسـية ، وبسمرك نفسه الذي عقد سلم سنة ١٨٧٠ واثـار حفائظ الفرنسيين وشعور الثأر عندهم ، عقد سلما آخر من قبـل مع النمسة المغلوبة لم يكرهها فيه على قبول تضحية تبقى في نفسها جرحا لا يبرأ ، فتحولت من عدو الى حليف ، وهذه الامثلة التي اوردناها تدل دلالة واضحة على التسامح الذي ينبغي اتباعـه وعلى الروح التي ينبغي ان تستلهم لصيانة مصلحـة الجميع ومصلحة كل واحد ، وليس ذلك لعقد السلم ولكن لامر اعظم منـه واجل خطرا وهو اجتناب الحرب .

وقد حاول الذين ارادوا انشاء عالم جديد بعد الحرب العظمى ان ينشئوا رجل دولة جديد يتفق مع غاياته ومقاصده ، فوضعوا بيانات قبل اوانها وقرروا الغاء الحروب ومنعوا اتخاذها إداة للسياسة ، وظنوا ان عصبة الامم عقبة كبرى في سبيل الحرب وقائد للشعوب في الطريق الذي تسلكه ، ولكنهم كانوا لا يزالون تحت تأثير الفتح والاستعمار وعاداتهما ، فلم يأخذوا بنظر الاعتبار شروط البقاء ولا نفسية المغلوب التي تنشأ عنها ، لان الغالب لم يستطع او انه لم يرد ان يفكر في امره لو كان في محل الآخر ؛ وهـذا النمط من رجال الدولة لا يرمى ببصره الى استنفاد اسباب الخلاف من معينها واستئصالها من جذورها ولكنه يريد ان يكون اشد قوة عند نشوب الخلاف واكثر عدة .

اما النمط الثاني من رجال الدولة الذين أشربوا الآراء الحديثـــة فانهم لا يفكرون بالاسباب التي تثير الحروب ولكن بالاسباب التي تعين على اجتنابها ، وهم يرمون في سياستهم الى التأليف بين شرف بلادهم ومصالحها التي لهـا عندها المقام الاول بحق ، وبين شرف البلاد الاخرى ومصالحها ، ولا يكتفون باعتبار هذه الشعوب قبل كل شيء اعداء محتملة ينافسونها في مواردها ويسابقونها في استعدادهــا ، ولكن ينظرون في حقيقة اوضاعها وحاجاتها ومشاعرهـا وعواطفها وفي قوانين بقائها واحوالها النفسية فيهتمون بالامور الثابتة في حياة الشعوب ويستخرجون

العلل التي تسبب الحوادث ويدققون في فلسفة التاريخ بدون ان يضيعوا في تأمل الاسباب الثانوية والطارئة، ولا يستفزهم الغضب اذا لم يقعوا في احكامهم على ما يريدون ويشتهون عند غيرهم ، وهذا بخلاف رجل الدولة المتسلط الذي لا يفكر الا بمصالح شعبه ولا ينظر فيما يمكن ان يفكر به الاخرون ، بل انه ليغضب اذا اذا وجد لديهم عواطف ومشاعر لا تتفق وما يريد ان يكونوا عليه ، كما انه لا يأبه لمصالح الشعوب الدائمة ، على حين انها ليست هي التي تثير الخصومات وتبعث الحروب ولكن الاطماع الطارئة والرغائب الزائلة .

وهنا نتساءل اذا كان رجل الدولة في نزعاته الحديثة اقل وطنية من رجل الدولة في نزعاته القديمة ؟ فالجواب على ذلك انه يكون اكثر وطنية . لان وطنيته اصح تفكيرا وانقى ضميرا واشد ثباتا ، والذي ينبغي عليه القيام به لخير شعبه هو ضمان مصالحه الحقيقية وتأمين اسباب سعادته وتقدمه المادي والادبي والتطور التام لجميع مداركه ولكن بدون اتساع موهوم على حساب الشعوب الاخرى ، وتنافس لا يعرف مصيره في سبيل غلبة باطلة وسلطة ذاهبة ، نعم ان سياسة التسلط والفتح تمر بها ادوار باهرة لامعة ولكن باعظم تضحيات ونفقات ومخاطرات ، ثم بمساعفة الحظ الذي يعين على احرازها ، وصاحبها كالرجل الذي يغامر باموا له ومضارباته مغامرة اما ان تقوده الى الخراب والوبال او الفوز والنجاح ، والرجل الحكيم يسير بهوادة ورفق وينمي ثروته باعتدال وروية .

على انه لا يجوز تنكب سبيل المفاخر والقناعة بما يأتي عن طريق الحيطة والحذر ولم يكن ذلك مما يسوغ في ماض ولا مستقبل ، ولا شيء ابعد عن الرأي من الاستخفاف بالضربات العظيمة والمآثر الكبيرة لهؤلاء الجنود البواسل الذين لايسألون عن الاسباب التي قادت الى الحرب ، والذين يحملون الى ساحات القتال التي لم يستدعوها العبقرية والجرأة وروح التضحية السامية ، وذلك ما يبقى ابدا موضع الاعجاب والتكريم وما يحتفظ بجمال الذكرى وبهائها ،

وليس هذا ما ينكر ، ولا تلك المواطن القدسية العظيمة ، هي ما ينتقد او يراد ان تحرم منها نفوس الشعوب ، فالروح الجديدة لا تهدد عوامل النصر ومواطن الفخر ، ولكنها تقاوم استمرار الخطط والاساليب القديمة التي تكره الشعوب على ان تبذل ضحايا هائلة في سبيل التسلط والفتح وتجعل الخلافات مستمرة وتهدد امن العالم وحياته المطمئنة .

والحرب التي اصبحت قائمة على الفن والصناعة تميل الى التخفيض من قيمة المفاخر العسكرية باعتبارها مفاخر وطنية ولا سيما اذا وصلت الى مرحلة الحرب الكيمائية المخيفة ، فلا فخر حينئذ، وليس هناك الا القتل الذريع والاستنكار الشديد ، ولكن اذا حرمنا هذه المفاخر الا يبقى لدينا مجال لاحراز مفاخر غيرها ؟ وهل الشجاعة الجسمانية وحدها هي عنوان قيمة الانسان منفرداً ومجتمعا؟ كلا ، فنضال الشرور الناشئة عن الطبيعة ونضال تفاوت الطبقات الاجتماعية ونضال الجهل والرذيلة والعمل على تسخير العلم والذكاء والعبقرية للخير العام وتنمية وسائل الثقافة ، كل ذلك يفسح المجال لاحراز المفاخر التي يزيد في رونقها انها لم تدرك عن طريق الاضرار بمصلحة شرعية ولا بانكار عاطفة شريفة كما انها تستدعي احيانا من الضحايا ما لا يقل عما يبذل في ساحات الوغى،وهذه الفتوحات مطلقة لمن اراد نيلها ، وهي ابعد في مراقي المجد من فتوحات التسلط والاعتداء التي تعمل في السلم كما تعمل في الحرب ، ويهمها اضعاف الخصم اكثر مما يهمها اعلاء شأن البلاد ، والقوي الذي يفوز بالغلبة والنصر قد يكون فوزه ناشئا عن ضعف خصمه ، ولا شيء في ذلك من المكرمات التي تتقاسمها الشعوب وتتعاون على احرازها من غير تنازع ولا اذى ، او استفزاز لشعور واثارة لانتقام او جرح لاحد في سبيل الغلبة والنصر .

هنالك اذن آمال عظيمه لاعمال جليلة وآثار نبيلة ، واعظم الشعوب مكانة

وفخرا هو الذي يتخذ افضل الوسائل لتنظيم المجتمع واجتلاب السعادة والرخاء له ، ورجل الدولة هو الذي يقود شعبه الى هذه المنازل الرفيعة فيحتفظ الاحتفاظ كله بكرامته من غير ان يبتذل كرامة غيره ، ويحدث من الاعمال العظيمة ما يرفع الرأس عاليا بدون ان يخفض من رأس سواه ، وهو لا يكون ضعيفا ولا مستسلما ولا واهنا في الدفاع عن كرامة شعبه وعن مصالحه الحيوية وعن ثقافته وادبه ، بل يكون قويا شديد العزم في دفع كل اذى يمس مصالحها العليا ، وهو يمتاز عن رجل الدولة الفاتح المتسلط بما يستمده من نبل شعوره ونقاء ضميره ، وبما يطالب به شعبه من احترام حقوق الآخرين وان يريد لهم ما يريد لنفسه ولا يكرههم على قبول ما لا يقبله والرضي بما لا يرضى به ، والسلم الدائم والطمأنينة العامة والنظام الجديد الذي يراد انشاؤه ، كل ذلك يرجع الى هذا المبدأ في مشاركة الآخرين في آمالهم ومشاعرهم وعواطفهم ، الذي هو اساس جميع العلاقات الانسانية ، ويكفي للمرء ان يرجع لنفسه حتى يدركه .

غير اننا لا نزال بعيدين عن الوصول الى هذه المنزلة ، ولا تزال الفكرة الحربية هي التي نجدها في ثنايا البيانات والتصريحات ، ولا غرابة في ذلك فليس من الهين التخلص في سنين قلائل من تقاليد الوف السنين ، وبدون ان نسعى وراء الخيال فان رجال السياسة الواقعيين ورجال المثل الاعلى كلهم متفقون في هذا التطور التاريخي للشعوب ، ويمكن ان يقال ان التضامن الذي ننشده في العلائق الدولية مقصر كل التقصير عن تقدم الجماعات البشرية ، والدول منذ عهود قديمة تقف حائلة دون نمو غيرها نموا كبيرا يضر بها ، والحرب عمل خاسر للغالب والمغلوب معا ، وقد تطور الزمان اكثر من الرجال ، فما هي الوسيله للاسراع بالتطور؟ ومن الذي يجب ان يحمل لواء التقدم؟

لا شك ان الدول العظمى وحدها هي التي تستطيع ذلك وهي التي ستبقى مسؤولة عن مستقبل الانسانية ، اما الشعوب الصغيرة فانها لا تستطيع ان تخلق الاتجاهات السياسية ولكن تنحني امامها . وقد نودي كثيرا في جنيف بتساوي الشعوب الصغيرة والشعوب الكبيرة، ولكن هذا التساوي لم يتجاوز حد الرأي والنظر من الوجهة الحقوقية التي لا تنكر قيمتها ولكن على شرط ان لا يبالغ بالتمسك بها ، فمن الوجهة العملية ما زال الكبار كبارا ، وقد كان باستطاع دولة صغيرة ان تحول دون قرار تريده دولة كبيرة في عصبة الامم ،ولكن طبيعة الاشياء تحملها نتائجه ، والنمط الجديد لرجل الدولة الذي لا يزال في مهده ينبغي ان ينشأ من الدول الكبرى .

وليست القضية قضية اشخاص ولكنها قضية ترجع الى الاخلاص لما يسمى الروح الجديد والى الحرص على تعزيزه في نفوس الشعوب ، وذلك ما يستطيع رجال الدولة الذين انتهت اليهم الرئاسة ان يمدوه بالرأي وان يدفعوه قدماً ولكنهم لا يستطيعون ان يتخلوا عنه وان يذروه وشأنه ، وان كانت سرعة السير ، تتوقف على الجهد الذي يبذله المجموع .

هذه هي تجارب ثلاث اجيال عاش الناس فيها وتأملوا في شؤونها ، فكان كل جيل يهتم قبل كل شيء بازالة ما فعله الجيل الذي سبقه ، وكان العالم يذهب من انقلاب الى انقلاب في الدائرة الخبيثة المخيفة للحرب والسلم التي تنشأ من فكرة الغلبة والتسلط ، وطريق النجاة تكون في الخروج من هذه الدائرة مهما كان الامر شاقا . نعم ان هنالك مصاعب جمة ولكن يجب على كل انسان ان يحمل في تذليلها صدقا وايثارا وحماسة ، فالغاية جديرة بهذا العناء ، والآمال التي تعقدها جميع الشعوب على التضامن والتعاون ، والضياء الذي تتطلع اليه لينير سبيلها ، يجعل كل جهد ، وان عز ، حقيقاً في ان لا يحجم عنه ، وقليلا في جنب ما يريد ان يكتشفه العالم من آفاق جديدة .

الفصل الثالث

المناهج السياسية وأساليبها التقليدية

١ — الحق العام ومصلحة الدولة

يسيطر الحق العام على علائق الدول وهو ينشأ من اعمال وعادات وتقاليد يقصها علينا التاريخ الذي هو لباب هذا العلم كما انه لباب السياسة ، والحق العام في وضعه وتطبيقه يختلف كثيراً عن المثل الاعلى الذي يريد المصلحون ان يجعلوا منه نظاماً تتبعه الجماعات في اجيالها المقبلة ، على ان احلام الشعوب وخيالاتها التي تحمل اليها السلوان وتخفف عنها ماتلاقيه من شرور السياسة ومن حكم القوة هي اشبه شيء بما تتوهمه النفوس من صور العدل المطلق الذي لاتبلغه وان كانت تتعلل به كما يتعلل الظمآن في البادية برؤية السراب الخادع .

والسياسة بأسرها قائمة على فكرة الدولة ، والسيادة التي تميزها لاتصبح شرعية عند الدول الاخرى الى اذا اعترفت بها، غير ان هذا الاعتراف لايتقيد باي اساس من اسس الاستيلاء واسباب بسط السلطان ، ومهما اختلفت انواع الحكم فان تبادل الصلات بين الدول لايتأثر بهذا الاختلاف ، اما الفكرة القائلة بان هذا الدستور افضل من ذلك وان هذا الاسلوب من الحكم يجب اتخاذه مثلا اعلى يدعى الآخرون اليه ويحملون على قبوله فليس ذلك مما يهم رجال السياسة ، لان مصلحة الدولة هي التي تقودهم كما ان الشعوب تقودها الاهواء والعواطف .

والدولة تنطوي في نفسها على سر بقائها وغاية امرها ، ومصلحتها او حقها هو آخر ما ترمي اليه وتسعى وراءه ، والدولة لا تعترف بسلطة فوق سلطتها ، ولا تنقاد

في منهاجها وفي حكمها الا بما تمليه ارادتها المطلقة ، وهذا هو المذهب القديم للسلامة العامة الذي لم يفارق السياسة مطلقاً وبقي على نحو ما قرره الرومان وحملوه الى العالم ، وقد اجلته العصور المتوالية الى ان ورثته العصور الحديثة ، فاعلت شأنه النهضة الاوربية وجارى في نموه تطور الدول الكبرى التي اقتبست من رومة فكرتها السياسية كما اقتبست منها قواعدها واوضاعها . واسم مكيفلي عنوان هذا المذهب ، على انه لم يكن الا رجلا يتتبع حقائق الامور وسير الشؤون ، فكان يصف ما يراه ويثبته ، ويرده الى القواعد التي يضعها عن سياسة معاصريه وخططهم .

وقد سار رشليو على آثار هذا الكاتب المبدع المتين وتمسك بمذهبه وامعن الفكرة في اسسه ولم يكن يستغني عنها في مناهجه واساليبه ، حتى ان احد مريدي الكردنال كتب في الثناء على مكيفلي يقول : ان قواعده قديمة كقدم الدول في العالم ، وهو لم يأت بشيء جديد ولم يحدث مالم يسبق اليه ولكنه يروي ما فعله اسلافنا وما يعمله رجال هذا العصر مضطرين او مختارين . وما كان رشليو ليبدي هوادة في تطبيق مذهب السلامة العامة ،ودفعه الى الحد الاقصى في وصية السياسة فقال : ان الذي تكون لديه القوة هو الذي يكون له الحق في شؤون الدولة ، وقلما يستطيع الضعيف ان ينجو من حكم الناس بخطأه .

وقد شارك اعظم سياسي في فرنسة القديمة اعظم مفكر فيها وهو بسكال بقوله : تتعرض الدول للبوار اذا لم تذعن لمقتضيات الحاجة ولم تجعل القوانين تنحني امام الضرورات ، ولما لم يكن في المستطاع جعل القوة في جانب الحق فقد جعل الحق في جانب القوة .

وظل الامراء ورجال الدولة منقادين الى هذا القانون الاعلى للسياسة والحكم ، حتى قال سان سيمون انه لم ير الا استثناءاً واحداً ، ولكنه من هذه الاستثناءات التي يقال انها تثبت القاعدة ، وذلك ان فردريك الكبير حاول في اثناء نشأته ان ينتقد آراء مكيفلي في رسالة وضعها عندما كان يشارك التلاميذ في قاعة الدرس ، غير انه منذ شب عن الطوق وانطلق يبدو مستقلا بنفسه ، ترك دفاتره تذورها

الرياح وارخى لمطامعه العنان في اوروبة ومضى في سبيل غاية لا يريد منها ان يحرز قصب الرهان في الفضيلة ، فثأر بذلك مكيفلي لنفسه واكد ما قيل من ان جميع الناس ينتقدون آراء مكيفلي وجميعهم يعملون بها وفي المقدمة منتقدوها ، ولم يكد ينتهي القرن الثامن عشر حتى نال هـذا المذهب انتصارات اعظم اثراً وابعد ذكراً .

وقد انحطت الآراء والاخلاق في هذا القرن ، وكان للنساء تأثير غريب، فان امرأة قد غلبت بالمال او بشيء اقوى منه تعارض في المفاوضات على حين ان امرأة غيرها تريد نجاحها لنفس الاسباب ، وكان الناس يقولون قولا حسناً ويستبيحون في اعمالهم كل ما ينكرونه بالسنتهم ، وكانوا يحاولون ان يظهروا بالمظهر الطيب وان كانت دخائلهم فاسدة ، ويزيدون في تعقيد امورهم بمحاولة التأليف بين اقوالهم الظاهرة وسيرتهم الباطنة ، ولم تتغير الا اللهجة ، وبقيت السياسة على حالها في اساليبها ومناهجها لم يطرأ عليها من التبدل الا مايطرأ على الاوصاف التي تهم الناس والحجج التي تشغل الجمهور ، فهي تتبدل بحسب ذوق اليوم وبحسب المذهب السائد ، وقام مقام التهكم الدقيق الذي عرف به بسكال ، والصدق الجارح الذي عرف به رشليو ، سخرية فولتير واستهتار فردريك .

اما مصلحة الدولة فقد ظلت سائدة ولا سيما في المكان الذي يظن اهله انهم اقوياء على تحقيق المطالب التي يريدونها ، ولم يبرح الامراء الناشئون والرجال المعدون لدخول الوزارات يتلقون تعاليم مصلحة الدولة قاعدة اساسية لتدبير الممالك وسيادتها مهما كانت حالة الدولة ووضعها ، وهذه القاعدة التي تقبلتها جميع الشعوب القديمة والحديثة ترمي الى ان السلامة العامة ينبغي ان تكون غاية الغايات في الدولة التي تتغلب منفعتها على كل عاطفة ، مهما كانت تستند الى اساس من الحق والعدل .

واذا كانت مصلحة الدولة هي القاعدة ومنفعتها الغالبة فان التوسع وبسط السلطان هما الغاية ، وكل حذر واحتياط يذهبان ضياعاً اذا اطلقت شهوات الفتح

من عقالها،وثارت الاطماع في حب التغلب وبسط السلطان ، وفكرة عظمة الدولة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بفكرة اتساعها ، وهذه الآراء تضاهي في قدمها قدم الجماعة الانسانية ، ومتى وجد الرجال واجتمعوا نشب النضال بينهم في سبيل الاعتداء والدفاع ، فسلب الممالك وافتتاحها من الامور التي نشأت مع الانسان ، وكان الامراء في جميع العهود يجعلونها عنوان فخرهم ومجدهم ، وقد امتدح مكيفلي هذه المقاصد النبيلة في توسيع الحدود وزيادة التسلط ، وقال انه ليس للامراء الا ما تغلبوا عليه ، والاقوياء هم الذين يضعون السنن للضعفاء ويأمرونهم باوامرهم ويستولون على ما يريدون من بلادهم لتأمين سعادتهم ورخائهم ، وهم يرون حقا لهم كل ما فيه فائدة ومنفعة ، وليس للدول حد تقف عنده غير صيانة الملك وبقائه وان تعمل كل ما تستطيع لادراك هذه الغاية وان اضرت بجيرانها ... وهذه الآراء التي كانت سائدة في القرن السابع عشر قادت منتسكيو الى القول في القرن الذي يليه : ان سر المملكة قائم على الحرب والتوسع ، وقالت كاترين الثانية : يخسر الذي لا يربح .

٢ — نظام التوازن

اذا كانت الدول لا تعرف حكما غيرها ولا تذعن لغير منفعتها فانها مع ذلك لا تفرط في هذا المبدأ ولا تنقاد انقياداً اعمى لمصلحة الدولة ، لان المنفعة نفسها تقضي احياناً بالاعتدال ، واذا كان الطمع يهيء الخطة فالحذر يرافق تنفيذها ، وكان فردريك يقول انه يجب التوقف في الوقت المناسب ، فانتزاع الحظ اضاعة له ، والحرص دائماً على الزيادة في الكسب هو السبب الذي يحول دون النجاح ، وليست القواعد الاخلاقية هي التي تدفع لذلك ولكن التقديرات السياسية ، وكل شيء له نسبة ومشابهة ، فالمناوشة التي تقع في قرية تسمى مذبحة ، والمعركة الكبرى التي يهلك فيها اجيال من الناس تعد عملا عظيما ، والاوهام البشرية لا تغفر لمرتكبي الجرائم الصغيرة ، اما ضمائر رجال السياسة فانها تتسامح في الكبائر وتشتد في معاقبة الصغائر .

وقد قيل منذ عهد بعيد عن الاسكندر : اذا كان يقتل السارقون الصغار فانه تقام الهياكل للكبار ، وكان فردريك ينتقد نقض العهود اذا لم يكن هنالك سبب يسوغ ذلك لانه يجعل للرجل سمعة المتحول المتقلب الضعيف الرأي ، وكان رشليو يقول : انه مهما كان الامر فان محافظة العهود اجدى واحكم ، وهي اقوى وسائل الملوك ، ولا يمكن التغلب الا عن تصميم وحسن تقدير ، وكانت ماري ترز تراقب ضميرها وتتسامح في اعمالها ، تذرف دموعها وهي تسعى وراء اقتسام بولونية ، اما فردريك فكان ينال حظه وهو يسخر ويبتسم ، وكان الفرق بين الاثنين ان الاولى كانت تطلب الزيادة من بولونية بسبب ما تشعر به من عذاب الضمير ، وزيادة من البولونيين بسبب ما هي عليه من التحرج والتذمم ، وهـذا كل ما استفادته الاخلاق ، كأن القلوب التي تألم يخفف عنها ما تلاقيـه اذا كان قسط الغنيمة عظيما .

والفتح الذي هو مبـدأ العمل يجد في غايته ما يعلي شأنه ، والاسراف في استعمال القوة يسبب الخراب والدمار ، فيجب ان يكون صاحب السلطان قويا حتى تتيسر له الفتوح، وان يكون عادلا وعاقلا حتى يحتفظ بها ، وقد قال منتسكيو : النصر هو غاية الحرب والفتح هو غاية النصر والاحتفاظ هو غاية الفتح . والفتح هو استيلاء ينطوي عليه معنى المحافظة والاستفادة لا التخريب والاضاعة ، فهو اذن يشتمل على التمثل ، ولا يجوز ان يفتح مالا يمكن الاحتفاظ به ، ولا يحتفظ الا بما يمكن ادغامه وتمثله ، وعلى الفاتح ان يصلح بعض الشرور التي سببتهـا فتوحه . وحق الفتح هو حق ضروري على رأي منتسكيو وامر شرعي سيء، وهو يبقى على الدوام ديناً عظيما تتقاضاه الطبيعة البشرية ، وعنـد الوفاء يصبح الفتح شرعياً ، وهذا الحق الذي يبدأ باستعمال القوة يصبح ، اذا صح هذا القول ، حقا عاما وامراً طبيعياً بموافقة الشعوب وبالحكم الهادىء .

ثم ان الدول لا تستطيع ان تنمو الى ما لا نهاية ، والحـدود المتسعة كثيرا تضعف الدفاع وتسهل على العدو الهجوم ، وعلاوة على ذلك فكل نمو هو نسبي ،

وقد يكون في الغالب خير الدول ان تحتفظ بدول ضعيفة متفرقة تقوم على حدودها بدلا من ان تستولي عليها وتتقاسمها مع جار قوي يصبح حليفا في ساعة زائلة، ولكنه يبقى خصما منافسا .

فهذا الاعتبار هو اذن حد مانع للنمو، والشعور الذي يسود بين الدول هو ان تعمل على مقاومة كل من تحدثه نفسه ان يصبح فوق الجميع ، والذي تحدثه نفسه بحصة الاسد يرى ان خصومه ومنافسيه يتحالفون عليه ، ويتألف من ذلك بين الدول الكبرى ما هو اشبه بشركة تقاسم تحتفظ فيها كل دولة بما لديها فتمنع كل تحكم وتربح بالنسبة لما تبذله وتنال ما تريده من توازن القوى او توازن الدول ، وهذا هو امر واقع يلجأ اليه بعد الحروب الكبرى عندما تكون جميع الدول قد انحطت واضمحلت ، وحينئذ يكون التوقف هنيهة للتعامل والتقارب .

وكذلك فان من الادعاءات التي يعارض بعضها بعضاوالقوى التي يحدد بعضها بعضا يحدث شيء من التوازن ، غير ان الاسباب التي تحدثه هي التي تعمل للقضاء عليه ، ولاجل البقاء والاحتفاظ لا يجوز التغيير ، وهذا من الامور المستحيلة . فينبغي ان يتبدل العالم وان لا يبقى اقوياء ولا ضعفاء ولا بخلاء ولا متسامحون ولا حريصون ولا اكفاء ولا عاجزون ، ويكفي ان تضمحل دولة وتتعزز اخرى حتى يزول التوازن الذي هو رأي يؤوله كل فريق على حسب هواه ومصلحته .

ويحتج بالتوازن الذين يرمون باطماعهم الى السيادة والتفوق . وهكذا كانت فرنسة تقاوم البيت المالك في النمسة ، وانكلترة تقاوم البيت المالك في فرنسة ، وعند تألف عصبة ما فان كل فريق يبحث عن مصلحته . وقد تقضي هذهالمصلحة في الغالب بمقاومة القوي وقلما تقضي بمؤازرة الضعيف الذي يراد الاستيلاء على ملكه ، والتوازن يريد ان يكون تكافؤ بين القوى ، واذا جرى تقاسم فينبغي ان يكون تعادل ، والضعفاء والمغلوبون هم الذين يدفعون ثمن ذلك ، والنتيجة في الغالب تكون في مصلحة الاقوياء واصحاب المقدرة والاطماع .

فالتوازن ليس بمبدأ المحافظة على النظام ولا ضمان الحقوق ، والمعاصرون يعرفون ذلك جيداً ، وبقدر ما يتضح لهم الامر بقدر ما يمعنون في التسلح ، وقد قال منتسكيو ان مرضاً جديداً استولى على اوروبة وغلب على رؤسائها وامرائها فجعلهم يعملون على حشد الجنود وتعبئتها بصورة غير معقولة ، ومتى اكثرت واحدة جنودها قام الآخرون ينافسونها في الاكثار ، وهذا ما يؤدي الى خراب الجميع ، وكل دولة تعد كل ما تستطيع من قوة لدفع الخطر عن بلادها ، ومع ذلك يسمى سلماً هذا الجهد المستمر في سبيل النضال والنزاع .

وجملة القول انه لا يوجد ضمان غير ضمان المنفعة ولا مبدأ للنظام غير تعارض المنافع ، وقد قرر العرف والعادة انه افضل للدولة ان تسود بين دول ضعيفة من ان تنازع امبراطورية وتقع بين منافسين اقوياء ، ومن حسن الرأي ان لا يقوم المرء بعمل لا يستطيع تسديده والوصول الى غاية منه ، وليس هناك حق يعترف به الجميع بل حقوق يستمد كل واحد للادعاء بها . فعندما علم فردريك الكبير بانه قادر على الاستيلاء على سلزية تذكر ان له حقوقاً قديمة في هذه المقاطعة ، ولما لاحظ وزيره يردد ان هذه الحقوق قد انقضى امرها بالمعاهدات المعقودة اجابه : ان ناحية الحق من عمل الوزراء ، من عملكم انتم ، وقد آن الاستعداد لها سراً لان الاوامر قد ابلغت للجنود . وكل واحد يحتفظ في سجلاته بالحقوق التي يريد الادعاء بها عندما تيسر له الاسباب ، وكانت تجزئة دولة تعتبر من الوسائل التي تدفع بها الحروب وهي نتيجة غريبة لمبدأ التوازن ، تشتق منه وتتقرر في الوقت الذي يراد تحديده ، والعدل في الامر اقامة القسط في الميزان .

وكان مقتسمو بولونية سنة ١٧٧٢ يحتجون بحقوق لهم ، ولكن هذا العقد الجائر لم تكن تقنع حججه احداً ، ولم تكن هذه الحجج الا من الاسلوب المألوف الذي لا يقنع حتى اصحابه ، وقد كتب فردريك ان هذه التجزئة كانت اول تجزئة ذكرها التاريخ وانقضى امرها بسلام بين دول ثلاث ، غير ان الدول الضعيفة كانت تتبع بخشية زائدة هذا النظام الذي يهددها جميعاً والذي تقبلته

اوربة ودخل في عرفها وعادتها وحل محل نظام التوازن بل اتمه وزينه . وقد كان اقترح على ماري ترز ان تستميل ملك بروسية بان تكون له ولاية بولونية ، وطلب ملك بروسية من روسية ولايتين بولونيتين بمقابل محالفته اياه ، فبذلتهما روسية له ، وكانت السياسة الفرنسية تريد من وراء تجزئة بولونية فصل النمسة عن بروسية ، اما الترك الذين كانوا يقاتلون في سبيل استقلال بولونية فلم يكونوا يحجمون عن التخلي عن حليفتهم النمسة حتى يستعينوا بها على روسية ، وهذا انموذج التقاليد السياسية واخلاق رجالها .

٣ — تحين الفرص ونقض المواثيق

المباديء هي التي تقرر منهاج الخطة التي يجب اتباعها ، واول مايعتمد عليه في هذا الشأن التحرز واليقظة وترقب الفرص حتى لا يضيع شيء منها ، والذي يفاوض كما قال رشيلو في وصيته ، يجد دائماً فرصة مناسبة لادراك غايته ، والنجاح هو من حظ الرجل البعيد الغاية البارع الاسلوب ، واذا لم يكن شك بوجوب انتهاز الفرص وحسن اغتنامها ، فلا جدال في ان الفرص في غالب الاحيان ليست الا صنع مثيري اللغط والضجيج ، ولكن الاستفادة منها تقتصر كذلك على اصحاب النفوس الكبيرة .

اما اذا نظرنا الى الصدف الفردية فانه يتراءى لنا ان الحظ هو الذي يتوقف عليه تأسيس الدول وذهابها ، غير اننا اذا امعنا النظر وجدنا ان الامر في الدول يشبه اللعب والرجل البارع هو الذي يغلب في نهاية الامر ، وفي هذا اللعب الدامي التي تتنازع فيه الشعوب الحكم والسلطان نرى ان الرجل الذي كان اصح رأيا واكثر جدا ، والذي مارس الامور العظيمة، وعالج الشؤون الخطيرة ،وطالت فيها تجاربه، فاستطاع ان يدفع الاحداث المحتمل وقوعها او انه تهيأ لمدافعتها بحسب ما

تقضي به الظروف – هو الذي يكتب له في نهاية الامر النجاح ، ويقوده الحظ لتحقيق خططه واساليبه .

والسياسة تتظاهر بعدم الاعتقاد بشيء حتى ولا بنفسها وعبقريتها ، وقد تلقى كل واحد عن الطبيعة الرغبة في النمو ، والفرصة عند سنوحها تهيء الرجل الذي عهد لها السبل ، وكان فردريك يسمي الفرصة العناية الالهية الطيبة وصاحبة الجلالة المقدسة ، ومع ذلك فقد كان اكثر الناس امعانا في تفكير واحكاما لتدبير واقل رجال السياسة مغامرة . وكان يقول رشيلو لا معنى للحظ والصدفة في الحقيقة ، واذا كان يجب اغتنام الفرص وتمهدها فانه لا يجوز اجبار كل شيء على ان يكون تابعاً لها . والسياسة تتطلب الصبر واحسن ما يعمله رجل بارع هو ان يقوم بعمله في ابانه ، والذي يكون قد امعن النظر في نظامه وخطته هو وحده يستطيع ان يتغلب على الذين يعملون بدون اتساق ولا انسجام ولا استنتاج .

وعندما يكون الزمان مع الفلسفة فان رجل الدولة يكون فيلسوفا ، محبا للحقيقة متسامحا ، يتسمى مواطنا ولا يبحث الاعن سعادة النوع الانساني ورخائه . فالفضيلة ومكارم الاخلاق تحل احيانا محل الشرف القومي ، ويكفي ان يكون صاحبها رقيق الحاشية مجردا عن الاوهام ، يحتفظ بالمظاهر ويتحدث بالطريقة التي يحبها ويحسن توجيه الكلام . والرجل السياسي يظهر في بعض الاحيان طيب الشعور شديد الحماسة محبا للطبيعة سهل البكاء ، وكان فردريك الكبير يقول بعد اقتسام بولونية ان ماري ترز تبكي دائما وتغنم دائما .

وهذا في الحقيقة اساس المنهاج الذي يتبع في العالم ، وكل ما فيه من دقة وبراعة انما يرمي الى غاية واحدة وهي ان لا يخدع ابدا وان يخدع الآخرين اذا استطاع ، وكل رجال السياسة يعرفون ذلك ويوجسون من الشك والريبة في صلاتهم ما لا يكاد يصدق ، وهم على حق فيما يجب ان تكون عليه الدولة من الحذر كالرجل الذي يحيط به الخصوم ويتربصون به الدوائر ، وكذلك حال شعوب اوربة ، وهي الان اكثر من كل زمان ، والمفاوضات ليست الا نضالا مستمرا بين

رجال ضعيفة اخلاقهم شديدة اطماعهم ، والمواثيق التي تنشأ من هـذه المفاوضات يتوقف حفظها او الغدر بها على منفعة الدولة،ومعنى ذلك انه لا تكون هنالك ثقة قليلة ولا كثيرة ، فمنذ اجيال والعهود تنقض وتحرف ، وكل معاهدة تعقـد ولا تكون في مصلحة احـد عاقديها فانها لا تلبث ان تدفع وتنقض ، وليس من طمأنينة في الحاضر ولا امان في المستقبل ولا اعتماد على المعاهدات ، مهما جرت مناقشاتها في جو من الجلال والوقار ومهما وقعت وابرمت باهتمام وعناية .

وقد عد فردريك الكبير في مقدمة مذكراته الاحوال التي تنقض فيهـا العهود فجملها اربعة : ١ — تخلف الحليف وعجزه ، ٢ — ضرورة الوقوف دون ذلك ، ٣ — القوة القاهرة ، ٤ — نفـاد الوسائل . واغفل السبب الخامس الذي هو اكثر ملاءمة للشؤون السياسية وهو مصلحة الدولة او منفعتها التي لا توجد وسيلة تدفع حججها واطماعها .

وحاول الامبراطور شارل السادس ان يتوسل بكافة العقود والعهود ليجعل ابنته ماري ترز في امان بعد موته،وتتمتع بالملك الذي خلفه لها من غير ان يكدره عليها مكدر ، فلم يجده حذره وحيطته ، وما كاد يقضي نحبـه حتى مزق الامراء الذين عاهدوه مواثيقهم ونقضوا عهودهم ومدوا ابصارهم الى ميراث ماري ترز ليتقاسموه بينهم ،فلم تكن في حين من الاحيان مصلحة الدولة حجة في تمزيق العهود والعبث بالحقوق وانتهاك مبادىء الشرف والعدل كما كانت في هذه المرة ، وقد ثبتت انكلترة وحدها عندما عاهدت عليه ولكن كان في عملها مصلحة لهـا وضمان لمنافعها . وكذلك كانت اخلاق هـــذا العصر واخلاق جميع العصور ، وكانت وزارات فئة خاصة تتهم بعدم الثبات على العهود وبسوء النية ، وقد تكون هذه التهمة صحيحة ولكن لا يسلم منها زمن من ازمان التاريخ ، وهي تطبق على جميع الوزارات في اوربة .

وكثير من الذين عالجوا الشؤون السياسية قرروا انه لا يجوز ان يخـدع بالنظرات والآراء التي تغر العامة، والتي من شأنها تصور الاعتماد على الحق والعدل

والقصد والصدق ، وغير ذلك من فضائل الشعوب وفضائل قادتها ، فكل شيء في الحقيقة يرجع الى القوة ، والذين لا يخشون ذاماً يقولون بصراحة ان الغاية تبرر ما يبذل للحصول عليها من الوسائل ، وقد ذكر منتسكيو في اثناء معالجته لشؤون الممالك وتربية رجالها في روح الشرائع ان الاعمال لا توصف بانها طيبة ولكن جميلة ، ولا عادلة ولكن كبيرة ، ولا منطقية ولكن خارقة للعادة ، واذا كان الامر شريفاً بذاته فذاك والا فان الحكم يشرفه وصاحب المنطق يبرزه ، اما الحيلة فانها تستباح عندما ترمي الى غاية رفيعة او الى عمل كبير ، كما هو شأن الاساليب الدقيقة في السياسة ؛ وليست المخادعات قبيحة الا اذا لم يساعفها حظ . والحرب هي اعظم وسائل الممالك والبرهان القاطع لمصلحة الدولة ؛ وهي حق وعـــدل متى كانت ضرورة ولازمة ، والحرب تتخذ للفتح او للمحافظة او لموافقـة هجوم او لدفع خطره المحتمل ، فـكانوا يقولون انه خير لك ان توقد النار في بيت جارك من ان يوقدها في بيتك .

وكان يقول دكارت ان حدود العدل بين الملوك هي غير حدوده بين سائر الناس ، ومن الواجب التمييز بين الاصدقاء والحلفاء وبين الاعـداء ، ومن حق الملوك ان يستبيحوا كل شيء في سبيل الحصول على فائدة لهم او لرعاياهم ، ويجوز ان يبادروا العدو بالقتال اذا كان في القتال خير ، ويجب التخلص منه متى اصبح مثيراً للشكوك والمخاوف ، واذا كانت تشرع الحرب لدفع خطر محتمل فينبغي الاسراع بمفاجأة العدو وافساد خططه .

٤ — العبث بالملوك وبالشعوب

خاطب بوسوه الملوك فقال : انكم آلهة ولكن من تراب وطين ، تموتون كالرجال وتسقطون كالعظماء . نعم انهم يسقطون ولا يهم سقوطهم الاحيـاء الا قليلا ، وقد كان مستغربا ما ابقاه في اوربة مصرع لويس السادس عشر وماري

انطوانت من الاثر القليل والاستنكار اليسير والحداد الضئيل والنسيان السريع ؛ وسهولة الاتفاق مع الثورة على الممالك والبلدان ، فكان من القتلة سفراء عند ملوك عديدين ، وجلست بنت اخ ماري انطوانت على اريكة عمتها القتيلة ، واحاط بعرشها فريق من الذين حكموا عليها بالاعدام ، ولم يكن هذا التساهل والتنازل في اخلاق الملوك حادثاً جديدا .

ولو استقرئت الحوادث السابقة لكان التعجب قليلا ، فاول حادثة من هذا القبيل في اوربة الحديثة حادثة ماري ستوارت التي حاسبتها ملكة اخرى عن اعمالها كملكة ، ولما انكرت اختصاص اللجنة المكلفة بمحاكمتها اجابها رئيس المحكمة: اخلعي عنك رداء المقام الملكي الذي لا ينفعك الان ، واظهري امام العدل لتثبتي انك بريئة ، ولم تكتف اليزابت بحكم اللجنة بل حملت البرلمان الانكليزي على ابرام ذلك الحكم . وبعد اثنتين وستين سنة اصدر هذا البرلمان نفس الحكم على حفيد ماري ستوارت الذي قادته صدف الحياة الى تسنم عرش اليزابت ، والامر الذي كان موضع النزاع بين ملكتين اصبح موضع النزاع بين الشعب الانكليزي الذي يدعي السيادة والسلطان وبين ملك الانكليز الذي يطالب بعصمة العرش وعدم مسؤوليته ، « قال شارل الاول : اريد ان اعلم بحكم اي سلطة انا في هذا المكان ؟... ان انكلترة هي منذ الف سنة مملكة متوارثة ! فاجابه رئيس المحكمة: نحن لا نجتمع هنا للاجابة على اسئلتك ، فادفع التهمة عنك بالاعتراف بالجريمة او بالبراءة منها ! » وكانت دعوى لويس السادس عشر كلها في هاتين الجملتين .

فماذا فعل الملوك والامراء بعد هذه الاعتداءات على الجلالة الملكية التي تطأطيء لها المفارق ، ؟ لقد اراد هنري الثالث ان يغضب لماري ستوارت التي كانت ملكة فرنسية وانبأ لندن بانه يرى هذا الحكم مضرا بمصالح جميع الملوك ، فلم تعبأ اليزابت بما كتبه ولم يكن منه الا ان لزم الصمت بعد ذلك ، اما ملك اسبانية الذي كان عدو انكلترة فقد حاول الانتقام للملكة اسكتلندة فحاربته اليزابت وقهرته ، وتحالفت بعد سنين مع هنري الرابع . وكانت هذه الملكة مخيفة

الجانب يخشاها جميع الملوك ، وقد خلفت الملك لابنة قتيلها الذي اصبح لها العبد الخاضع المطيع ، وقد يقال في هذه الحادثة انها نزاع بين الملوك ، ولكن الامر كان كذلك عندما ثار الشعب على شارل الاول ، فقد اهتزت اوربة لمقتل ملك انكلترة ولكن لم يألم احد الا بقدر ما توحي اليه مصلحته ، ففرنسة واسبانية مثلا احتجتا احتجاجا لينا على الحكم وعلى الاعدام ،ولكنهما ما ابثتا ان اخذتا بالتنافس والتسابق في سبيل الاعتراف بالجمهورية ، ولم يكن لجميع البراهين قيمة امام الامر الواقع ، وغلبت في هذا الشأن الحقيقة المستندة الى مصلحة الدولة جميع الاسباب المستمدة من الشرف والدين والحق .

وقد كتب مازاران الى ام لويس الرابع عشر الوصية على الملك، انه اذا اردنا ان نجعل خطتنا قائمة على قواعد العدل والشرف،وجب علينا الا نعترف بالجمهورية الجديدة . لان الملك لا يستطيع ان يعمل شيئا يضير سمعته كهذا الاعتراف الذي يتنازل فيه عن حق الملك الشرعي قريبه الادنى وجاره وحليفه ، ولا شيء اشد ظلماً من الاعتراف بالمتغلبة الذين خضبوا ايديهم بدماء مليكهم ... ولكن لما كانت قواعد الشرف والعدل لا يجوز ان تسوق الى اي عمل من شأنه ان يناقض الحذر،فلا شك ان الاستمرار على رفض الاعتراف بالجمهورية وقتا آخر لا يفيد مطلقا في زيادة حق الملك او تأييده ، ولم يبق الا الدخول عاجلا بالمفاوضات مع انكلترة والاعتراف لها بالعنوان الذي تريده .

وليس ما جرى بعد ذلك لاسرة آل رومانوف وما عامل به الملوك قتلتهم وجمهوريتهم الا ما ينطبق على هذا القول وهذه التقاليد . اما ماقاله لابروبير بلغته الفصحى عن البرنس دورانج عندما خلع جاك الثاني فانه لا ينطبق على رجال السياسة : « ما هذا الزمان ! ما هذه الاخلاق ! ما هذا العصر العاثر الجد ! ان رجلا تحدثه نفسه بركوب البحر وانتزاع ميراث ابيه واخراجه هو وزوجه من بلاده ، يعمل بما حدثته نفسه ، وهو يخشى ان يغضب عليه الملوك لما فعله بواحد منهم ، ولكنهم جميعا مالوا اليه ، وكأنهم دعوه ليفعل ما فعل وينزع الملك من

ابيه كما ينزع العصر من ساكنه والبنيان من صاحبه ... حقا لقد ذهبت كرامات الملوك ومقاماتهم ، وقد تنازلوا هم انفسهم عنها . »

كذلك سار القرن الثامن عشر في هذه الطريق نحو الخطة المستهترة ، ولم تبق مصلحة الدولة على اختصارها وحكمها في العصر السابق ، ولا بد من المناقشة والبحث عن العلل والاسباب في جمل بليغة واساليب فصيحة ، فعند ما اعدم القيصر بطرس الاكبر ابنه بتهمة الجريمة على الدولة همّ بعض اصحاب الاخلاق بالاحتجاج ، ولكن فولتير جعلهم يعدلون عن اعمالهم ، وذكرهم بالتاريخ والسوابق وحقوق الرومان والتقاليد والاقاصيص والفجائع ، وقال : ان بطرس كان ملكا اكثر مما كان ابا ، وقد سفك دم ولده في سبيل مؤسس الدولة وواضع الشريعة ، ولو ان الكسي ملك لكان دمر كل شيء ، وعندما ينظر في هذه الكارثة فان القلوب اللينة تقشعر ، ولكن النفوس القاسية تحبذ » ، وهذه الصيغة المرائية تزيد في اظهار قسوة الفكر .

وتاريخ روسيا حافل بهذه الاحداث ، واذا كان امر ينبغي التعجب منه فليس بمصادفة هذه العادات البربرية عند امة لاتزال وحشية ، ولكن بعدم الاكتراث الذي كانت تقابل به اوربة القديمة هذه المشاهد . في سنة ١٧٦٢ تآمرت اميرة المانية على زوجها بطرس الثالث فخلع وحبس وقتل . وقد روى السفراء ذلك كأنه امر طبيعي بدون استنكار ولا الم ، بل ان فيهم من اغتبط به املا بما يجره من مغنم لسيده ، ولم يشذ الا المسيو براجه ، الذي لم يكن الا قائما باعمال السفارة الفرنسية ، فجاء في كتابه ببعض الآراء الاخلاقية والفلسفية وقضى عجبا مما شاهده وقال : حفيد بطرس الاكبر يخلع ويقتل ، وحفيد ايفان الخامس يجر السلاسل والاغلال في سجنه ، والاميرة دانهلت تتغلب على عرش اجدادها وتفتتح عهدها بقتل ملك . اما لويس الخامس عشر فقد كتب الى سفيره يثني على جرأة القيصرة وبراعتها ويوصيه بالاجلال الذي يجب ان يتصف به نحو الرؤوس

المتوجة ... ابتغاء ما يرام ادراكه من المصالح والمنافع ... اما الرؤوس التي انتزعت تيجانها فكأنها اصبحت غير جديرة بهذه الحرمة .

وما اكثر ما يقص علينا التاريخ من احاديث الثورات التي تنشأ عن البؤس والشقاء ، وعن الضغط والارهاق ، وعن قلق النفوس ودواعي الحرص ، وعن المؤامرات والفوضى التي تنمو بذاتها عندما تكون الحكومات نفسها سيئة ، او عندما ينحل نظام السلطة ، اما رجال السياسة فانهم يتتبعون هذه الاحداث التي تنقاد لها الشعوب بطبيعتها ، لان الانسان اذا اطلق العنان لاهوائه وشهواته يرجع وحشاً قاسياً مجهولا مضطربا كما خلقته الطبيعة ، وقد تلقي التبعة على القابضين على مقاليد الاحكام بسبب ضعفهم وتخاذلهم او شدتهم وعنفهم ، واهمالهم شؤون رعاياهم ، وقلة اكتراثهم بالانظمة والقوانين والشرائع التي تدفع الرجال الى المغامرات وركوب الاخطار .

اما الحكومات الاجنبية فانها ترى من الثورات حادثا خاصا تحكم فيه بحسب مصالحها ، وتستثمره بحسب منافعها ، وهي تستثير النفوس وتدعوها كما يوحي لها ما تتوهمه من خير تجتلبه او شر تدفعه ، وكما ينبغي لها ان تسعى له من تعزيز الدولة واضعافها . وقد عمت اوربة هذه الاساليب المقلدة واتسع المجال لهذه الوسائل السياسية المختارة والمفضلة ، وظل رجال الدول يترقبون الفرص ليوقع كل واحد بصاحبه ، وهم لا يقنعون بالفتن الثائرة والاحداث القائمة ، بل يسعون لاضرام نارها واثارة ما هو كامن منها ، ويدفعون للحروب الاهلية ويستثمرونها ، ويمهدون السبيل لها . وقد كان رشليو يقول ايوجد حذر وعدل يأذنان بانتظار الآخرين لكي ينهبوا ويسلبوا ويغنموا وان يصبر لما بعد ذلك . وكان مقرظو لويس الرابع عشر يقولون اذا كانت عادة الملوك والامراء ان يكون هذا دأبهم في ايذاء بعضهم بعضاً جهد طاقتهم ، فلماذا يلام احد منهم على امر يشترك فيه جميع الناس وينفذ في جميع الاقطار . وكان همّ الملوك في انكلترة وفرنسة والنمسة في القرن السابع عشر ان يعملوا على اثارة المشاكل بعضهم لبعض ، وايقاد نيران الفتن في بلاد كل فريق

منهم والتوسل لذلك بمختلف الوسائل ، فيتبادلوا الصلات مع الاحزاب المتنابذة ، ويضعوا ايديهم بايدي كل فريق على حدة .

وكان كرومول يقول : انه يريد ان يجعل الاسم الانكليزي كبيراً كالروماني ، ولا يفتأ يردد انه لو كان سنه اقل بعشر سنين لجعل كل ملك في اوربة يهتز فرقا منه ، وكان ينوي ان يجمع بقيادته عصبة من البروتستان ، وان يجتاح فرنسا على رأس جيش . اما مازاران الذي هدد وانذر فكان عليه ان يعمل على تأليف عصبة مقاومة ؛ ولكنه فضل ان تكون الجمهورية الانكليزية صديقة على ان تكون عدوة ، فاصبح الملك المتشدد في نصرانيته حليفاً للجمهورية البروتستانية التي قامت على اثر مقتل ملك . وكان لويس الرابع عشر يبالغ في تقدير مزايا كرومول والاشادة بمناقبه والاعجاب بسيرته ، ويقول انه ورث من عبقرية امته ما يجعله يقوم باعمال جليلة تتجاوز مدى بلاده .

وفي القرن الثامن عشر كانت تظهر انكلترا الدول الاوربية بلاداً شديدة الاضطراب كالبحر الذي يحيط بها ، وكان يتمنى رجال السياسة دوام القلاقل فيها عصراً كاملا ، وكان يكتب لويس الخامس عشر الى سفيره ان كل ما يدفع انكلترا في لجج الفتن ويردها الى الظلمات ليوافق مصالحه .

وكان يحرص مجاورو بولونية على حماية الحريات التي يتمتع بها سكانها ، والتي تقودها الى الفوضى ، وتعين على التدخل فيها وعلى اقتسامها ، ولم تكن الحريات التي يدافع عنها في هذه الارجاء الا وسيلة لجر المغانم ، وكذلك شأن الحريات التي تقاوم في غير هذه المناطق انما يراد منها الاستثمار والانتفاع وادراك الغاية نفسها ، حتى ان احد ملوك السويد الذي منح بلاده حريات واسعة ، كان يتساءل بدهشة ماذا تريد الدول الاجنبية منه اذا جعل شعبه ينال ما يطمح اليه من السعادة والرخاء ؟ واذا كان هذا سبب حرب فاي عدل بقي في العالم ؟ وماذا يستفاد من معاهدات الضمان مع الدول الاخرى اذا كانت لا تعرف من الحق الا ارادتها ،

وان يفوت خاطره أنه توطأ بمهاجمته مبادىء الحق والعدل وجميع حقوق الملوك وحقوق الشعوب .

ولم تكن الدول ليهمها الدفاع عن حقوق الملوك او حقوق الشعوب ، واذا فعلت ذلك فبحسب ما توحيه مصالحها ، فتقاتل الاحزاب الثائرة طوراً وتؤيدها طوراً ، وتنتصر الدمقراطية احياناً وتحاربها احياناً . وكان يقول دو فرجين وزيرالخارجية في فرنسا : انياقاوم العصاة في جنيفلانهم اعوان انكلترا واؤيد العصاة في الولايات المتحدة لانهم اصدقاؤنا منذ زمن بعيد ، واني اعامل هؤلاء وأولئك ليس بحسب نظامهم السياسي ، ولكن بحسب استعدادهم نحو فرنسا ، وهذا هو سر الدولة عندي وغايتهـا . ودو فرجين يعرب بذلك عما تنطوي عليه نفوس جميع السياسيين ، وترمي اليه اساليبهم التي تعبث بالملوك والشعوب في سبيل مآربها .

٥ — السياسـة والحرب

السياسة الدولية عنوان الاخلاق عند قادة الدول ودليل ما تنطوي عليـــه نفوسهم وتتميز به مواهبهم ، وكان الساسة في العهود السالفة يؤلفون في اوربة جماعة زاهية براقة ، متناهية في دقة الاحساس ومظاهر اللطف والايناس ، غير ان المهم في هـــذا الشأن ليس المظهر ولا براعة الشكل ولا اسلوب الخطاب ، فالاساس هو الذي يجب ان يعرف ، والآراء والاعمال هي التي ينبغي ان تعتبر . وكانت المفاوضات تظهر كأنها وسيلة من وسـائل الدسائس العظيمة والخطط البعيدة ، وهي سر هذا الفن الدقيق . واذا كانت القاعدة العليا للدولةهيالمصلحة فانها مع ذلك لا تنقاد لها وحدها ، فهنالك ما يفسدها وما يضيعها ، فمصلحةالدولة تسود ولكن الاهواء تحكم ،وعن طريقها تسير الشعوب وتستخدم الرجال ، وقلما كانت تعيش السياسة بغير ذلك ، انها تنحط غالباً الى منزلة الضعة والهوان .

ولم تكن اوربة القديمة لتتحرج في امر اذا ارادت بلوغ غايتهـــا ، فلم تتردد الامبرطورة ماري ترز ان تتصل بمدام دو بومبادور اذ كاشف حظية الملك بما في نفسها وبما تريده من التحالف مع فرنسة ، وقد بذلت اكثر من ذلك عنـد ما ارادت ان تحرز موافقتها على تجزئة بولونية برغم التحالف ، فقد كان العمل شديد الخطر، وكان ينبغي الخضوع والتذلل للخلاص من عواقبه ، وكان ولي العهـــد في فرنسة قد تزوج ابنتها البالغة من العمر سبعة عشر عاماً فوصتها بمجاسنة مـدام دو باري ، وكتبت الى سفيرها انها لا تريد حطة ولا هواناً ولا تريد ايضاً مودة ولا صفاء ولكن عناية توضع في موضعها .. لان الاتفاق بين العرشين يعود علينا بالخير الجزيل ، وقد يتوقف التحالف على ذلك ، واني لانتظر من اهتمامك وجدك ومن اهتمام بنتي وجدها ، ان تبذل انت غاية جهدك وان تبذل ابنتي غاية لطفها ، وان لا تتقيد بالاوهام التي قد تحملها على العمل بضد مارسمته لها ، ولا شيء يوازن النفع الذي يمكن ان تأتي به .

فاذا كانت الملكة الشريفة التقية المتمسكة باهداب الفضيلة تنحدر الى هـذه المنزلة من التسليم ، فكيف يصنع الذين لا يعتقدون بشيء والذين يجـدون مجالا واسعا لما يريدون القيام به من الاعمال ، واذا كانت في فرساي حظايا فقـد كان في بطرسبورغ حظاة ، وكلا الفريقين ينال بنفس الوسائل الدنيئة ، وفي كل مكان تنال نفس الغاية، وهي تبلغ في بعض الاحيان مدى بعيدا يتجاوز حـــد العطف والاحسان ، حتى انه تلقى مرة احد من ينتظر وفاة بعض الملوك رسالة جاء فيها : قد تكون هذه الحادثة ليست بعيدة ، ويكفي ان تكون هناك حظية رفيقة مؤثرة حتى تصبح هذه الحادثة قريبة . وحظية الملك وحظية ولي العهد وحظي الملكة من انجع وسائل السياسة القائمة على الافساد ــ اما المال فانه افضل طرائق الاقناع وطريقة بذل المال تحتاج الى براعة عظيمة ، فيتظاهر بالاستعداد للاخذ ، ويظهر انه يتأثر بمؤثرات ثروته ، فيكشف له القناع عن بعض الامور المكنونة وعن المقاصد الخفية ، وكانوا في القرن الثامن عشر يصرحون ولا يترددون ، وعند ما

ينالون بغيتهم من القبول ولا يكتمون مايخامرهم من فرح وسرور .

والى جانب هذه الوسائل التي كانت تلجأ اليها السياسة الرسمية في تنفيذ مقاصدها كانت تقوم السياسة السرية والمفاوضات التي لا نهاية لها، وتتم ما لم تستطع الاولى القيام به ، وكان يوجد في جميع الاحيان عمال خفيون يفاوضون في الامور الدقيقة والمسائل الحرجة ، وكان الملوك والامراء في ايام سلطتهم المطلقة يطيب لهم الاشتغال بالمؤامرات التي كان يؤديهم فيها سوء الظن الى الشك بسائر الناس حتى بالذين يعتمدون عليهم ويركنون اليهم بثقتهم ، وكان الذين يقاربونهم في ظلمات العمل يتبادلون معهم كلمات الاسرار حتى يطمئنوا اليهم ، فملأ رجال السياسة السريون كل مكان في اوربة ورغب الجميع في هذا العمل واشتد حرصهم عليه ، حتى ان لويس الخامس عشر بلغ ولوعه في هذه الاساليب حد الجنون ، واصحاب الاموال الذين كان لهم وكلاء في كل مكان ، ورجال الادب الذين كانت تفتح لهم جميع الابواب كانوا يفاخرون اذا قاموا بمثل هذا العمل الذي يرفع من شأنهم ويجعلهم يدخلون في مفاوضات لا تدل على براعتهم فيها ، وكان رجال السياسة السرية يدخلون من كل باب ويتدخلون في كل امر ويختلط بهم المتآمرون والمحتالون والجواسيس والرقباء فيبيعون كل ما يشترون ويشترون كل ما يبيعون ويبرمون ما ينقضون وينقضون ما يبرمون ، وقد كان من عمال هذه السياسة رجال سار ذكرهم مثل ميرابو وتليران .

فالمفاجأة والافساد وغير ذلك من الوسائل التي تتخذ لتحصيل المعلومات كانت تكلف كثيراً ، على انه كان منها ما هو قليل النفقة كسرقة الرسائل وفك الرموز والغرفة السوداء ، وكان رجال باريس بارعين في فتح المكاتيب وحل الالغاز واكتشاف الاسرار ، وكان يلجأ احياناً الى رسل امناء يحملون الكتب والرسائل،ولكنهم كانوا يقعون فيما ينصب لهم من كمين او فخ فتسلب اوراقهم وتخفي في بعض الاحيان آثارهم .

كذلك كان السلم يصان بمثل هذه الوسائل المدخولة ، اما الحرب فقد

كانت وحشية قاسية ولكنها على كل ما فيها من قسوة كانت أفضل من السلم ، فهي صريحة غير خفية تتفق مع اغراضها التي هي حكم القوة وتحتفظ ببعض خلائق النبل التي ورثتها قديما عن اخلاق الفرسان وتقاليدهم ، واذا كان الحق الذي تؤيده هو حق القوة بما فيه من عنف وغلظة فان الوسائل التي تتخذها كانت تسمو بها وترفع من شأنها ، فكانت تريد من الرجل ان يتصف باقصى درجات الفضيلة وفي مقدمتها الشرف وبذلك كان ينشأ بين حملة السيف نوع من اخوة السلاح، فيتبادلون الاحترام والمودة وان كانوا يتقاتلون اشد قتال ، وكانت العسكرية اشرف الصناعات واعلاها منزلة ،وكانت الحروب هائلة ولكنها لم تكن حروب شعوب بل حروب جيوش ، وكان الضباط والقادة ينتقلون احياناً من صف الى صف، فيقاتلون بنفس الجرأة والشجاعة والاخلاص ، وكانت تنشأ بين رجال الحرب علاقات قبل المعركة وبعدها تعدل من نتائج القتال وتحدد من عواقبه . والحرب تنزع الطلاء عن المرء وتجرده من الحلية وتعيده الى طبيعته وصفته، وتكشف القناع عن جميع عوراته وتطلق العنان لجميع رذائله واهوائه ، ولاجل ان يتغلب المرء على نفسه يجب عليه ان يكون ذا ثقافة بعيدة الاثر عميقة الغور، وان يبذل عناءاً كبيراً يستمده من حضارة قديمة .

وكانت مظاهر رجال القرن الثامن عشر خلابة ولكن حقائقهم وحشية ، وكثير منهم يبحثون عن الانسانية ويمجدونها ولكن قليل منهم الذين يتصفون بصفات الانسانية الحقيقية ، ولم تكن الرحمة الا مسألة من مسائل العادة المألوفة، اما الاخلاق فقد بقيت في حقيقة امرها على حالها من العنف والقسوة ، وهذا ما يبين لنا الاسباب التي كانت تقود الى البطولة والشدة في الحروب المتتابعة ، وما كان تلجأ اليه من وسائل الارهاب والتخريب واخذ الرهائن واحراق المدن وتدمير العامر ، وكانت احاديثهم رياءاً وباطلا من رياء الانسان وباطله ، ولكنهم في الحقيقة كانوا يتمسكون باقبح اسباب التعصب وينتهكون الحرمات ويجلون السكان ، وكان الامراء الذين لا يقدمون على تنفيذ هذه الخطط بالقسوة والعنف ينعتون بالتردد والخوف والخضوع لسلطان الاوهام .

الفصل الرابع

مشاهير الملوك السياسيين

١ — الملوك والسياسة

كانت السياسة من خصائص الملوك وخصائص حواشيهم ، بل كانت شؤونهم الخاصة التي يبذ بها المتخلفون منهم ، فضلا عن المتقدمين ، غيرهم ، لانها كانت شغلهم الشاغل ، ينشأون على احاديثها ويربون في مناهجها ويتقلبون في اساليبها ، يعينهم على ذلك نمط الحياة وتعلم التاريخ وتلقي الاخبار ، وقد قص علينا تاريخ السياسة الحافل انباء ملوك عديدين ، مشهورة اسماؤهم ، مذكورة اعمالهم ، منذ الايام العريقة في القدم الى يومنا هذا ، الذي قل فيه تأثير الملوك في سياسة بلادهم وتدبير شؤونها الخارجية ، فكان فليب المكدوني في القرن الرابع قبل المسيح يجمع بين الرأي والشجاعة ويفوق ابنه الاسكندر في الدهاء والخديعة ، وهو يعد في التاريخ القديم من ابعد رجال السياسة غوراً واقلهم نزاهة ، ولا بأس من ان يذكر معه دموستن الذي كان يعيش في ظلاله عزيزاً مكرماً وهو دائب على انذار شعب اثينة بما ينوي فليب ان يداهمهم به ، فكان يدعوهم الى مقاومته ويطلعهم على انباء المحالفات ويدبر لهم المفاوضات السياسية طوال عشرين سنة .

وفي العهود القريبة كان عدد كبير من الامراء والملوك الدهاة قد ملأ ديوان السياسة بالمفاخر والمآثر ، وقد اخذ هؤلاء الرجال الافذاذ قسطاً وافراً من ادارة شؤون بلادهم وابقوا في تاريخها ذكراً خالداً واثراً باقياً .

فمنهم لويس الحادى عشر الذي طار ذكر براعته السياسية ، وبقيت شهرته الى هذه الايام ، وكان غريب المنظر،خفياًعن الاعين،مجهولا حتى من اعظم المعجبين بسياسته ، وقد جاء في ايام عصيبة في تاريخ فرنسة ، فالمملكة كانت متضائلة والاشراف الفرنسيون الابطال في ساحات الوغى، كانوا ينتفضون في الغالب على الدولة ، وكانت مهمة لويس الحادى عشر في اول عهده خطرة اكثر مما هي شاقة، وبرغم ذلك فقد تغلب على المصاعب التي لاتغلب ، واصبح في زمن قليل موضع الرغبة في التعاقد والتحالف ، وقد اوجد من ضعفه قوة،وذلك بالسعي وراء الحقائق، واستفادته من جميع الاغلاط ، وكان في نضاله لخصومه مثلا للمرونة والبراعة وتذليل العقبات ،برغم الخيانات التي كانت حوله.

وتمت بفضله الخطوة الاولى نحو الوحدة والطمأنينة في فرنسا ،ولم يكن يحب سفك دماء الرعية في سبيل تحقيق غاياته،ويعتمد على الارهاب اكثر مما يعتمد على الايقاع بالخصوم ، ولم يكن يبعث الى القتل الا العصاة والخونة،وعاش بغير اسراف، وكانت تهمه الغاية التي يسعى لها قبل العزة والكرامة ، وقد عرف في المواقف الصعبة كيف يتخلص وكيف يذعن ، وكان يقتصر في اطاعه على ادراك ماهو فرنسي او ماتملكه فرنسة .

وكانت ماري ترز تجمع اوصافا من الفضائل والمزايا الشريفة التي تستلزمها واجبات الحكم ،في عهد لم يكن يفكر فيه الملوك الا بنيل حقوق واسعة وسلطان لاحد له،وقد اظهرت في اثناء قيامها باعباء الملك، كل ماتنطوي عليه من صفات شخصية كبيرة،وفكرة سياسية صحيحة ومتابعة للامور حسنة وعزيمة شديدة واخلاص في العمل وجد في الاخلاق ، حتى كأنها لم تكن من ذلك العهد ، وكانت تألم اكثر من كل ملك في اوربة من ضعف الحقوق العامة وفساد الاخلاق السياسية وتحزن لما تراه من التعارض بين المصالح والمبادىء ، ولاتبرح في نضال بينها وبين نفسها ، وقد وجد في مراسلاتها السرية صدق نادر في ذكر الخلاف بينها وبين ابنها، واضطراب قلبها وضميرها،بسبب هذا السقوط الذي صار اليه عهد ابتدأ بالدفاع عن

الحق فانتهى باشد ظلم ،ولم يكن مثلها من يتمسك بالفضيلة ويبغض الرذيلة ،ولكن في آخر الامر كانت تتغلب عليها تقاليد السياسة وتتمكن منها المخاوف من اضاعة فرصة التوسع ، فتذنب ثم تذنب،ولكن بعد تردد واشفاق وألم من الخطيئة وندم على اثرها وتمادي في الغي وتنحدر من استسلام الى استسلام ، وتتقبل الذنب شيئاً فشيئاً وتقوم بمساع مبهمة متناقضة ، وتقع بالاعمال الجائرة التي يستتر فيها خصب المنافع فساد العمل ، وتصل في منطقها الغريب الى ان العفو يكون على قدر الذنب في السياسة كما هو في معصية الله ،وتستدل على ذلك باية من التوراة ، وكانت تضرب احياناً على صدرها اسفا وحسرة وتنكر ماينكره الناس ، ولكن الرأي العام لم يكن مخدوعا،وكان يتهم قصر فينة بالرياء والنفاق والتصنع والحرص والنهم .

ولم تكن النمسة التي عرفناها الاصنع هذه الامبراطورة قامت به وسط المصاعب والشدائد ، ولم يحسن تمثيل الاخلاق السياسية في القرن الثامن عشر ولاتمثيل روح بيئتها مثل هذه الملكة الكبرى ، وقد ورثت هذه الاخلاق عن آبائها الذين لم تكن عندهم فضائلها ومزاياها وما يكون عبقريتها الخاصة ؛ اما يوسف الثاني الذي ملك بعدها فقد كان يضيف الى هذه الاوصاف شيئا من استهتار فردريك ولكن بنفاق اقل في الصيغة وعنف اكثر في الطريقة ، وقد كان فردريك رئيسا ومؤسسا ، اما هو فقد ولد مقلدا وتابعا ، وكانت تغلب على فردريك صفات رجال الدولة ، والمكان الثاني عنده للفيلسوف الذي يستعرض الامور الواقعة والاسباب السياسية ويبحث عن مسوغاتها ، واما يوسف الثاني فيسبق عنده الادراك والفكر مقتضيات السياسة ؛ وكان واسع الحيلة ولكن بدون نفوذ بصر ، يحب احاديث المكرمات ويتهالك على المفاخر ، ولا يتمكن منه الا شيء واحد هو الحرص وجميع اعماله عادية ، ليس فيها بعد نظر ذلك الامير الذي اقتفى آثاره ، وجعله التاريخ منافسا له ومضارعا وهو كاره،وقد صنعت عبقرية فردريك السياسية من سداد الرأي وصيغت من حسن التقدير ، على حين كان يوسف الثاني اخرق مفرطا ، ناقصا في تربيته محتالا في اساليبه ، يخلط بين آراء متشابهة تلقاها على

عجل من فلاسفة فرنسة ورجال اقتصادها ، وبذلك قد كون له غاية مبهمة من الآمال السياسية،وشعورا متألما من السلطة التي في يده ليمارسها .

وقد استوقف في رقته البالغة لويس الثامن عشر قبل ان يتبوأ سدة الملك فكتب عنه الى ملك السويد قائلا : ان الامبراطور يوسف الثاني بارع بالمداهنة ، يتظاهر بالاخلاص مظاهرات لاحد لها ، ولكنه اذا امتحن عن كثب ظهر مايكنه من محاولة استخراج المخبآت ، وهو قادر على اخفاء عواطفه ، ولكنه قليل اللباقة سيء التصرف ، فاذا استعمل المرء اساليبه في الرياء استطاع ان يتعرف حقيقة امره ويقف على مكنون سره .

ولم يكن يوسف الثاني يخفي هذه الصفات التي ذكرت عنه ، ولاماشهر به من كثرة الكلام ، وقد اشار الى ذلك في كتاب ارسله بعد رحلة قام بها الى باريس حيث قدروا كثيراً بساطته التي كانت براغة مصطنعة ، اما لويس الثامن عشر الذي حكم ذلك الحكم الصائب عليه ،فقد كان ممتازاً بصحة نظره ووضوح ذكائه ، حنكته ايام النفي وافادته تجاريب تليران ، وكان سياسيا عاقلا سعيداً ، وجد فرنسة عند عودته مكتسحة مجتاحة مغلوبة ، يطمع الحلفاء في تمزيقها واستعبادها ، ولا يهمهم الا ان يجلس على العرش شقيق لويس السادس عشر ، فاستطاع الملك ووزيره ان يغيرا الامور ، ويعيدا الى تلك الامة العظيمة شأنها وخطرها وسلطانها ، وكان يقول عن شاتوبريان انه يعيد النظر ما لم يقف في طريق نفسه ، ومعنى ذلك مالم تعترضه اطماعه وشهواته فتحجب بصره عن رؤية الحقائق .

وقد ادعى تيير في تاريخ الامبراطورية ان نابليون بونابرت لم يكن ذا خبرة في السياسة ، وان الافراط في الامور كان الصفة المميزة له ، وقد وصفه بقوله : لو كانت السياسة نفساً لما فاته شيء منها ، ولكنها اخلاق اكثر منها ذكاءً ، ولم يكن نابليون عمدة في ذلك ، فعندما كان فتى لم يتغلب على العالم كان يحسب حساب المصاعب ويحتال للامور ويلجأ للصبر ويحسن المداخل والمخارج ، ومن ذلك انه

لما نزل في ايطاليا بجيش ضئيل رأى من واجبه ان يتقرب من السكان ، فأخذ يحمي الرهبان والقسيسين ويجامل الرؤساء والامراء ، ولما انتقل الى الشرق وكان يخشى كره المسلمين ، جد في استمالة شيوخ العرب وجعلهم يرجون اسلامه ، ثم انه عندما كان يقوم بعمل مختلف عن هذا العمل ، وهو الاتفاق مع البابا اظهر غاية البراعة والحزم في التغلب على اوهام رومة واوهام الفلاسفة ايضاً ، فبذل كل ما يحتاج له من قوة وصبر ودقة وفن ، واقام البرهان على انه لم يكن ينقصه شيء ليكون عبقريا في السياسة ، ولكنه لم يكن حينئذ السيد المطاع ، فكان يضغط على نفسه ويلزمها مالا ترضاه طوعاً ، ولكنه منذ اصبح عظيم الخطر كبير الشأن اطلق لنفسه هواها ولم يعد يأخذها بشيء ، فذهبت الاخلاق وبقي الذكاء ، ومع ذلك فاذا اردنا ان نلتمس العذر له وجب علينا ان نزيد على ماتقدم ان السياسة في ايام الثورات كانت في غير اوانها ، فمعنى السياسة تطور الماضي ومراعاته ، ومعنى الثورة قطع العلاقات به فجأة .

والسياسة الحقيقية هي عمل الاجيال وتعاقبها على خطة والسير لتحقيقها بحسن اتباع وصبر وتواضع حين الحاجة ، وذلك بالتقدم خطوة واحدة او خطوتين على الاكثر في جيل كامل ، ولكن لايجوز ابداً عقد الآمال على ادراك الغاية في وثبة واحدة ، فقد اسس هنري الرابع خطة اضعاف البيت المالك في اسبانية ، والبيت المالك في النمسة الذين الف بينهما الدم والجنس ، وقد ورث هذه الخطة الكبرى رشيلو فورثها مزاران من بعده ، وحملها الى لويس الرابع عشر ، فتمسك بها الى ان جلس على عرش اسبانية حفيده ، برغم ما كان يتعرض له من الاخطار ، وفرق الى الابد بين النمسة واسبانيا ، وكذلك كان الامر في بروسية فان المنتخب الكبير بدأ باجلال شأن امته العسكري ، وسار على اثره فردريك الثالث الذي استولى على التاج ، وتلاه فردريك غليوم واخذ باعداد الجيش وجمع المال ، ثم جاء فردريك الكبير فاضاف الى الجرأة بعد النظر ، واسس بعد حروب شديدة عظيمة بروسية وجعلها من اقوى الدول الاوربية .

فلا عجب اذا رأينا نابليون المتعجل الثائر غير خبير بالسياسة ، ولو لم يكن كذلك لما ترك فرصاً كثيرة تمر من غير ان يثبت امره ، وفضل ان يغامر تلك المغامرات العظيمة التي انتهت بالقضاء عليه . وعلى كل حال فان نابليون كان وليد الثورة التي قادت اوربة الى قتال فرنسة مــدة خمس وعشرين سنة ، ولم يكن في طاقته ان يصلح بينها ، اما المفاجئات او قلة الاعتدال التي اشار اليها تيير ، فقد كانت من جملة مظاهر السياسة الشخصية التي عرف بها نابليون والتي سادت في عهد كان حافلا بالاضطراب والتفكك ، لانه عهد سيف لا عهد سياسة .

والملكة فكتوريا كان عهدها الطويل مزدانا بالمفاخر في تاريخ انكلترة ، وقد برهنت على حنكة ودهاء ، فآزرها البرنس البرت في بادىء الامر ، وكان عمها ليوبولد ملك البلجيك يراسلها في الشؤون الدولية الخطيرة ، وقد دل ما كتبته على آراء سديدة وسياسة حكيمة ، واذا كانت الديمقراطية الانكليزية تقضي بان تكون السياسة بيد الوزراء ، فتأثير الجالس على العرش في الازمات لم يكن قليلا ، وقد اشتدت الازمة بين انكلترة والولايات المتحدة في اثناء حرب الانفصال ، وكان بالمرستن يعد مذكرة شديدة اللهجة يتهدد فيهــا ويتوعد ، فحال اعتراض الملكة او تدخل البرنس البرت دون تفاقم الازمة ، ودل ذلك على بعد نظر الامير الذي كان كما قالت الملكة فكتوريا اهلا ليكون ملكا عظيما ، اما ابنها ادوارد السابع فقد بالغ الناس ولا سيما اثناء الحرب العالمية الاولى في شأنه مبالغات خرجت عن الحقيقة ، على ان رحلاته واسفاره وخطبه لم تكن دائماً حميدة النتائج برغم نجاحه في عقد الاتفاق الودي مع فرنسة وتقاربه من روسية ، فقد غرس بمقابل ذلك الحقد بين بلاده وبين المــانيا الذي سبب حربين عظيمتين . ماكان يجــوز للسياسة ان تعجز عن دفعهما وتقي العالم شرورهما .

ولعل البرت ملك البلجيك وجورج الخامس ملك انكلترا افضل مثــال لحسن سياسة الملوك ، فهما بضد ادوارد السابع الذي كان يحب ان يكثر التحدث عنه ، يمتازان بالتواضع والشعور بالواجب ، وكان جورج الخامس يفضل ان ينسب كل

شيء في اعمال الدولة الى رجاله المسؤولين ، ويقول انه يعرف مصاعب الملك الدستوري ، ولذلك فهو يحمد الله الذي لم يجعله ملكا مستبداً ، وكان بوقاره وتواضعه وصحة رأيه يدفع وصايا المداهنة التي تأتيه من رجال الحاشية ، ويذلل الصعاب بحكمته بين الوزارة وبين المعارضة وبين اعضاء الحكومة نفسها ، وكثيراً ما كان يقول لبعض وزرائه عندما كان يعلم بالمظاهرات العدائية للانكليز في ارلندة نحن ندفع غرامة ثقيلة لسياسة اليد الحديدية .

وقد ادرك الملكان هذه الحقيقة التي قلما يدركها كثير من رجال الدولة وهي ان الرؤساء ولاسيما الملوك منهم يجب ان لايتمسكوا باساليب الظهور ، وان لا يحرصوا على الشهرة، وقد يعقب الخطط التي تبهر العيون اذى يتحمله الشعب ، واي رجل كملك انكلترا لايكون منقاداً لسكرة الاقتدار وعظمة السلطان وهو الذي يجمع اسمه بين دول وشعوب تؤلف اعظم امبرطورية ، اما ملك البلجيك فقد استطاع ان يؤلف بين عنصرين مختلفين في الاصول واللغة ، وهو يحكم دولة وامبرطورية استعمارية وكان له في انقاذ بلاده اعظم الاثر ، ومع ذلك فلم يعرف الغرور سبيلا الى قلبه .

ولاجدال في أن السياسة هي صناعة الامور الممكنة ، وان البراعة والدهاء والنجاح السريع اذا اجتمعت اوصافها في رجل فانها لاتكفي لتجعل منه رجل دولة اذا ادخل في عمله كثيرا من العنف ولم يخلق تقاليد سياسية ، لان التقاليد تحول دون الصدف ، وقد كان البرت ملك البلجيك متحليا بمناقب عظيمة وكثيرا ماضاق صدره بنعت الصحف اياه بالملك البطل ، الملك الفارس ، الملك الذي لايلحقه اللوم ولا يعرف قلبه الخوف ، وفي الحق ان كل هذه الصفات كانت فيه ، ولكنها قليلة في جنب ما كان يخفيه تحت رداء التواضع والانفة من رأي وكرم، وكان كثير الشك بالرجال قليل الاهتمام بحديث الناس عنه واطرائهم اياه ، ولا يهمه الا الواجب ، والواجب وحده هو الذي يرسم له خطة عمله ، وقد امتاز بصفاته على سواه من رجال الدولة ، وقلما وجد فيهم رجل مثله من رجال

الحقائق والامور الواقعة ، بدون ادعاء منه ولاغفلة عن اسباب المثل العليا التي تؤلف عناصر الحياة الجوهرية، وكان دقيق التهكم عارفاً باساليب الرجال في الخضوع والانحناء لنيل اغراضهم ، حتى انه كان يذكر لجلسائه المثل الالماني : يجب ان يكون الملك مستعداً ليحقق لنا ماتريده .

ولم يكن يعتقد بالاحتمالات السريعة الانفـاق مع المانيا ، ولكن ذلك كان يجعله يعتقد بوجوب الحرص على ان تكون بلجيكا دائماً في جانب الحق والعدل ، وهذا ما حمله على ان يكون في قرارة نفسه كارهاً لسياسة بوانكاره واساليبه التي كانت قد اولت، بحق او بغير حق، كأنها مظاهرات عقيمة لضغينة واعتداء ،وكان حريصاً على ان تكون جيوش بلجيكا التي شاركت في احتلال الرين بعيدة كل البعد عن مواقف الثائرين وشهوات الناقمين ، ولذلك فانه استقبل بارتياح فجر السياسة الجديدة التي شهدها الناس في لوكارنو ، والتي لايدل فشلها على انها كانت عبثاً وضياعا لانها لم ترزق حظها من التنفيذ .

٢ — لويس الرابع عشر

خص تاريخ السياسة عهد لويس الرابع عشر بمقام كبير ، وافرد له فولتير مؤلفاً جليلا سماه عصر لويس الرابع عشر ، فذكر ان كل شيء كان هادئاً مطمئناً فيه، وان الملك استعان بجميع الاساليب السياسية في تدبير مملكته في الداخل وفي الخارج ، فبلغت هذه الاساليب ابعد الغايات واعلاها شأناً ، ونعمت البلاد الفرنسية بحظ وافر من الرخاء والنماء حتى اصبحت موضع اعجاب سائر الدول .

وقد وازن فولتير بين لويس الرابع عشر وبين غليوم دورانج ملك انكلترا الذي كان من اكابر السياسيين في القرن السابع عشر فقال : كان البرنس دورانج اوسع اطماعا من لويس الرابع عشر ، حتى ان اطماعه لتكاد تظن بانهـا خيالية ، ولكنه برهن على انه بها جدير بجرأته وشجاعته وكياسته ، وكان يريد ان يضع

من مكانة فرنسة وان يسلب العرش ملك انكلترا ، والتباين عظيم بينه وبين لويس الرابع عشر ، فهو عبوس ، معتزل ، عنيف ، شديد ، صامت ، قليـــل الاهتمام بالفنون ، كثير الميل الى التفكير ، متهاد في اذيال العجب ، جنـدي ، منقبض ، ثقيل ، بطيء ، اما لويس الرابع عشر فكان نشيطاً ، باسماً ، محباً، فكهاً ، طروباً، مغالياً بالآداب ، حريصاً على المكارم ، قد جمع المحاسن العسكرية كلها في عصره واضاف اليهـا محاسن السياسة العليا ، وان لم يكن آخر عهده مشرقا ضاحكا كما كان اوله .

وكان يزعم لويس الرابع عشر انه لايتمم عمل رشليو بل يتجـاوزه ، فكانت حروبه الاولى حروب حدود ، وكان يظن ان جميع الحقوق متساوية في الاقناع ، يحتج بها كلها على حسب ما تقتضيه الحاجة ، ولم يكن يعتد بالحق في مطالبه الا كجزء من حق الدولة ، فاللورين مثلا كما قال في مذكراته سنة ١٦٦٢ كانت ممر جنودنا الى المانيا عن طريق الالزاس ، وهي باب يدخل منه الاجانب الى بلادنا ، ومركز تسلط لمن يريد ان يتدخل في كل اضطراب يحدث في المملكة ، وهي في آخر الامر ميراثنا القديم الذي انتقل الينا من آبائنا ، فينبغي اذن ان تعاد الى الدولة التي فصلت عنها منذ عهد ، ومن هذا القبيل ماقاله عن البلاد المنخفضة، التي استولى عليها في سنة ١٦٦٨ «لقد كانت في كل حين تابعة لملوك فرنسا » وكذلك قوله عن فرانش كونته سنة ١٦٧٨ «هذه ولاية عظيمة غنية مهمة ، فبحق اللغة التي تتكلمها وبمالنا من الحقوق القديمة فيها، افتتح طريقا منهـا الى المانيا واسده في وجـــه اعدائي . اما في اللكسمبورغ فان الحجج اضعف ولكن حـق الدولة لاتعوزه الحجج ولا يفتقر اليها ، وهو بنفسه كاف ليعلن عن نفسه ، فكتب المتشرعـون حينئذ : هذا اعظم فتح قام به الملك وابعده اثراً، واكثره مفخرة له ، واعظمه منفعة لرعيتـه .

ومما يؤثر عن لويس الرابع عشر قوله في مذكراته : انه كان يتعهد اعماله في ارلندة لاثارة الكاثوليك ، كما انه يحرض بعض الانكليز لاعادة الثورة التي قام

بها كرومول . وهذا نموذج من سياسة الدول في تلك الايام وفي غيرها .

ولم يكن يكتفي بالوثائق والحجج بذكر منفعة الامة ، ولكن كان يعتمد على عواطفها ورغباتها ، وذلك ما لم يكن يكترث له في السياسة الداخلية،ولكن كان يتخذ سلاحا لمقاومة الاجانب ، ومن ذلك ما كتبه وصي الملك سنة ١٦٤٤ عندما طلب اليه ان يرد اللورين الى شارل الرابع قائلا : انه لايستطيع ذلك محافظة على سمعته وحرصا على ان لايدع للفرنسيين مجالا للعتب عليه والطعن به . واستمرت سياسة فرنسا متمسكة بهذه الخطة لاتفتأ تصرح للقصر الامبراطوري في فينة انه لايوجد رجل في فرنسة لايعتبر اللورين عضواً متحداً بالدولة ، مرتبطا بها ،بحيث لايتجزأ عنها ، ولايمكنه ان يوافق على انفصالها بدون ان يثير ازدراء كل فرنسي كريم .

وقد وجدت سياسة لويس الرابع عشر الخارجية عونا كبيراً في المجالس البرلمانية ، وكانت حججه واساليبه في المفاوضة كلها شرعية ، تنتزع احيانا من الاحكام المدنية ، وتطبقها على الاحكام السياسية ، ويجري بحسبها ارث العروش وانتقال الولايات ، ويستعان بالقضاة لتسوية الخلافات المتعلقة بالحدود واقرار سيادة الدولة في الاماكن المتنازع فيها ، وكان القضاء شعار المملكة ، والمتشرعون يجدون ويدأبون وينقبون والمجالس البرلمانية تصدر احكامها ،ولأولي العلاقة ان يختاروا بين التسليم والانتزاع ، ولم يكن مناص من الحروب لتأييد الحجج والمعاهدات ، وكل حجة ومعاهدة تكون مطية لحرب جديدة ، واذا تنازل فريق عن شيء عاد مطالبا بما تنازل عنه .

وكانت حرب الميراث الاسباني القطب الذي دارت عليه رحى سياسة لويس الرابع عشر ايام ملكه ، فقضى خمسين سنة يعمل لاجلها في الحرب والسلم ،وكانت في اولها سر عظمته وفي ختامها سر سقوطه ، وافسد باسرافه في سياسته الداخلية والخارجية واطماعه واستبداده وسيطرته عمل رشليو وخططه ، فانقلب عليه حلفاؤه وما لبثوا ان قاتلوه ، ولم يتألف الاحلاف في المانية الا لحربه ، وقد صرف

البروتستان عنه الغاء امر نانت ، وايأسهم منه،وجمع بينهم وبين الكاثوليك احراق البلاتينا ، فتصدع بنيان ملكه ، وانضوت اجزاء الامبرطورية تحت لواء الامبرطور لمقاتلته ، واستبسل الهولنديون كما استبسل الالمان ، وحرم لويس الرابع عشر بذلك من انصاره الذين جعلتهم الطبيعة بجانبه،وانكشفت مقاتله لاحلاف انكلترة والنمسة الذين تؤيدهم اوربة كلها ، وبعد ان افرط في اضطهاد الضعفاء اراد ان ينهج خطة جديدة لم يبق غيرها امامه ، وهي تقاسمهم مع الاقوياء ، وقد حاول بذلك اجتلاب النمسة وانكلترة ظانا انه احتفظ بكل شيء ،على حين انه خاطر بكل شيء .

وكانت هذه الحروب شبيهة بحروب الثورة الكبرى فكانت انكلترة روح المحالفات وكانت المانيا جندها ، وقد ردت فرنسة الى بلادها وانتقصت من اطرافها وهددت بتقطيع اوصالها ، وهذه العاقبة الاليمة هي من جهل الغرور وضلال الكبرياء . واذا كانت هنالك جملة صحيحة فهي التي قيلت عن لويس الرابع عشر : واحد للجميع . وهذا الاغراق المأخوذ من الاقدمين يخفي ماتكنه النفوس من الاضطراب والحرص . وقد قال بوسوه يخاطب ولي العهد : لم يبق في رومة جيش ولا رؤساء واصبحت في حالة اسف وغم وهي تخشى كل شيء ،وفي هذه الحالة اخرج مجلس الشيوخ قراره الجريء الذي اعلن انه يفضل فيه الموت على الخضوع للعدو المسلح ، وهو يعامله بشروط عادلة اذا اخلى البلاد ، وكان مجلس الشيوخ شديد التمسك بآرائه ، قد عقد نيته على ان يقف في وجه القوة ولا يمنحها شيئا ، وهو بذلك يتمسك بقاعدة السياسة التي سار عليها الرومان ، فانهم كانوا أيسر في التعامل وهم غالبون منهم وهم مغلوبون . كذلك كانت الفصاحة في ايام الثورة وعهد البطولة ... واذا وصلت الامور الى نهايتها آلت بها الى كل ماجاءت به الامبرطورية من حماقة وصارت اليه من اضمحلال .

والذي انقذ لويس الرابع عشر لم يكن جلده وحزم مستشاريه واخلاص شعبه ، ولا هذه المقاومة المجيدة التي عرفت في اواخر ايامه ، ولكن مفاجأة

موت الامبراطور يوسف الاول الذي هدد اوربة باعادة امبراطورية شارلكن ، وقد بلغ هذا التهديد آخر حده ؛ لان فرنسة كانت مغلوبة ولم يبق امام النمسة مايصدها في القارة الاوربية ، وحينئذ تيسر عقد السلم ، وكان لدي لويس الرابع عشر من العقل والرأي ماجعله يسرع به فبقي عرش فرنسة وعرش اسبانية منفصلين عن بعضهما ، ولكن فرنسة احتفظت بالحدود التي نالتها في ايام لويس الرابع عشر الاولى وسني مفاخره .

٣ — بطرس الاكبر

عندما بدأت روسيا تتطلع الى تحقيق غاياتها في تركيا وبولونيا والسويد ، كان بطرس الاكبر يمثل رغائب هذه الدولة واسانها الذي تنطق به ، وكان بدء همه في اخراج الترك من البلقان واحراز الميراث الروماني وما نشأ عنه من حضارة شرقية وغربية ، فكان اول ماقام به من الاعمال الخارجية مهاجمة الترك في شبه جزيرة القرم ومحاصرة آزوف حصاراً طويلا دله على المشاق والمصاعب التي تعترض سبيله ، فيما اذا اراد ان يأخذ طريق القسطنطينية من غير ان يستعين بالدول الاوربية واوضاعها وصنائعها ورجالها ، فتوجه سنة ١٦٩٧ — ١٦٩٨ برحلة الى هولندا وانكلترا تعادل نتائجها عصراً في تاريخ روسيا بل في تاريخ العالم ، وكان انشاء اسطول بحري هو الغاية الكبرى التي يرمي اليها لتعينه على تحقيق اغراضه في البحر الاسود .

وقد انشأ بطرس الاكبر روسيا الجديدة الاوربية بجرأة عظيمة ، واقام جسراً فيها بين الهمجية والحضارة، وكان من الصعب تحويل الشعب الروسي بسرعة عظيمة وان كان تحويل رؤسائه واشرافه أيسر منالا . وقد تمثل به الاستبداد السياسي فجمع في يديه كل سلطة وكل مادة ليضمن لشعبه اهنأ حياة ولدولته اعظم قوة ، وكان لديه مجلس اعلى من الموظفين الطائعين له ، وحكام المقاطعات

المؤتمرين بامره والعاملين على تنفيذ ارادته ، فألف جيشاً حديثاً وبنى اسطولا في البحر الاسود وبحر البلطيق ، ودافع عن خططه بقسوة وعنف لامثيل لهما ، ولم يتردد في استئصال كل عقبة تعترض سبيله من العناصر المدنية او الدينية ، فقتل ابنه ونفى معارضيه والغى البطريركية ، وتولى مقاليد السلطة الدينية كما كانت حال القياصرة القدماء في بزنطية والروم .

فروسيا التي انتقلت اليه من آبائه متأخرة متقهقرة منعزلة ، تتراءى في اسمال بالية من الحضارة ، وتحيي في نفسها حياتها الخاصة، فاصبحت في اقل من عشرين سنة دولة عصرية ذات اوضاع وانظمة ومنشئات عامة ، وتقدمت الدولة العثمانية بمراحل بعيدة ، واضحت طريق الشرق الوحيد للحضارة الاوربية ، وقد ظنت الظنون في بادىء الامر باعماله ومناهجه ، وحسب الذين ينظرون الى مظاهر الاشياء انها اعمال لامستقر لها بل هي مقضي عليها بزوال عاجل ، لان العبقرية ليست في عرفهم مؤتلفة مع التسرع في انجاز الاعمال ، ولا قائمة على الانقياد للاساليب التي تمليها الاهواء وتصدر عن الشهوات اكثر مما تمليها الاراء القوية والخطط المجربة ، وهي بدلا من ان تكون ثمرة سياسة محكمة الوضع كانت عندهم من وساوس الرأي وخدع النفس ، ولكن حكم الزمان كان في جانب القيصر الشرقي الذي اتقن صنع بلاده ، لا في جانب الناقدين المرتابين من جهابذه الغرب .

وقد استفاد من سياسة الالمان وسياسة السويد وسياسة البولونيين ، فكان ابرع من رجال هذه الدول في حسن اغتنام الفرص التي يهيئها له مجاوروه باقتساماتهم ومنازعاتهم ، وبقدر ما كانت هذه الدول عاجزة عن ادراك مرامي السياسة واغراضها البعيدة ، كانت السياسة الفرنسية التي نفذت الى اعماق السياسة الروسية وادركت مطامعها تحاول ان تصدها وان تقيم سداً منيعاً دونها ، وقد حذرت حكومتي السويد وبولونيا ، ونبهت السلطان العثماني الى ان اضمحلال هاتين الدولتين مقدمة لتحقيق غايات القيصر في البسفور ، وهو لا ينتظر الا انتهاء حروبه

في الشمال حتى يملأ بسفنه البحر الاسود ويهجم على القرم ، ولكن النذر لم تنفع هذه الدول ، وظل القيصر سائراً في خططه ، منتهزاً غفلة خصومه الى ان استنفدت الحروب قواه ، وقد هاجم الترك معتمداً على نصارى الدولة في البلقان فغلب على امره ، وعاقد الترك معاقدة ارتد فيها على اعقابه ، وتخلى عن بحر آزوف وعاهد على اجتناب التدخل في شؤون بولونيا ، وكان هذا الانتصار فوزا بل كان حاسماً لو ان الترك عرفوا ان يستفيدوا من تفوقهم ، وانقذوا في الوقت نفسه السويد حيث كان بطرس الاكبر يتوقع ان يفقد كثيراً مما غنمه على شاطىء البلطيك . ولكن القيصرة كاترين الاولى استمالت الصدر الاعظم محمد باشا البلطجي واغرته بهداياها فلم يطلب شيئاً للسويد ، فحملت بولونيا وفرنسا وشارل الثاني عشر السلطان على اقصائه ونفيه ، ولكن خلفه يوسف باشا عقد هدنة مدتها خمسة وعشرين عاماً مع الروس واكره شارل الثاني عشر ملك السويد على مغادرة الاراضي التركية .

حقاً ان بطرس الاكبر كان يحسن الاستفادة من خطيئات خصومه كل واحد بدوره اكثر مما يستفيد من انتصاراته ، وكانت فرنسة تحاول ان تشد ازر الباب العالي وتنصره على الروس ، ولكن شمس الامبراطورية العثمانية كانت قد آذنت بالزوال وكان صدورها ووزراؤها يعملون للحرب والسلم تبعاً لمنافعهم ورغائبهم ودسائسهم ، وقد اعان الالمان بطرس الاكبر معونة كبرى ، ففتح امراء الالمان في الشمال له ابواب البلطيك ، اما امراء الالمان في الجنوب فقد اضعفوا الدولة العثمانية التي استطاعت ان تقف في وجهه وان تقيم حاجزاً في طريقه ، ولما احس الالمان بعاقبة السياسة التي يسيرون عليها والتي تعزز جانب الروس وتقوي سلطانهم ، حاولوا صد القيصر واعتراض سبيله بعد ان استفحل امره وعظم خطره وبدأ يثير المخاوف ويقلق الخواطر ، وهذه المقاومة الالمانية التي جاءت بعد اوانها جعلت القيصر الروسي يتوجه بمرونة فائقة نحو فرنسا ويدعوها الى محالفته ، مستثمرا ما بينها وبين آل هبسبورغ من خصومة تقليدية وعداوة موروثة ، متبعاً بذلك نفس المنهاج

الذي اتبعته انكلترا في الاستفادة مدى طويلا من تنافس الاسرتين ، ولكنه لم يفز بادراك مبتغاه لان فرنسا لم تجبه الى طلبه ولم ترغب في محالفته ،وان كان كثير من الفرنسيين كانوا ينحون باللائمة على الذين احجموا عن اتباع هـذه الخطة الجديدة ، وكانت السياسة الانكليزيةاخذت تناصبه العداء وتبث له المكائد،فتغلبت عليه احيانا ، ولكنه مع ذلك لم يبرح مثابرا على خططه جاهدا في مدى عشرين سنة لتحقيق مناهجه ، فنال جائزة نضاله المتتابع ، وحل المسألة الشرقية اول حل طبقاً لحاجاته ومصالحهوامانيه ، واستحقت الامبراطورية العثمانيةالمقوبة بافلاتها القيصر الذي كاد يصبح في ساعة من الساعات في قبضة يمينها ، وهذا الحل الذي ادركه القيصر كما اراد ، لم يفز بما اراد منه الا بجعلالنظام الاوربي ينقلب رأساً علىعقب فكأن النجاح الذي احرزته روسيا قام على خسران الحضارة الاوربية ، فحكم بالزوال على شعوب اوربية مثلت حضارة هذه القارة عهدا طويلا ، بدون ان يعترف لها بحق او عدل او سالف خدمة ، وبدون ان تمهل حتى يكون بقاؤها مفيدا للاوضاع الجديدة ، وقد ازيلت معالم الحق في اوربة ، ونقضت المعاهدات التي كانت في الماضي تصون حقوق الشعوب ، واصبحت وسيلة للتجزئة وسببا للثورات واعمال القمع والعنف ... ونالت روسيا مانالته بدهاء قيصرهاالعظيم في سياسته الخارجية التي سار عليها في الدول المتعارضة ،وسياسته القويمة في انشاء بلاده ، وقد اسندت اليه وصية سياسية لم يصح انها حقيقية ، وهي محدثة فياوائل القرن التاسع عشر .

٤ — فردريك الكبير

هذا الملك الساخر الهازىء سيد بروسية واميرالفلاسفة المتوج ، المتأملبكل مافي العالم من اسراروحقائق، يكاد يكون قد خلق لاذلال البيت المالك فيالنمسة واغاظته والطعن به ، وتقويض النظام القديم الذي كان يمثله هذا البيت في اوربة

المتوسطة ، وقد عاد برغم الصعوبات القائمة في خلق دولة جديدة وتغيير الاوضاع القائمة المتمكنة . يجر اذيال الفوز بعد ان قاتل اوربة وحده في حروب شديدة مدة عشرين سنة ، تؤيدها سياسة بعيدة الغور في القارة الاوربية ، ونال ما يريده في آخر الامر من اقتسام بولونيا من غير ان يكلفه ذلك مشقة ولا عناءا بعد ما انتزع سلزية من آل هبسبورغ .

وكان الامراء البروسيون الذين تتابعوا على الحكم في القرن السابع عشر يتمم بعضهم عمل بعض ، وقد اجتمعوا كلهم بفردريك الذي فاقهم وتجاوزهم ، فسبق من كان قبله ومهد السبل لمن جاء بعده ، واربى على النظراء واقام بنيان دولة كبرى من عناصر الدولة الصغيرة التي ورثها من اجداده ، فوسع ملكه وثبت اركانه ، وناوأ بيت النمسة الذي لم يستطع مشاطرته الامبراطورية فاخذ يدافع عن حقوقها ، وابقى وصية سياسية يدعو فيها الى تحالف الامراء الذي تمسك به احد ابناء اخيه ، فارتفعت روسية الى ذروة المجد التي كانت تقصر عن ادراكها مطامع فردريك نفسه ، وقد حدد فردريك الغاية ودل على الطريق ووضع المعالم وبين المراحل ، وكان يشير الى العدو الموروث الذي يجب قتاله وانتزاع ملكه ويعين الحليف الذي يجب معاقدته والتعاون معه ، وتقلقه خاصة روسية ، وتفاقم خطرها ، ويرى انه لا سبيل للنجاة من هذه الدولة المخيفة الا بتأليف حلف يجمع ممالك عديدة تصد هذا السيل وتدفعه .

ولم يكن فردريك يرمي ببصره الى مـــدى أبعـد من عصره ، وفي ذلك كفاية ، فقليل ما هم رجال السياسة الذين ينظرون الى مثل هذا المدى ، ولم يكن السيل الروسي ليظهر انه عظيم الخطر الا في قلب الارجاء البعيدة حيث يضيع في الضباب المتراكم ، وبقدر ما تصل العين في متابعة مجراه كان يفضل فردريك ان لا تبدد الاموال في اقامة السدود في طريقه ، ولكن يحفر الاقنية حتى يسخرها لفائدة المملكة البروسية . وقد جاء في مذكراته ان هناك خطتين يحسن العمل باحداهمـا فاما ان يدرأ السيل الروسي ، واما ان ينتفع به ، وهذا ما حاوله ببراعة لا حد لها

عندما جرى اقتسام بولونية وما ابقاه لاخلافه من درس وعبرة .

وبدون ان يكون بين الروس والبروسيين صلة محبة ، وبرغم ان المصير يدعوهما في الايام المقبلة الى تجديد النضال الموروث بين الشرق والغرب ، فقد كان الفريقان يعتقدان ان مصلحتهما الحاضرة تقضي بان يكون لهما غاية واحدة ، وكانا يطمعان في بولونية ، وما دامت بولونية قائمة فان اطماعهما كانت تقودهما الى الاتحاد لتقاسم الاسلاب ، والى القتال لبسط سيطرة مشتركة ، وما وراء ذلك فان الروس لايهمهم غير الشرق والبروسيين لايهمهم غير الغرب ، ولم يكونا يقومان عقبة في سبيل بعضهما بعضا ولم يكن في خططهما ادنى تعارض ، وكان لهما خصم واحد ومنافس واحد وهو النمسة ، وكانت الاطماع العمياء والتقديرات الخاطئة قد تجعلهما يشتبكان في وقت من الاوقات ، ولكن طبيعة الاشياء كانت تقودهما الى ان تكون لهما قضية مشتركة لقتال عدوهما المشترك .

وقد تغلب فردريك على محنتين شديدتين يقع بهما الفاتحون : فقد احتفظ بما استولى عليه وجعله مماثلا لولاياته الملحقة ، وكان يعتقد باستمرار صنعه ويرى ان موته سيثير ازمة في بروسية ، ولكن الدولة لاتضمحل بسرعة ولاسيما كالتي احسن انشاءها،فان خصومها لن ينالوا منها شيئا ، غير انه لم يصب مواقع الرأي فيما ادعاه، واعجابه بنفسه لم يكن فيه مبالغة بالنظر له ،ولكنه كان واهما بالنظر الى حكومته، فقد كان يمثل بروسية ولا يستطيع احد ان يقول مثله : الدولة هي انا ، وكان ذلك ميزة الدولة البروسية كما انه موضع ضعفها ، فالدولة هي الامير ، والامير هو رجل الدولة المظم ، وكان فردريك لايعرف الملل ولايعرف الاذعان ، وكانت عاداته العسكرية تحمله الى قيادة كل شيء وتدبير كل شيء بنفسه ، وقد تسلط على الامور كلها وردها الى مقياس عقله ، وكانت قدرته فوق الوسط من قدرة الرجال ! يدبر الدولة كما يدبر المالك ماكه ، وجميع نظامه في الحكم يرجع الى هذا الاساس الفطري : استثمار سيد ذكي لملك واسع.

وكان وزراء فردريك يسألونه كتابة عما يأمر به ، فيبلغهم اوامره من ديوانه بجرة قلم في اعظم المسائل ، وقد جعله ازدراء الرجال يزدري كل شيء في احكامه ، ويختصر اوامره في سطر من غير ان يذكر حجة او سببا ، فيكفيه كاتبان او ثلاثة كآلات مسخرة لهذا النوع من العمل ، ولم يكن يستشير احداً ولا يطلع على سره احداً ولا يتسامح مع عماله ، وقد انتزع من رجاله الاكفاء الثقة بانفسهم وثقة البلاد بهم فانحلت الارادات واضمحلت الاخلاق، وعمت كبار الموظفين وصغارهم الطاعة العمياء . وبقيت الامور متسقة منسجمة مابقي فردريك متحملا اعباء الحكم ، وساد الاضطراب والتفكك عندما تسنم الاريكة رجل ضعيف الرأي عاجز عن تدبير الخطط ، وقد خلف فردريك رجالا حريصين على رقابة النظام ، ولكنه لم يخلف مستشارين ولامدبرين ، فلم ينشأ بعده في هذه البلاد التي ليس فيها تقاليد دولة الا تسليم اعمى وعادة متبعة ، لان الملك كان منشأ كل قوة حقيقية .

وكانت بروسية — كما قال ميرابو — جيشا وخزينة ، وعند اضمحلال الجيش لايبقى الا الخزينة ، واذا حرم الجيش من النفس التي تقوده ، والتي كانت مصدر الذكاء والحياة فيه ؛ لم يبق له الا ان ينحل ويتفكك لانه انما تعلم الطاعة لاالقيادة وكان الجند آلة بدون وطن ، والضباط يجتمعون من الارجاء المتفرقة، وينصرفون اذا خلوا بانفسهم الى الابحاث الفلسفية والسياسية التي لم تكن محظورة عليهم ، وعندما يصبح الجند بدون سيد ؛ ويصبح سيدهم غير كفء للسير بهم نجد حينئذ بينهم مفاوضين اكثر من قادة ، وبرغم شجاعتهم في القتال فقد كانوا مغرورين مترددين ، مدعين ، متوانين ، وهذا ما حال بينهم وبين النصر، وكان السبب الاكبر في انكسارهم سنة ١٨٠٦ ، ومع ذلك فقد احتفظ الجيش بطبائع وعادات عسكرية ونظام باهر في السلم ومكانة في ساحات الحرب ، اما رجال السياسة فلم يكن لهم رأي ولامزايا سياسية، ولم يقتبس مريدو فردريك الا عيوبه ، ولم يكن عند مقلديه الا بقايا مشوهة من رجل عظيم ، وكانت عبقرية فردريك تخفي اساليب سياسته وما فيها من عيب عن اعين معاصريه ، ولما ذهبت العبقرية لم تبق الا الاساليب التي

ظهرت بغيضة كما هي ، على حين ان اعتـدال فردريك وحسن سياسته وسمو رأيه كان يصلح من عيب اساليبه في نظر جمهور يغفر في الغالب جناية ولا يعفو عن خطأ ، وكما اقر بنفسه ، فقد كان يصل الى اغراضه بالمفاوضة والدسيسة ، وقـد بقيت من بعده الدسيسة الاساس الوحيد للسياسة البروسية ، واصبح الطمع الذي سكنه بارضائه ، ينتشر بجشع في كل ناحيةويتجه نحو كل غاية ، واصبحت بروسية تمد بصرها حيثما شاءت وهي تظن انها قادرة على كل شيءوانهـا لاتخشى اي شيء ، وقد فاتها ان نجاح فردريك كان سببه انه لم يحاول الا ممكناً وانه بدلا من التورع كان يوصف بالحذر ، وان الذين قاموا مقامه غرهم الغرور بقوته وانتشوا بسكرة نجاحه فاتبعوا سياسة لاوجدان لها لخدمة اطماع لاحد لها ، وقد بدأ السقوط من هذه الناحية ، فان فردريك بعد ان اثار تعجب اوربة بجرأتهفاجأهاايضا باعتداله، ولما بلغ سن الشيخوخة اخذ يتلبس بلباس الورع ويتمسك بالمبـادىء ، فصادق انكلترة ، واتصل بفرنسة ، ودافع عن الدول الصغرى في المانية ، وبقي حليفـــاً لروسية ، اما النمسة فما زالت تحذر جانبه ، وكان التآمر هو الرابطة الوحيدةالتي يمكن ان تكون ، والتي تستطيع ان تؤلف بين هذه الدول الثلاث المتحاسدة.

وكذلك بعد ذهاب فردريك وقيام خلفلهلميكونوا على شاكلته ، اصبحت بروسية في اواخر القرن الثامن عشر لا ارادة لها ولا قوة ولا فكرة ، وقـــد فقدت في الشعب وفي الحكومة رقابة النظام التي سمت بها الى منزلة رفيعة ، نعم انه بقيت فيها قوى كامنة ولكنها كانت غير مجدية في حكم عصابة من الدساسين الذين لاضمائر لهم ، والفاسقين المغرورين الذين لاشأن لهم ، واصبحت بروسية امـام فرنسا المنتصرة امة مشتتة ودولة ضعيفة ، وحكومة لاتقوم لها قائمة، ولم يبق ممـا عمله فردريك الا الجيش الذي قضى عليه نابليون ، وكان يظن في هـذه النكبة ان بروسية علىوشك الزوال ، وأنها لاتلبث ان تمحي من الخـارطةالاوربية، وكان ينتظر جميع متتبعي احوال العصر هذا الاضمحلال الذي جاء نابليون فحققه بضربة قاضية ، ولكن نهضة بروسية لم تكن بعيدة فاستقالت عثارها ، وجـددت

شبابها ، ونفضت غبار المحنة المخيفة عنها ، وظهرت قواها الكامنة واركانها الثابتة ودعائمها الراسخة ، ونشأ فيها رجال مضوا في الذود عن حياضها واصلاح امرها وتحقيق مآربها ، وقد ولد هؤلاء الرجال في عهد فردريك ، وشهدوا في شبابهم الانحطاط الذي اصاب بروسية،فاستفادوا من دروس الكارثة وعبرها،وبحثوا عن اسبابها وعللها ، وهم ينتمون الى جيل لم يتأثر بالعوامل التي افسدت اخلاق القرن الثامن عشر ، ولكنهم اشربوا فكرته ، ونالوا ثقافته الرفيعة في السياسة والتهذيب، وعلمتهم المصيبة التي حلت ببلادهم فهم الحقائق والقصد في الامور ، وفي مدى عشرين سنة سقطت بروسية ثم نهضت ، وكان سقوطها رائعا ونهوضها رائعاً ، وكذلك ماصارت اليه من التجدد والرخاء والسعادة .

وكان ميرابو الذي يدرك بثاقب رأيه بواعث الثورات ، ويشعر في شؤون الدول بشعور رجل عبقري ، ميز اكثر من كل رجل مافي صنع فردريك من قوة ومن ضعف ، وكما انه تنبأ بتداعي هذا البنيان،فقد اصاب كذلك بما تنبأ عنه من دنو قيامه وتشييده ، وقال ان الرجال الذين هم اولي نظر بعيد لايأخذهم العجب اذا حانت هذه الساعة .

٥ — كاترين الثانية

لعل كاترين الثانية ، قيصرة روسيا الالمانية الاصل ، من ربات التيجان اللواتي تفردن في تاريخ السياسة ، فقد حاولت منذ البدء ان تقوم باعمال تنسى منبتها وهزت اعطاف الفخر في روسيا بتظاهرها باحترام عادات رعيتها ، واستخدمت الاجانب ولكن من غير ان تذعن لهم وتنقاد الى سياستهم ،واضافت الى رذائل لاحد لها نشاطاً كبيراً ونظراً صادقاوهمة بعيدة فاتمت عمل بطرس الاكبر وانشأت من الامبراطورية الروسية دولة من الطبقة الاولى ، وكانت امرأة ممتازة في الخير وفي الشر ، تداهن الحضارة الغربية وتمالىء اعاظم رجالها وتراسل فولتير

وديدرو الذي عاش في كنفها ، وتجمع نواب الولايات على مقربة منها لوضع دستور الامبراطورية الذي لم يوضع ابدا ، وتستدعي الاجانب لزيارة روسيا . ولكن لاتدع الروس يزورون البلاد الاجنبية ويتصلون بها الا قليلا ، وتريد ان يبقوا جاهلين مايجري في العالم .

وقد احبت كاترين ان تقرأ احد المؤلفات التي ذاعت عن مؤامرتها ومكائدها ودخائل امورها ، وسألت ديدرو الذي كان في جانبها عن الكتاب ، وكان هذا الفيلسوف يباهي بعدم مداراته، ولكنه احتاط في كلامه واجابها بقوله : امامايتعلق بك ياسيدتي فان كانت تهمك الاخلاق والمناقب التي اصبحت برودا بالية عند بنات جنسك ، فان هذا الكتاب فاحش القذع يصورك اقبح تصوير ، واذا كان الذي يهمك اكثر من ذلك خطير الامور وعظيم المساعي وجلائل الاعمال الوطنية ، فان الكتاب يجعل منك اميرة كبيرة ، وهو على كل حال يرفع من قدرك اكثرمما يدنيه ، فقالت القيصرة : انك لتحبب الي قراءة هذا الكتاب . وقد اظهر ديدرو عجبه ذات مرة كيف ان خطبه لاتؤثر التأثير الذي يؤمله على حين ان القيصرة تصغي اليه بحماسة ، فالتفتت كاترين قائلة : ان المبادىء الكبيرة التي تلهج بها تجمل بالمؤلفات والكتب ولكن لاتجمل في الاعمال ، انك تكتب على الورق الذي يحتمل كل مايسطر فيه ، اما انا القيصرة المسكينة فاني اعمل في بشرة الانسان وهي تنفر وتتألم . وكان ديدرو فيلسوفا لابصر له في السياسة .

وكانوا جميعاً في هذه السلسلة من الملوك والملكات التي تعاقبت على روسيا بعد بطرس الاكبر على اختلاف منابتهم ومناقبهم متأثرين بنفس الشعور، سائرين في نفس الوجهة : البحر الاسود ، بحر البلطيك ، اوربا الوسطى ، وكانوا جميعـــاً يعملون على التوسع في بلاد الترك والسويد وبولونيا ويفكرون به ، وعند ماحملت ثورة عسكرية وسياسية كاترين الى اريكة الملك في روسيا كانت الطرق معبـدة والسبل ممهدة ، فسارت هذه الاميرة الالمانية في سبيل الخطط التقليدية ،وسخرت لها مجهوداتهـا العظيمة وعبقريتها الخارقة ، وكأن الحظ الذي هيأ روسيا لهـذه

لاقدار العظيمة ، وامكنها من الفرص النادرة ، منحها ايضاً احسن من علك فيها واعظم من تجل به فائدتها .

وقد بلغت كاترين من العمر سنة ١٧٨٩ ستين سنة ، وكانت فخمة اكثرمنها جميلة ، حازمة الملامح ، مستعرة النظرات ، تنم تقاطيعهاعلى شيء من النبل والعظمة. والتناقض الذي شهرت به في ابتذال نفسها وصيانة سلطانها يكاد لا يصدق ، ولم يسبق لروسيا ان حكمتها يد كما حكمتها يد هذه الالمانية بحزم ومرونة ومعرفة لروح الشعب وحاجاته .

وكانت كاترين تظهر في رسائلها التى تبعث بها الى اصحاب الآراء المشاهير في اوربة انها متفوقة عليهم ، ولكنها اذا لم تعرف الا في رسائلها فانـه لايحكم الا في مظاهرها ولايدرك كنه عبقريتها وغور سياستهـا ، ولايحسن فهم غايتها ولاشدة وطأتها على الثورة الفرنسية ، وقد كان يستغرب بانها تؤيد في بولونية ماتقاومه في فرنسة ، وانها تتهالك في تغذية الفوضى في فرسوفية ، بينما كانت تعمل جهـدها لبعث الملكية في باريس وتوطيدها ، وقد استنتج من ذلك انها لاتحـكم بحسب المبادىء وهو حق ، وانه ينقصها فكرة التذبع في خططها وهو خطأ ، ولا شأن في الحقيقة للمبادىء في هذه الامور ولم تكن كاترين لتهتم بشيء منها ، وقـد كرهت الثورة الفرنسية لانها افسدت مناهجها ، واوقدت نار الفوضى في بولونية لانهـا وافقها ، وكانت تحكم على الفرنسيين الثائرين احكاماً قاسية ولكنها تدع امرالتنفيذ لالمانية ، وكانت في بعدها عن فرنسة قليله التأثربالدعوة للثورة ، ولم تكن ترى في هذه الازمة الكبرى الا فرصاً تغتنم لتحقيق مآربها ، وليست قضية الملكيـة الا حجة تتذرع بها ، وفي كل ذلك كانت تصيب مواقع الرأي وتنجز ماتريده بحزم وتصميم خارقين للعادة .

وعلى علات هذه الاميرة فانه ينبغي تقبلها كما هي : المانية بجنسها واخلاقهـا ، ذات عبقرية بالغة وفكرة دقيقة ، ولا تختلف في حياتها الخاصة عن غيرها ، شديدة التهالك في شهواتها والكتمان لخططها والحرص على تنفيذها ، واسعة المطامع ، تتصف

بالصفات التي يتميز بها كبار السياسيين ، رأي صحيح وخلق ثابت وعقل راجح ، وتميل الى الفلسفة ولا تتجنب خرافات رعيتها ، ولو انها كانت روسية لضاعت في الآراء المضطربة المبهمة في روسية ، ولكنها المانية متزنة خبيرة حذرة ، تقوم بعملها باسلوب ونظام ، وهي اقل عاطفة من ماري ترز واكثر انسانية من فردريك ، ولم تأخذ من الاولى فضائلها الشخصية ولامن الثاني اساليبها الخبيثة ولكنها اقتبست من الاثنين تعرف حقائق الاشياء والتمسك بما يمكن وازدراء ما يستحيل .

وكانت في هذا العالم الروسي القلق تستخرج حاجات الشعب بدون عناء ، وتميز قواه الحقيقية وآماله الخفية ، وترد كل شيء الى عقلها الذي هو من احسن المعقول نظاماً واشدها تشابها وانسجاما ، ولما كانت لاتتبع غير رأيها ، ورأيها معين الحدود ذو قوة متين ، لم تكن تخشى النقائص التي يجدها الاجانب في لغتها وسيرتها ، وكان يكفيها ان لاتكون هذه المتناقضات ضارة بها ولكن مصدر قوتها وعنوان براعتها ، فهي تجمع العناصر المتعارضة للخطة الاولى ، وتتكلم بلغة الزمان ، وتحتفظ ببساطة الرأي وسداد الفكر وشدة الولوع الذي تتصف به الطبائع الفطرية ، وكانت تمر بها آراء العصر كالشعاع الذي يضيء سطح الماء بدون ان يخترقه وينفذ الي اعماقه ، وكانت الفلاسفة تتصل بها فتقضي ابانتها الفلسفية وترضي رغباتها السياسية ، كما انها تختار الجنود وتساقيهم كؤوس الحب مترعة .

وبينما كانت تتهيأ عوامل الثورة في فرنسة كانت نفسها تضطرب بالفكرة العظيمة المسماة بالخطة الرومية ، وهي التي بقيت الدستور الاكبر لسياسة روسية ، فلم تكتف بسلب البولونيين روسية البيضاء وسلب الترك القرم ، ولم يقنعها بان خيول الروس وردت مياه الدانوب ، وان سفنها تمخر عباب اليم ظافرة في البحر الابيض والادرياتيك والارخبيل ، وانها حرضت اليونان على الحرب المقدسة واقامت نفسها حامية للنصارى الذين يحكمهم السلطان بل كانت تريد ان تحقق

خطة القياصرة التقليدية وحلم الروس الكبير وهو اخراج « الكفار » من اوربة وتطهير عاصمة الارثوذكس وردها اليهم واقامة حفيدها قسطنطين الذي اعد لذلك منذ ميلاده قيصرا في القسطنطينية ، وهي تعتمد في تحقيق احلامها على يوسف الثاني الذي يشاطرها اياها ، ويوثق صلات التحالف معها ويطمع ان يبلغ مناه عن طريقها ، وينتظر معها ان تهب الريح كما يشتهيان لمحاولة هذا الفتح المبين .

وكانت فرنسة عقبة في سبيل ادراك هذه الامنية ، الا ان فتن الثورة وقلاقلها كادت تجعلها بمعزل عن القارة الاوربية ، فتضاءل شأنها ، وخيل لاعدائها ان النظام قد اختل فيها الاختلال كله ، وان الفوضى قد سادت فيها وان ملكها اصبح بحاجة الى من يقوم عليه ، وان فرنسة قد اضاعت ما احرزته في مئتي سنة كما قالت كاترين عنها ، وقد جرت مفاوضات بين لندرة وبطرسبرج في امر تقاسم الشرق ، ولكن الانكليز كانوا يتريثون في شأنه ويقلن اهتمامهم به ، ويريدون ان يطمئنوا الى روسية اكثر من ذلك ، وكان البروسيون يشجعون الترك ويحرضون السويد ويستميلون البولونيين ، ويستمرون بذلك على مقاومة السياسة الروسية والنمسوية ، ويأخذون بسنة فردريك الذي كان يرى انه ليس لدى بروسية قاعدة ، وقاعدتها المثلى ان تسير بحسب الظروف وتحسن اغتنام الفرص ، وقد اشتد كاهل الترك وبدأوا القتال ، فاحدق الخطر بكاترين ولكن السياسة اعانتها على تفريجه باثارة الفتن وبذل الاموال وبث المكائد .

وكانت قواعد السياسة الروسية ، ولاسيما نضالها للترك ، مما يوافق هوى الشعب ورغائبه ، بل انه ليقال لم تكن سياسة شديدة الانطباق على طبيعة الاشياء كالسياسة الروسية وخططها التقليدية ، فما كانت تستطيع روسية ان تتنفس وان تنمو اذا لم تفتح في وجهها مذاهب الحضارة وطرق التجارة ، وكان السويد والبولونيون والترك يسدون عليها هذه المنافذ فنشأ من ذلك النزاع بينها وبين هذه الشعوب .

وفي التقارب الذي كان يجري بين فرنسة وبين روسية كانت الاولى تخشى ان يكون حظها من هذا التقارب تحمل اعبائه ، فتشوكها اشواكه من غير ان تتدلى عليها ثمراته كما قال احد ساستها ، وكانت فرنسة تتحرز كثيراً في مفاوضات كاترين التي لم يكن يرضيها ان تجد مفاوضيها متحرزين وتتهكم على هذا الافراط في الحذر والمبالغة في التثبت ، على ان فرنسة لم تستفد من هذا التقارب ، وظلت مساعي روسية وكاترين سائرة في طريقها ، تخاصم الترك والبولونيين وتستفيد من مواطن الضعف في هذين الشعبين وتنال منها ماتريد .

وكانت مظاهر الروس والترك متقاربة في القرن السابع عشر ، فالامبرطورية العثمانية كانت لاتبرح مغذى ومراحا للفتن والثورات وتقلب السلطة وقلقها وانحلال الاخلاق الخاصة والعامة ، والاحوال في روسية مضطربة ملتبسة مبهمة ، وكان كل شيء من العوامل الدينية والسياسية يثير العدوان بين الدولتين ، اما بولونية فقد كان فيها شعور سام ونبل وكرم وحب للوطن وتفان في سبيله ، ولكن الحرية العمياء كانت تقصيها عن اقتطاف ثمرات هذه الفضائل ، وكان كل احد ينتصر لحزبه ، ولكن البلاد بمجموعها لاتجد من يتحزب لها ، وكانت الدسائس الدولية المتنافسة تعبث بذلك الشعب وتمنيه الاماني وتستغل اساليب الدين المضطربة وسياسته القلقه ، ولم تكن كاترين تدع لسواها ان يرتع في هذا المرعى الخصيب ولاسيما منافسوها في بروسيا ، بل انها استثمرت كل الاستثمار خلافات البولونيين وسوء ملكاتهم ، واستعانت بذلك على تحقيق غاياتها وتنفيذ خططها .

٦ — نابليون الثالث

ابدى نابليون الثالث مهارة كثيرة في مؤامراته الى ان تسنم غارب الحكم ، وقد كان يعد سياسياً قديراً لولا انه ارتكب في سياسته الالمانية الغلطة التي اودت به ، وسقط في هذه العثرة التي اضعفت قيمته واساءت الى سمعته ، على انه غامر قبل

ذلك مغامرة كبيرة في المكسيك فانتقده جول فافر بجرأة امام المجلس التشريعي وقال : انكم تغيرون على المكسيك فاحذروا عواقب نجاحكم ، وستبقون محتلين في زمن غير محدود ، وكان جول فافر مثل غيره واثقاً بانتصار الجيش الفرنسي ، ولم يخش الا عقم هذه الانتصارات وتكاليفها ، ولكن روهر وزير نابليون المسيطر اجابه بكلمات مملوءة بالغرور والتبجح ، وقال سيعرف الناس ان نابليون الثالث كان رجل العبقرية الذي تمكن بما لديه من جرأة ان يفتح امام الشعب عهد رخاء جديد ، على الرغم من المعترضين والمقاومين والمتخلفين . وقد استقبلت هذه الكلمات بحماسة ومنعت كثرة المجلس جول فافر من الاجابة عنها ، وقام تيير في مكانه منادياً انكم لاتحبون سماع الحقيقة ، على ان هذه الحقيقة بهرت عيون جميع العالم في المكسيك عندما اضطر الجيش الفرنسي ان يسرع في الجلاء عنها بعد ان لقي مكسمليان حتفه ، ولم يبق من المغامرة الدامية الا اثر الضغينة والحقد الذي لم تستطع الجمهورية الفرنسية ان تزيله الا بعد عناء طويل .

ولما تبوأ هذا الامير سدة الرئاسة في فرنسة شعر الفرنسيون انه سيكون العامل الكبير في القضاء على معاهدات ١٨١٥ وعقدوا عليه آمالهم بتحقيق ذلك وكانت آراؤه تختلف عن آراء الوسط الذي دعي للحكم فيه ، وعن مذهب الجيل السائد يومئذ في فرنسة ، حتى انه كان يظن ان الاتفاق ممكن مع روسية ، في حين ان الرجال المحيطين به الذين نشأوا في عهد لويس فليب كانوا يرون روسية عدوة كل حكم دمقراطي كما انها الركن الركين لتلك المعاهدات .

اما حرب ١٨٥٤ فقد كانت حرباً اوقد نارها رجال السياسة وموظفو الدواوين والسفراء من اسرى التقاليد الذين عاشوا في وسط المسألة الشرقية في احداثها ومشاكلها ، وقد عظموا الاحداث والاسباب التي لاقيمة لها ، وانتهى بهم الامر ان اصبحوا مقيدين بآرائهم الضيقة ، وقادوا ملوكهم ورؤساءهم للقتال على غير رغبة منهم ، وكان في مؤتمر باريس كل مظاهر الفوز للسياسة الفرنسية والانكليزية ، وكأنه انتقام ادبي نالته فرنسة بعد مؤتمر فينة ، فقد اشتركت للمرة

الاولى منذ ١٨١٥ في مؤتمر كبير بعد انتصارها ، ووجـدت السياسة الفرنسية استقلالها ونفوذها ونهضت من العثار الذي اصابها ، واصبحت تنظر نظراً صادقاً الى المستقبل الذي يتهيأ لها .

وقد اصر نابليون في هذا المؤتمر على جمع امارتي الافلاق وموراڤية وبسارابية في دولة واحدة برغم معارضة انكلترة والنمسة والمجر ، ونجح نابليون في تحرير الامارتين ولكن ظلتا منفصلتين الواحده عن الاخرى ، وبعد ان اتحدت هـذه البلاد واختارت عليها ملكا من آل هوهنزلرن كان يمكن ان يقال ان نابليون الثالث لم يصبه الا الفشل في سياسته المتعلقة بالقوميات ، غـير انه اذا نظرنا الى تطور الحوادث بعد ذلك وجـدنا الامبرطور لم يخطيء منافع الرأي فيما اراده من انشاء دولة مستقلة على ضفاف الدانوب ، تنتمي الى عنصر لاتيني يستطيع ان يكون عاملا من عوامل التوازن الاوربي في هذه الارجاء .

وكان هم نابليون الاكبر استئصال ما ابقته في اوربة المعاهـدات التي ابرمت في فينة،وفي مقدمة ذلك تحرير ايطالية ، وقد اتصل في نشأته بجمـيع العناصر المتطرفة واصحاب المبادىء القومية من ايطاليين وسويسريين ، حتى انـه لم يكن بعيداً عن الالمان وفكرتهم في الجامعة والوحدة ، وقد اثرت هذه النشأة في سياسته كما ان سياسته اثرت في اوربة بأسرها ، على انه كان يتردد حذراً من النتائج لانه في طبيعته من انصار السلام ، وانقاد غير مختار الى تأسيس دولة ناشئة في جنوبي الالب تتقرب من انكلترة وبروسية وتؤدي الى عزلة فرنسة وتتجاوز ما كان يطمع في تحقيقه من انشاء نظام اتحادي في ايطالية .

وفي اول بيان خاطب به الشعب الفرنسي قال : نذرت حياتي للقيـام بمهمة خطيرة ، وقد اضاء قرارة نفسي شعاع من الشمس الزائلة في صخرة سانت هلين ، واني احاول ان احتفظ بهذه النار المقدسة فاما ان اغلب او ان اموت في سبيل قضية الشعوب . وكتب وهو في لوندرة في بيانه الى الجيش باحثا عـن الانسانية المعذبة ومبشراً بالوحدة الايطالية : ان اسم ايطالية البالغ حد الجمال ، والذي مات

منذ عصور ، اعاده نابليون الاول الى ولايات منفصلة يحمل في نفسه وحده مستقبلا سياسياً كاملا ، وكان يطالب يومئذ بالملك ويشيد بصنع نابليون الاول الذي هدمته معاهدات ١٨١٥ وهو احياء القوميات الاوربية بوسائل الثورة وآرائها . وقال لو لم تكن واترلو لقضت الانسانية اربها ، لان العناية لم تكن لترضى ان لا يتمتع شعب بالسعادة الا على نفقة الآخرين وان لا يكون في اوربة الا غالبون ومغلوبون لا اعضاء متصالحون من اسرة واحدة .

وظل نابليون الثالث يسبح في مثل هذه الخيالات ويحلم بتحقيق الوحدات الوطنية الكبرى ويتوقع ان يكون الحكم بينها ، غير ان هذا الرجل الخيالي اتى في طريقه الرجلين البارعين في تحقيق الخطط وابرازها للعيان بسمرك وكافور ، فوضع بنفسه مقدمة العمل الذي قاما به ، وقد الفت نظرية الشعوب بين الرجال الثلاث ، وكان يؤكد نابليون انه من السياسة الحمقاء المعارضة خوفاً او حسداً ان تعمل الامتان ما عملته فرنسة من قبل في تحقيق وحدتها ، ولم يدع نابليون خيالاته بعد سادوا ولا بعد سدان عندما كان مغلوبا اسيرا في يد اعدائه محروما من تاجه ومن سلطانه ، وما زال يردد هذا القول « ان من اعظم المبادىء التي ينبغي السير عليها جمع الشعوب الجغرافية التي مزقتها الثورات والسياسة » وكان تيير يعارض في هذه السياسة ، على حين ان منتقديه كانوا يرون من الخطأ اعتراض الشعوب في سبيلها ، فذلك مما يعجل سيرها ويسهل مهمتها .

وكان للامبرطور مجال واسع يعمل به ، ولم يكن بسمرك قد ناصبه العداوة بل انه لم يكن يكره الاتفاق مع فرنسة ، ويرى ان مكانها من القوة يحول دون كل تعديل في الممالك اذا لم تضمن مصالحها ، وقد مرت بفرنسة ساعات خطيرة وظروف حرجة دقيقة ، ولكنها لم تحسن الاختيار ، فكانت عاقبة الحوادث المتتابعة انها تعرضت لخطر جسيم ، واصيبت بكارثة لا مثيل لها من قبل ، وقد واجه بسمرك

اوربة بسياسته في شلزويغ — هولشتاين وضغط على انكلترة التي هي حامية الدنمرك وهددها بمحالفة روسية وعطل عملها السياسي ، وكان ابعد شأوا من رجالها واعلى كعباً في اساليب السياسة ومداخلها ومخارجها ، واخذ بمقاومة خطط النمسة ليقيم البرهان على تقهقرها وتضاؤل نفوذها في شمالي المانية ، ومضى في خطته القائمة على اساس التفريق بين البلاد الالمانية واعداد الوسائل لضم شلزويغ — هولشتاين الى بروسية ، وقد احست انكلترة بالخطر عندما قرر الدييت احتلال هذه المناطق واحتلال اللكسمبرغ بجيوش بروسية والنمسة وساكس وهانوره وتوجهت نحو نابليون الثالث الذي كان غير راض عن موقفها في القضية البولونية ، وكان يحاذر الدخول في اي عهد معها بعد ان شهد تلك التجربة الخائبة .

واستمر بسمرك يتابع ادغام الدول الالمانية ببروسية ، ولكنه لم يلحق شيئا من اراضي النمسة . ومابرح يعمل على استمالة الامبرطور نابليون الثالث يمده وعنيه في بلجيكة ولوكسمبورغ ، ولم ترتكب فرنسة خطأ في سياستها كالخطأ الذي ارتكبته في طلب التعويض بعد معركة سادوفا ، والبحث عن مكان التعويض مع خصم عنيد مثل بسمرك ، وكانت حامية فرنسا تحتل رومة منذ سنة ١٨٤٩ فجلت عنها سنة ١٨٦٦ ، واقترح نابليون تسوية منطقية وهي ضمانة الدول المشتركة لاملاك البابا الزمنية ، ولكن الحكومات الكاثوليكية احجمت عن ذلك ، وشجع بسمرك غريبالدي وفكتور عمانوئيل في مقاومة نابليون الثالث .

ولما كان بسمرك قد اتخذ الثورة وسيلة لتحقيق اغراض الايطاليين انقلب نابليون عليهم ، وتوجهت السياسة الفرنسية نحو النمسة ، ولكن الامبرطورية المتداعية كانت حينئذ تنظم شؤونها ، وكانت اضطرابات الصقالبة تقلق الحكومة ، والخطر الروسي يهددها في الشرق ، ولذلك فقد نبهت النمسة فرنسة بمذكرة الى وجوب المحافظة على السلم ، لان الظروف غير مواتية للقطع مع روسية ،

ولكن بسمرك كان يستشير الرؤساء العسكريين ويتهيأ للحرب التي نالت منها المانية ماتريده ، فأسست وحدتها في فرساي واعتها بمعاهدة فرنكفورت، فعينت بها الحدود والشروط التجارية الموافقة لها والتي سموها سدان الاقتصادية ، اما في انكلترة ،وعلى الاقل في حاشية الملكة فكتوريا وفي رجال الحكومة،فقد كان العطف على المانية ، ولا سيما بعد ان اثار بسمرك قضية البلجيك ومطامع فرنسة فيها ، وهذه القضية نفسها كان لها تأثير معارض سنة ١٩١٤ فجعلت انكلترة في صف أعداء المانية .

الفصل الخامس

السلك السياسي

١ — وزير الخارجية

يتألف السلك السياسي في سفاراته وبعثاته من رجال شتى سياسيين وعسكريين وبحريين وتجاريين ويلحق بهم القناصل والخبراء ، وتوزع في السفارات الاعمال بين مكتب سياسي ومكتب اداري ، ووزير الخارجية هو المرجع الاعلى لرجال هذا السلك وعماله .

وقد اشتدت الحملة في بعض الاحيان على السلك السياسي ولاسيما بعد الانقلاب العظيم الذي حدث في المواصلات ، ودعا الناقدون الى الاستغناء عنه وجعله نظاما لا يختلف عن النظام القنصلي ، واقترح الآخرون تسمية رجال هذا السلك بمرسلين ، ولكنه برغم التطور الذي حدث فانه لا يزال على حاله في علائق الدول وارتباط بعضها ببعض .

وقد قل في العصر الاخير الدهاة الافذاذ من رجال السياسة ، حتى في البلد الذي ينجبهم اكثر من غيره « انكلترا » . وقد تكون الاساليب الدمقراطية العامة سبباً لذلك ، والسياسة الخارجية تقتضي ان يكون العاملون فيها على الاسلوب القديم طليقة ايديهم ، ومهما كان من شأنها والتمسك بخططها فهل بقي من يعتقد انه من العبقرية قول بسمرك عندما نشرت مذكرات الامبرطور فردريك : اني واثق كل الثقة ان هذه المذكرات هي من صنعه ، ولكن اعملوا على تكذيبها ، وقولوا انها مدسوسة مصطنعة ، وانها افتراء شائن على الرجل الشريف ، واذا قام البرهان

على صحتها بعد هذا الاستنكار فانتقدوا مافيها من اغلاط وحماقات . وهل بقي ايضاً من يضحك اذا سمع بسمرك نفسه يتحدث ، عندما اراد ان يقيم البرهان على عجز الامبرطور فردريك ، ويذكر انه اطلعه مرة على معاهدة الحياد التي عقدت بين روسيا والمانية في حال وقوع حرب بين روسيا وانكلترة ، فقال له : لابد انكم اطلعتم انكلترا على ذلك وانها وافقت!

ثم ان منطق الحرب في جملته غير سياسي ، وهو يحل المشاكل بقوي المحاربين وعددهم ، وقد ثارت حروب في القرن الاخير لاسباب كان باستطاعة مندوب مفوض ان يحلها في القرن السابع عشر ، وعقل الجماهير غير منطقي ، ومحاولة السياسة ان تشاطره ميوله واهواءه تدل على ضعف نفوذها وتأثيرها ، على ان اكبر رجال السياسة الذين لايهتمون لشيء لايسلمون احياناً من الخضوع للظروف ، فرجل مثل تليران في دهائه وبراعته في تحقيق مايريده ، لم يكن من دعاة التوسع وبسط السلطان ، ومع ذلك فقد وصى سنة ١٨٠٨ مجاراة لبعض الاراء ، باحتلال قطلونية كما اوصى في سنة ١٨٣٤ بامتداد ملك فرنسا الى الرين ، وذلك في ساعة من ساعات الضعف الطارىء ، والعجز عن المقاومة ، التي يقع فيها السياسي عند اضطراره لمراعاة بعض العوامل المؤثرة في مساعيه ، سواء اجاءت من عناصر الامة ام من قيادة الدولة .

والطابع الذي يطبع به وزير الخارجية سياسة بلاده ينبغي ان يكون صورة حقيقية لنيات الحكومة ومقاصدها ، ويتحتم عليه ان يختار احسن الاساليب ويتفق عليها مع حكومته حتى يبلغ افضل الغايات في خدمة مصالح الدولة والوطن ، ولا يكفي ان يكون عارفاً حق المعرفة بمدعيات دولته وحقوقها وواجباتها وقواها واستعداداتها ، وما ضمنته لها العهود والعقود ، بل عليه كذلك ان يعرف الوسائل المادية والمعنوية للدول التي بينها وبين بلاده روابط وعلائق .

وقد كتبت ماري ترز سنة ١٧٧٤ الى الكونت ارجنتو تقول له انها تعتمد عليه في القيام باعباء وزارة الخارجية ، فكتب اليها : انني فكرت كثيراً واقتنعت

كثيراً بان من اصعب الاعمال تدبير سياسة مملكة عظيمة ، فانها تستلزم معارف واسعة في صميم الاشياء، وفي الشكل الذي يجب ان تكون عليه ، وتتطلب رأياً واسعا وصدرا رحبا ومنطقا صحيحاً ، حتي يدرك جميع التقارير ويؤلف بينها ، وتقتضي كذلك جهداً مستمراً حتى يقف على سير الامور بترسم الآثار وترقب الحوادث واتخاذ الوسائل لادارة عماله .

وفي الحق ان المزايا التي يجب ان يتحلى بها وزير الخارجية هي كثيرة الاختلاف والتفاوت ، والاعمال التى يقوم بها تدل على تمكنه في الفن الدقيق الذي هو تدبير سياسة امة ببراعة واتقان ، ومن الصعب ادخال الصفات المبتغاة تحت حصر واحصاء ، ففي الامور الخارجية — كما قال مارتنس في كتابه الدليل السياسي — لا يمكن تحديد شيء ولا الاكراه على شيء ، وهي تقوم على الطلب والرجاء والمفاوضة ، واقل كلمة في غير محلها قد تؤذي شعباً باسره ، والمسعى الخاطىء والحساب الباطل واتخاذ الخطط بحسب الصدف قد تحط من كرامة الحكومة ومصلحة الدولة .

ووزير الخارجية كرئيس للسلك السياسي يستدعي السفير متى اراد ، وللسفير كذلك ان يطلب المقابلة ويعني في طريقة اثارة البحث ، واذا كان ذلك بتكليف من الحكومة فسبب البحث ظاهر ، وكثير من الصفات التي تطلب من وزير الخارجية تطلب كذلك من السفير ، كتبادل الثقة واجتناب الدسيسة وحسن التصرف في تمويه الحقيقة وتحاشي الاخبار السيئة ، وفي الصمت والنظر ، وعدم الافراط في تقدير وجود الدسائس والمكائد ، وهدوء الاعصاب حتى في المناقشات الشديدة التي يظهر فيها فضل الرجل الذي يستطيع ضبط نفسه على الرجل الذي لا يستطيع ، واجتناب الغضب وكل ضعف انساني يخرج الرجل عن طوره ، ويحمله على الاباحة بمكنون سره ، وينبغي على السياسي ان يفصل بين شعوره وبين الامور التي يعالجها مهما كانت العواطف الوطنية التي تملأ قلبه ، بل انه ليقال ايضاً ، وان كان في ذلك اثارة واغضاب لحماسة الكثيرين ، ان افضل سياسي ليس هو الذى ينقاد الى قلبه ، بل الذى ينقاد الى المنطق الهادىء ويتساءل ماذا يستطيع ان يناله وماهو سبيل

الوصول اليه ، والسياسي الذي يستنكر كل مظلمة او ما يرى انه مظلمة ، لا يستطيع ان يبقى هادئاً ويخسر في احاديثه واعماله .

ولما كان التمكن من النفس ليس من صفات كل انسان وطبائعه ، فعلى من يريد ان يكون جديراً بالعمل السياسي ان يسعى لمراقبة نفسه والتغلب عليها ، واذا عز عليه ادراك ذلك ان يصبر في انفاق الجهد وبذل العناء حتى يناله مع الزمن ، وليس معنى ذلك ان السياسي لا ينبغي له ان يصغي لعواطف قلبه ولكن هذا الاصغاء قد لا يفيد العمل الذي يقوم به اذا لم يضره ، ومن الواجب ايضاً تحليل نفس المخاطب ومعرفة ما يؤثر به . فان من الاشخاص ومن الشعوب ما يمكن ان يعامل بعنف ، ومنها ما يستثار بكل محاولة عنيفة ، والخطأ في المرمى قد يعقبه ضرر لا يمكن تلافيه ، ويجب في الامور الكبرى الاعتناء بالاستفادة من الفرص السانحة اكثر من الاجتهاد في احداثها ، فرشليو وبسمرك لم يملكا الفرص ولم يخلقا الظروف التي مهدت السبيل لنجاح خططهما ، ومعرفة الممكنات وادراك الحقائق هي من الصفات التي لا بد منها في المفاوضات والمحادثات السياسية ، والحياء محذور كبير ، والشجاعة السياسية لازمة كالشجاعة الخلقية والادبية .

ووزير الخارجية الجدير بهذه المهمة الخطيرة يستطيع ان يقود المساعي والمفاوضات نحو الغاية السياسية الموضوعة ، فيهدي الرجال السياسيين بخططه وآرائه ، ويراقب اعمالهم حتى لا يخرجوا عن النظام ، ويطلعهم على ما يجري من الشؤون التي تؤثر في مصلحة البلاد ، ويرسل اليهم حيناً بعد حين وصفاً موجزاً للموقف الخارجي حتى يكونوا على بينة من سياسة الحكومة ومقاصدها .

ولوزير الخارجية مهمة مزدوجة مرتبطة من ناحيتيها ، فهو مرجع سياسيي دولته ومرجع سياسيي الدول الاجنبية في بلاده . وهو يعالج الشؤون ... السياسية في الغالب بالمحادثات الشفوية ، وليس ذلك لان الحكومات تريد ان تتخلص بها حين الحاجة من العهود المكتوبة بل لانها تريد ايضاً اجتناب الوثائق التي يطلع عليها الآخرون ، وقلما تسجل المباحثات السياسية مع وزير الخارجية

وذلك بعكس العقود والاتفاقات والاعمال الادارية التي تسجل وتودع في بطون الصحائف والدفاتر .

وعلاقات السفير مع وزير الخارجية ذات اشكال شتى ، فمنها ما هو رسمي وما هـو شبه رسمي وماهو مؤتمن وسري وخاص ، وما هو لتنفيذ الاوامر والمناقشة بالشؤون الجارية والمسائل الادارية والمفاوضات السياسية والاقتصادية واستطلاع الانباء والمحافظة على حسن العلاقات ، وهنالك مسعى ومطلب وتصريح وتبليـغ وابلاغ واحتجاج ، وعلى السفير ان يستمر في العلاقات الحسنة مع وزير الخارجية، وان لايقاطعه مهما تحرجت الحالة بينهما ، وان يحسن اغتنام الاجتماعات الاسبوعيـة او الاجتماعات الخاصة والعامة لمعرفة ماريد الاطلاع عليه ، اذ لايستحسن ان يكتب الى الوزير يسأله رأيه عن حادثة او ثورة،ولكنه يستخرج ذلك في اثنـاء مجاذبته الحديث ومخاطبته اياه ، وقدقال تليران عن وزير الخارجية كلمة تنطبق على كل سياسي وهي : يجب ان يكون عند وزير الخارجية شيء من الفطرة والملكة ، يحذرانه بسرعة ويمنعانه قبل كل محادثة من الوقوع في مشكلة .

ولا بد في بعض الاحيان من الالتجاء الى الكتابة ، فالاحتجاج مثلا يكون حينئذ اكثر تأثيراً ، على ان اختيار هذه الطريقة غير تابع لمبدأ معين، ولكن عندما تقضي به الظروف ، وقد تفتر العلاقات بين وزير الخـارجية وبين السفير فيلجأ حينئذ للمكاتبة ، على ان هذه الحالة لاتكون الا موقتة،فاما ان يتلوها استئناف العلاقات واما انقطاعها ، ومن المجمع عليه ان يتفق مع الحكومة على هـذا الامر وقد يستلزم الغياب او المرض الكتابة ، وكذلك خطر المسعى الذي يقوم به السفير لدى الوزير ، وماينتظر ان يكون من تأثيره عنده فيطالعه عليه او على بعضه كتابة بعد استئذان الحكومة في الغالب ، وذلك املا بان يكون اكثر استعداداً للتفاهم بعد الكتابة اليه .

ويغلب ان يبقي السفير للوزير بعد الحديث مذكرة (على انواعهـا) لتأييد ماقاله في حديثه ، وذلك خاصة في المسائل المعقدة التي تدعو الى سوء التفاهم ،وهذا

مايسمى بالوسائل المختلطة ، وتكون الوثيقة المكتوبة ملحقة ، اما اذا قدم السفير وثيقة بامر حكومته فحينئذ يكون الشرح الذي يلحق بها مضافا .

والعلاقات الكتابية تأخذ صيغاً شتى ، فالمذكرة يخاطب بها الوزير وتحتوي على صيغة المجاملة الختامية ، وقد تكون بصيغة الشخص الثالث ، والمذكرة الشفوية لاتوقع ولابأس من احتوائها صيغة المجاملة ، والمذكرات والخواطر في صيغها الاخرى لاتوقع ايضاً واسلوبها مختصر مجرد ، وقد يضاف الى هذه المذكرات انها بامر الحكومة لتعزيز مافيها ، على ان هذا من الفضول والزوائد ،لان ما ارسل يكون بامر الحكومة ، وقد تضاف كلمة سري حين الحاجة ، ويجب ان يكون مايكتب واضحاً محدداً مهذبا بعيدا عن الجفاء الذي هو مغاير للقواعد السياسية والمجاملة ،والالقاب ضرورية، والشؤون المهمة السياسية تعالج بمذكرة موقعة ، والرسائل الخاصة توضع في الشكل الذي تقتضيه العلاقة بين المتراسلين .

٢ — السفراء

السفير يقوم بمهمة تمثيل بلاده ، فينبغي عليه ان يكون رسول سلام ، وان يجعل شخصه قريبا من القلوب بمظهره وكلامه واساليبه ، وهو لاينال ذلك الا بتربية صحيحة وثقافة عالية ولهجة انيقة وعشرة طيبة ، فيحافظ على كرامته بدون زهو وصلف ولكن باباء وترفع ، ويكون حسن البزة ولكن بغير تكلف ولاتصنع ولا اغراق ، وتختلف الحاجة الى المظاهر باختلاف البلاد التي يكون السفير فيها واختلاف اوضاعها ، وعلى كل حال فانه لايجوز الافراط الذي ينقلب الى حد الهزء والسخرية .

والسفير الذي يمثل سياسة الفضيلة عنصرها المميز عليه ان يكون في حياته الخاصة بعيدا عن كل مايدنسها ، فهو عرضة للمراقبة ، وهو مضطر الى اجتناب كل مايسيء الى سمعته ، وكما تنفعه السيرة الحسنة فانها تنفع بلاده ، لان العالم يألف

التعميم ، وهو بذلك يكون ايضاً مؤثراً في معاونيه ، فلا يعجز عن مراقبتهم ، ولايكون قدوة لهم بعمل سيء ، واذا استعمل السفير الدهاء والحيلة في بعض حاجاته فينبغي عليه ان لايخرج عن شروط الرجل الشريف ، والحيلة تدل في الغالب على ان الرجل قليل الرأي ، ضعيف التدبير ، واصحاب الاخلاق الكبيرة يتنزهون عنها .

وعلى السفير ان لاينصب نفسه للدفاع عن قضية البلاد التي هو فيها ، ولا ان يقاومها بكل مالديه من روح المقاومة والمعارضة ، وهو في البلاد المحمية — مهما كانت درجته — ينبغي ان يكون مضاعف البراعة ، وان يحسن التفريق بين الدولة الحامية والبلاد المحمية ، وعليه ان يتمسك بما يعد به ، فما قيمة سفير اذا اصبحت كلماته تعد باطلة ووعوده كاذبة ، وضميره ساقطا ، وعليه ان يجتنب المفاجأة والكبرياء ، وان لايضايق محدثه بمحاولة اظهار براعته ، والادلال بصحة رأيه ، ومن مقتضيات الحذر الاصغاء برفق وتواضع لحجج الآخرين ، وعدم التشبث المطلق بحجة ، وعندما يريد الاعتراض على رأي فيجب ان يحمل الى المناقشة انصافا وعدلا مهما كانت القضية التي يدافع عنها حقا ، فلا يشعر احد بتحامل على رأي يبديه ، ولا بأس من التسليم احيانا في بعض الامور لاستمالة المحدث ، ثم الاستئناف بعد ذلك للوصول الى الغاية المطلوبة ، وينبغي اجتناب الافراط في الحماسة او في البغضاء ، والحذر كل الحذر من قلق النفس الذي يعطل العمل ويحرم من الصبر والدأب ويغفل دواعي النجاح .

ومهما كان الرجل الذي يراد اقناعه فينبغي حسن العناية به والالتفات اليه ، وكلمة طيبة في محلها تصلح من الامور اكثر من جواب عنيف او طلب مثير ، ويجدر بالسفير ان لايكون كثير الانطلاق وان يظل بعيداً في فكره قريبا في نفسه ، والتواضع السياسي ، وان كان تظاهراً في بعض الاحيان لتحقيق بعض المآرب ومعرفة بعض الامور ، يحمد اثره اذا لم يكن مقرونا بالمبالغة ، واجتناب الغضب يجعل المرء متمكنا من نفسه فلا تبدر منه بادرة تثقل كاهله او كاهل بلاده ، كما

وقع لبتمن هولوغ عندما وصف حياد البلجيك بانه قصاصة ورق ، ويطالب السفير باحترام الشعائر الدينية مهما كان مذهبه ، وان يتقيد في الاتصال بالذين يتهافتون عليه منذ وصوله ؛ فقد يكون هنالك اشخاص لاقيمة لهم واشخاص محرضون، والنهالك على تغيير كل شيء لاتحمد عواقبه ، فينبغي السير هوناً في التجديد والاصلاح ، واذا لم يكن حسن التصرف فطريا فالطبيعة تساعد على نموه ، على ان حسن التصرف السياسي يحتاج الى مواهب خاصة ، والشيء الذي يسمى حسن تصرف هو نوع من الذوق ، وهل يحتاج مثلا سفير اليونان لبلاغ من حكومته حتى يمتنع عن المشاركة بالاحتفال في يوم فتح القسطنطينية ؟ وهل يجوز ان يتمسك السفير بيوم حدده للسفر اذا كان هذا اليوم يوم حفل عظيم ؟ والسفر مثل هذا اليوم قد يؤول بانه احتقار للبلاد التي فيها السفير اجراه بأمر من دولته ؟

وهنالك امور لاتزال موضع الجدل والمناقشة فيما يتعلق بجواز مايصنعه السفراء او عدم جوازه ، كالكذب والافساد والتجسس والرشوة، وقد كانت تتناقل الالسن فكاهة مشهورة وصف بها سفراء البندقية ، وهي ان السفير رجل شريف ارسل الى الديار الاجنبية حتى يكذب باسم الجمهورية ، وقيل ايضاً مثل ذلك عن السفير بانه يتجسس لدولته بصورة رسمية .

ولم يكن مكيفلي ومن حذا حذوه يشاركون اصحاب الاديان والمعتقدات في استنكار الكذب واعتباره من الكبائر ، لانه في نظرهم لايجوز البحث والمناقشة عندما تكون سلامة الدولة في خطر ، فالعدل والظلم والرقة والقسوة والمحمود والمذموم كل ذلك لاشأن له .

وقد تكون الحقيقة كالذهب تمزج احياناً ببعض المعادن الخسيسة لتتقوى بها. والتعريض والتمويه ليسا ببعيدين عن الكذب ، وهما مستنكران في حياة الرجل الخاصة ، ولكنه عندما يصبح في الحياة العامة فان له وجه العذر بالالتجاء اليها ، وقد يستحيل تدبير شؤون الدولة تدبيراً حسناً بدون اتقان التمويه والتعريض اللذين هما من صفات الذين يتصدون للحكم ويعتبرون اهلا له ، وهل يوجد من يلوم

الطبيب اذا جعل المريض يؤمل الشفاء ، او قائد الجيش اذا نشر البلاغات المموهة، وقد لا يكون بد من الكذب احياناً لبث روح الشجاعة والقوة في الجيش، ولكن ما اعظم وانبل الذين يستطيعون ان يقفوا امام الحقائق ولا يحتاجون الى تحريفها حتى يقوي الجيش على مقاتلة العدو ، على ان الصمت يكون في بعض الاحيان منجاة لاصحابه من قول الباطل او من التعرض للخطر بذكر الحقيقة .

اما الافساد واستخدام الجواسيس فهو من الضرورات المزدراة ، على انه هل يعذر سفير اذا قام بشر امره بهرئيسه ؟ وهل يجوز له ان يتدخل في سياسة محلية ويعارض الدولة التي هو فيها ، واذا كانت مهمة السفير خدمة بلاده لا خدمة البلاد التي هو فيها او دفع الضرر عنها ، فانه يقتضي مع ذلك اذا كلفه سيده بامر ان يحذره قبل ان يطيعه ، وان كان الرفض به اجدر ، والتحريض على الجريمة اكثر شراً من ارتكابها ، وتقدر الامور بقدرها في حالات يرجى فيها اجتلاب خير أو شر .

اما المال فقد كان فليب المكدوني يقول انه يفتح كل حصن مغلق ، وهو عند المعاصرين ايضاً يوصل الى معرفة اسرار اي وزارة مهما كانت مكتومة ، وقد كانت الهدايا من العادات المألوفة عند الملوك والسفراء واعضاء المجالس العامة، ولكن الامر الذي يصعب تمييزه هو اين تنتهي المجاملة وتبدأ الرشوة؟ فعلى السفير ان يكون شديد الحذر في شئون المال حتى لا يصيب سمعته اذى ، ويجب عليه ان يأبى قبول هدية يمكن ان تؤول او ان تتخذ وسيلة لغاية ، حتى انه اذا استطاع ان يرد هدايا مواطنيه لكان ذلك خيراً له . وينبغي عليه ان يكون جواداً سمحاً ، ولكن بدون اسراف ولا افراط ولا محاولة للظهور بمظهر المتفوق على اصحاب الغنى والجاه في البلاد التي هو فيها ، فانه بذلك يؤثر فيهم تأثيراً سيئاً ، والتوسط في الامور ووضع الشيء في محله هو الفن السياسي كله .

ولما كان في مقدمة الاعمال التي يقوم بها السفير اطلاع حكومته على سير الامور ، فعليه ان لا يتهاون في الاستطلاع وتتبع الحوادث ومراقبة اتجاهاتها ، وان

يكون على اتصال مع جميع سفراء حكومته ، وان يعرف مايجري في بلاده وما يحتمل ان يجري فيها ، ومن وسائل الاستطلاع الاتصال بالملوك والرؤساء والامراء والوزراء وكبار موظفي الدولة ورجال الحكومة المتقاعدين ورجال المعارضة ورجال السلك السياسي ، واتخاذ المخبرين المؤتمنين ، ومراقبة الشؤون الداخلية بحذر واناة ، واقامة المآدب والحفلات ، وتأمل الاشياء والاشخاص ، والاستعانة بصدق الشعور والحكم الصحيح في الامور ، على ادراك الحقائق .

والصحافة وسيلة مهمة للاخبار ، سواء صحافة البلاد التي فيها السفير او صحافة البلاد التي ينتمي اليها ، ومهما كانت انباء الصحف تحمل الحقائق والاباطيل ولا يمكن تمييز بعضها من بعض ، فانه لايجوز اهمال شيء منها ، والاخبار المصطنعة تفيد فائدة كبرى لانها تكشف القناع عن روح التحزب عند الذين يخترعونها .

وسواء اكانت الانباء مرضية او غير مرضية ، فالذي يهم هو معرفتها في حينها ، وقد كان لويس الرابع عشر الذي يعد من كبار الملوك السياسيين قد حض سفراءه على موافاته بجميع الانباء سواء كانت حسنة او سيئة ، ولا يجب الاكتفاء بالمدح والثناء ، على انه يحسن اجتناب الانباء التي لاتفيد الا اثارة النفوس وتحول دون التفاهم بين الدول ، والافراط في الدفاع عن الشرف احياناً يجعله مشكوكا فيه ، وقد وقعت حادثة لسفير انكلترة في فرنسة في ايام حرب السبعين بقيت مكتومة ثلاثين سنة ، وذلك ان السفير قد قبض عليه بتهمة الجاسوسية ثم خلي سبيله ، وكان معه بعض موظفيه فامرهم بان لايفتح احد فاه بما وقع . ولا فائدة من ذكر الانباء التي لاشأن لها او ليس لها علاقة باعمال الدولة ، وعلى السفير ان يجعل برقياته موجزة معنياً بها ، محتوية على اشياء كثيرة في كلمات يسيرة وعبارات بالغة ، تمتزج فيها احياناً الاخبار والاحكام والآراء ، وقد اصبح مألوفا مزج المواضيع المختلفة في كتاب واحد .

وعلى السفير قبل كل شيء ان يمعن في درس شؤون البلاد التي هو فيها ، وان يمتحن بنفسه امورها ، وان يتصل بجميع الطبقات ويتحدث اليها ، ويتحقق اتجاهات

الرأي العام والقوى التي تتطور به ، ويحمل نفسه على الشعور بانه من البيت الذي دعي الى العمل فيه ، وان يألف البلاد ويتعرف طبائعها وعادات سكانها ، ويحرص على صنع الخير فيها ، وتجنب مايؤذيها في قول اوعمل ، وقد تكون مهمة السفير اصعب في بلاد منها في غيرها ، وذلك بحسب ماتستطيع كتمانه من شؤونها العامة وما تعرضه لانظار المراقبين لها .

ولا يجوز ان يعتمد في انبائه على الخونة ، ولكن على مقدرته في الملاحظة والاستطلاع ، وينبغي ان يكون على حذر من الجواسيس اذا لم يجد بداً من استخدامهم ، لان هذه الطائفة من الناس لاتبالي في سبيل المال أن تحمل انباء مخترعة ، حتى عند عدم وجود انباء ، ولما كانت صناعتهم تقصيهم عن ان تكون لهم ضمائر تحاسبهم ، فهم لايترددون في خيانة الذي يبذل لهم المال اذا وجدوا من يزيد في عطائهم وفائدتهم ، ولذلك لايجوز الركون الى قول يقولونه اذا لم يكن من المستطاع مراقبتهم والتثبت من انبائهم .

والسفير يعرف ماذا ينتظر منه بحسب البلاغات والاوامر التي لديه ، ويحسن ان ترسم له خطة قبل سفره ، وان تكون واضحة بينة لاتحتمل شكاً او تأويلا ، على انه بوجوده في مكان عمله يبقى له حق التقدير ، ويمكنه ان يجد من الدلائل والبينات ما لم يكن عند وضع الخطة اوعند واضعيها ، ومايجب ان يتقيد به متحملا مسؤوليته ، واذا كانت مهمة السفير تقتصر على نقل ما كلف به وحمل الاجوبة التي يتلقاها ، لاتبقى حاجة لان يكون حذراً او فصيحا ، ولا لبذل العناء في حسن الاختيار ، وكان كل انسان يستطيع ان يكون سفيراً ، والطاعة التي تطلب منه ليست الا للاوامر المعينة والمحددة ، والسفراء يجب ان يكون لديهم مجال واسع في العمل والتنفيذ والحكم والمراقبة ، وهم غير مكلفين فقط بالقيام بما يؤمرون ، بل يعدون رئيسهم ويهيئونه لما يرونه ، بما يطلعونه عليه ، واذا كانت المشاكل

مستعجلة لا يمكن الانتظار في امرها ، فعلى السفير ان يتبين ماهي مصلحة بلاده وان ينجز عمله بحسب الظروف التي تحيط به ، وفي هذه الظروف يمتاز الرجال القديرون ويتفردون بعظم الشأن والاثر .

وجملة مايقال ان في حسن ادارة الاخبار وتلقيها ، وملاحظة الاشياء والاشخاص ،والاستدلال بالوقائع والاحوال ،والجد في تسيير الامور وتمثيل البلاد ، يقوم السفراء بمهمتهم الخطيرة ، وقد كان يتوقف عليهم فيما مضى المحافظة على توازن الدول ، فكانوا هم المفاوضين العاملين في وضع المعاهدات التي كان بعضها ،مثل معاهدة وستفالية،من الحوادث الخطيرة في تاريخ العالم ، وقد اريد ان تقوم عصبة الامم مقامهم في تسوية خلافات الشعوب فاصابت بعض النجاح ، ولكنها لم تصل الى الغاية التي ارادها منها منشئوها ، وانتهى امرها بالعجز والفشل .

٣ — القناصل

كان القناصل في الماضي رجال تجارة، وكانت التجارة تسبق السياسة وتمهد لها السبل ، وكما قال منتسكيو فان الاعمال الكبيرة خاصة كان لهـــا مقام عظيم في الشؤون العامة ، والقناصل هم الرجال المقيمون في الديار الاجنبية للسهر على مصالح بلادهم ومصالح مواطنيهم ، وقد وصفهم تايران بقوله : ان خصائصهم تختلف اختلافا لاحد له ، وهم في الشروط التي قررت لهم يقومون بوظيفة ضابط الاحوال المدنية وكاتب العدل ، واحياناً بوظيفة القاضي والحكم ، واحيانا بوظائف بحرية ومراقبة الامور الصحية في السفن ، وهم كذلك بعلاقاتهم الممتازة يمكنهم ان يحملوا فكرة عادلة صحيحة عن التجارة والملاحة والصناعة في البلاد التي يقيمون فيها ، ويفيد القناصل بما يبدونه من الآراء تجار البلاد التي ينتمون اليها وارباب المصانع فيها ، والجمهور يطلع على التقارير التي ينشرونها .

وقد قررت المحاكم الفرنسية في اجتهادها اعتبار القناصل موظفين عامين ،

ولكنها رفضت لهم صفة التمثيل التي ليست الا من حق رؤساء البعثات السياسية والسفراء والوزراء ، وهم لايتلقون كتب اعتماد من حكوماتهم ولكن كتباتعترف بهم ، ولا تمكنهم القيام بوظائفهم مالم تمنحهم الحكومات التي يعينون بهـا صفة التنفيذ من غير ان يكون لهم صفة سياسية ، ماعدا بلادالشرق فقد كانوايتمتعون فيها احياناً بهذه الصفة وبما يترتب عليها .

وعلى كل حال فانه ينبغي الاعتماد على القناصل والثقة بهم ، وان كانوايسرفون في الغيرة على مصالح المواطنين الذين يعيشون بين ظهرانيهم ،ويحسبون ان كرامة بلادهم معرضة للاهانة في الصغيرة والكبيرة ، وهذا النوع من الاسراف هو الذي اتفق على استنكاره اقطاب السياسة مثل تليران وبسمرك وتيير .

الفصل السادس

المهمات السياسية

١ — المفاوضة

يظن اصحاب العقول البسيطة ان السياسة ليست الا مظاهر تضحك بالمفاخر، على انها تعرض للذين يعالجونها كبحر لجي تلتقي فيه معارف كثيرة وصفات ممتازة واخطار شديدة واتجاهات متباينة ، فلا بد لها من كثير من مزايا القلب والفكر التي هي قوام العمل وسر النجاح ، والاسلوب يحتاج كذلك الى نفس المحاسن ، فالبرقيات والبلاغات والبيانات تمتاز بما فيها من تحديد في التعريف ونظام في الشرح ولباقة في بيان الاسباب، ولهجة صادقة لا يريد صاحبها التأثير بالمبالغات ولا بانكار الوقائع او تحريفها .

واذا كانت صناعة الحكم هي صناعة التسديد والتقارب والتفاهم ، فصناعة السياسي هي فرع من صناعة الحكم ،لان كل عمل سياسي ينتهي بالمفاوضة ، ومعنى المفاوضة التفاهم والتقارب ، وبذلك يرى مدى الفرق بين السياسة والشرائع ،ففي السياسة يعنى كل العناية بسير الوقائع والرأي العام ومقتضى الضرورات وماينشأ من آثار بعيدة لخطة او عزيمة ، وقد يحتمل شر لاجتناب شر اكبر وينحنى امام خطر لدفع خطر اعظم ، كل ذلك نتيجة اسباب لا ترجع فقط الى النصوص لان العلاقات السياسية غير العلاقات الشرعية ، ولما كانت سياسة الاتفاق والتفاهم تخيب بها احيانا آمال فريق من الناس ، فان بعض الشعوب التي تشتمل نفوسها على شعور التمرد والعصيان ، لا تخضع مرتاحة الى التساهل ، الذي يضطر رجال السياسة ان يقوموا به مجاراة لضرورات الزمان حتى يصلوا الى غاية مقصودة.

وقد تأصلت، خاصة عند الافرنسيين، عادة الشعور بانهم يغلبون دائما في المفاوضات، وليس ذلك في عهودهم الحديثة فقط بل في عهودهم السالفة ايضا ، ففي اواخر القرن السابع عشر مثلا قال راسين من خطبة له في المجمع العلمي بعد ان تنازلت اسبانيا لفرنسا عن بعض المقاطعات : لقد كانت فرنسا في الماضي كثيراً ماتؤخذ باساليب جيرانها ، وبقدر مايكون الحظ مواتيا لها وتكون مخوفة الجانب في الحرب بقدر ماتخسر في معاهداتها السلمية ، فاسبانيا، وخاصة اسبانيا عدوتها الابدية، تفاخر بانها في في اسعد ايام فرنسا كانت تبرم معها المعاهدات لخيرها ، وكانت تربح بخطة قلم ما اضاعته في معارك كثيرة .

وكان راسين يترجم بذلك عن آراء اهل زمانه ، ولكن رجل السياسة يحسن صنعا عند الدخول في مفاوضة بان يكون اقل اهتماما برأي الجماهير ، وبان يكون الصبر عدته، ويحافظ على الشيء الكثير من الكتمان الذي يحتفظ معه بتجربته وصدق حسه ، فانه لايوجد شيء اكثر مدعاة للبغضاء عند اي رجل كان من فقدان الحس الصادق ، والذي يلحق الرجل السياسي من هذا الذم يكون اعظم لان صحة الحكم من اكبر مزاياه واوثقها ، وهو يجتنب بفضلها الاساليب الخلابة، ويحمل في مفاوضته شعور الحقيقة التي يفتقر اليها كثير من رجال الدولة .

والسياسة ترمي الى التوفيق بين الحوادث الطارئة وبين القواعد الثابتة التي تحكم على مصائر الشعوب ، وهذه القواعد كائنة وليس بمقدورنا تغييرها ،ومصالح الشعوب كذلك لاتتغير ، فالطبيعة والوضع الجغرافي واخلاق الشعوب كلها عظيمة التأثير ، والثورات نفسها لاتؤثر في السياسة فكيف بما سواهـا من التطورات الداخلية ، فالسياسة الاستعمارية مثلا تستلزم سياسة بحرية ، ولكنها بذلك تنقاد اما الى الاتفاق مع الدول البحرية او الى معاداتها ، وقد كان غليوم الثاني منطقيا مع نفسه حينما كان يقول : ان مستقبل المانيا فوق البحر ، ولكنه لم ينظر الى ما يجره ذلك على العلاقات التقليدية بين انكلترة وبين المانيا .

واذا كانت صناعة الرجل السياسي تتوقف على حسن اغتنام الظروف فليس

حسن انتظار الزمان باقل ضرورة لادراك النجاح ، فالريح لاتكون دائما مواتية، وينبغي ان يدور معها المرء حتى يبلغ غاياته ، وكان يقـول بسمرك : السياسة في ارهاف السمع لتلقي الانباء، وفي معرفة انتظار الزمان ، وقد ذكر السفير الفرنسي جول كمبون انه في اثناء مفاوضات طويلة في برلين كان الرأي العام هائجاً في فرنسة وفي المانيا ، فاستحث وزير الدولة كيدرلن للبت والانتهاء ، فاجابه هـذا الرجل الذي كان معروفا بمفاجآته والذي كان يخفي تحتها كثيراً من البراعة : دعهم ومـا يقولون . انك تريد الانتهاء وانا كذلك ، ولكن لنستفيد من الزمان في التغلب على شعور الكرامة ، فما كان مستحيلا بالامس اصبح صعباً في هذا اليوم ، وسيستقبل غداً بالارتياح ، ولكن هذا الارتياح لم يكن طويل الامد ، وهدوء النفس لم يكن ذلك السلم المرتجى ، على انه كان خيراً وان كان قريباً من الزوال .

ومن حق الرجل السياسي ان يسعى لاحراز النجاح ، ولكن عليه ان يجتنب السعي ليكون نجاحه باهراً ، فالنجاح عبء ثقيل في بعض الاحيان ، ولاشيء اشد خطراً من اثارة شعور الكرامة الغافل ، والسياسي في بعض الاحيان ينبغي ان يعرف كيف يختفي ويتوارى ، فالحكومة التي هو معتمد لديهـا تزداد في تقدير حذره ، وحكومته نفسها تزداد مبالغة في الثقة به ، والمفاوض البارع لايعمل على ادراك النجاح بالوعود الكاذبة والخدع الغرارة والعهود المنقوضة ، فمن الخطأ ان يظن ، كما هو الوهم السائد ، ان الوزير البارع ينبغي ان يكون استاذاً في الخداع فقد يستطيع المرء ان يخدع الرجال بالدهاء والعبقرية ، ولكن اذا لم تعتمـــدا على الاستقامة والامانة فانهما تصبحان ادوات خطرة ، والخداع هو احـدى وسائل النفس الصغيرة الذى تلجأ اليه ، وهو دليل على ان هذه النفس ليس لديها كفاية من الاتساع بحيث تصل الى اغراضها بالاساليب العادلة المنطقية ، ومع ان الخداع لايبلغ من كل نفس هذا المبلغ من الاحتقار والازدراء ، فان المفاوض يدعى لمعالجة مشاكل مختلفة ، ومن مصلحته ان يكون حسن السمعة وان يوحي بالثقة ، ومن السهل خداع المرء الذي يفكر بخداع الآخرين ، ولو ان الخداع لم يكن مكروهاً

بذاته لوجب على الناس اجتنابه ، وقد اختصر جول كمبون تجاربه الطويلة بقوله: ان كلام الرجل الشريف يظل ابداً احسن اداة تستخدمه حكومته لتأييد وجهة نظره .

وفضيلة الكتمان التي تلزم المفاوض قبل كل شيء هي واجب محتم لامرين : احترام المفاوض رئيسه واحترامه زميله ، وكل محادثة بين رجلين لايستطيع احدهما ان يستقل بها عن الآخر ، واذاعة امر بين الناس يعرضه لخطر الفشل، وفي الوقت الذي لاتحاط فيه المفاوضات بالكتمان لاتبقى هنالك مفاوضات ، لان عوامل كثيرة شخصية وعامة تفسد العمل حتى يحرف عن مواضعه ويعرف قبل اوانه ، لانه تلوكه السن الجاهلين والمفسدين ، والتجرد كالكتمان في مقدمة مايجب ان يتحلى به المفاوض من مزايا ، وبدون هذه الصفة فان اكثر الناس دهاء يكون اعظمهم خطراً وكل رجل مغلوب على نفسه فانه لايجوز ان يقوم بمهمة المفاوضة ، فانها تجمع كثيراً من الاسباب التي تستهوي النفوس وتقود الى الجرائم ، وصناعة كهذه الصناعة مشتملة على مثل هذا الخطر ، لاغرو اذا كانت تستلزم كثيراً من التجرد عن الهوى .

وقد يعلل المرء نفسه بانه جدير بالمكافأة على مايبذله في سبيل بلاده ،وما يمتاز به من صفاء ضميره واخلاص قلبه ونقاء كفه ، ولكن بذلك يتطلب مكافأة على ما يقوم به من واجب نحو وطنه ، الذي له حق عليه بكل ما اولاه من نعمة وكرامة ، والمفاوض هو الامين الذي القت اليه بلاده مقاليدها وسلمته امورها واودعته اسرارها وخزائنها فعليه ان يكون اهلا لذلك ؛ وكل رجل يدخل في السياسة وهو منقاد الى مطامعه وشح نفسه ، والرغبة في ان يدرك من المنافع ماتأباه الاخلاق والمكارم ، وما لايأتي عن طريق النجاح وشعور الاحترام ومكافأة الرؤساء ، لايكون ابداً الا رجلا ضئيلا ، واذا نجحت بعض المفاوضات المهمة على يده ، فلا يسوغ ان يعزى ذلك الا الى الصدفة الملائمة التي مهدت لها المصاعب .

ولم تعد كتب مكيفلي كافية لتكوين المفاوض واعداده ، فقد يستفيد من

اسفاره ورحلاته ، وهو في سن يحسن معها التأمل والتفكر ، فيتتبع احوال كل حكومة ، ويضيف الى مالديه من المعارف العامة ماينير سبله . وما يجعله اكثر علما وفهما ، ولكن من غير ان يحتقر سواه من الذين لايعرفون معرفته ولايفهمون فهمه ، والرجل المسؤول عن الشؤون العامة عليه ان يؤثر العمل لا ان ينقطع الى غرفة درسه ومطالعته ، والذي يراه الرجل السياسي في دروس الحياة اكثر مما يراه في كتب الذاهبين الاولين ، وينبغي ان لاتغيب عن خاطره اهمية الصناعة التي تهيء مايبهر الانظار ، من حوادث الحرب والسلم والاصلاح والتحالف .

٢ — كيف يبعث السياسيون الحرب؟

وضع المستر نلسن ، وهو نائب انكليزي سابق ، كتاباً اودعه ملاحظات صريحة على اساليب السياسيين في اثارة الحروب ، ولاسيما فيما يتعلق بحرب سنة ١٩١٤ ، التي كان يحتمل انتهاؤها بعد معركة المارن باتفاق وتسوية . فيكون سلم بدون انتصار ، وهو خير من الانتصار الذي تم سنة ١٩١٨ ولم ينشأ عنه سلم وخاصة بعد تلك الخرائب التي ابقتها المعارك والمصائب التي نزلت بالامم .

وكان رأي المؤلف في السنين التي سبقت الحرب خلافا لجمهور مواطنيه ، فهو يعتقد ان السياسة السرية المخادعة التي كانت تهرب فيها انكلترة من الاتفاق مع المانية ، هي التي قادت الى الحرب ، ولا سيما الاتفاق الذي جرى بين فرنسة وروسية والتقارب الذي تم ايضاً بين هذه الدولة وبين بريطانية العظمى ، وقد استشهد بحوادث كثيرة وذكر ان لويد جورج نفسه القى خطبة في منشستر سنة ١٩٢٢ قبيل استقالته ، عد فيها اساليب السياسة القديمة مسؤولة عن الحرب العظمى ، ولا يجد هذا المؤلف في رجال السياسة الذين عرفهم كثيراً في اواخر القرن التاسع واوائل القرن العشرين من يستحق المدح والثناء ، الا رجلا واحدا وهو كامبل بنرمن رئيس وزراء بريطانيا العظمى .

وذكر ان اتفاق انكلترة وفرنسة في شأن مصر ومراكش كان السبب الاول في اثارة الحرب العظمى ، واورد ماقاله بلمرستن سنة ١٨٥٧ : اننا لانريد شيئا في مصر ، حتى اذا تركت لنا مقابل التخلي عن مراكش لفرنسة ، ان هـذا العمل يغضب الانسانية ويستفز شعورها .

وقد كتب بلمرستين ايضا في هذه السنة يقول : ان حمل الامبرطور نابليون الثالث على العدول عن خطته في افريقية ، كلما كان سريعا كان خيراً وابقى ، وقد تستطيع فرنسة وانكلترة وساردينية ان تحكم بعض اجزاء الارض افضل مما هي محكومة به الان ، ولكن التحالف الانكليزي — الفرنسي لايستمد قوته من مقدرة الدولتين العسكرية فقط ، بل كذلك من المبدأ الاخلاقي المؤسس عليه هذا الاتفاق ، الذي يرمي في برنامجه الى مقاومة الطغيان ، والدفاع عن الضعفاء ، والمحافظة على التوازن ، فكيف اذن نستطيع ان نتحد لنصبح جائرين في الاعتداء؟ ونجعل من افريقية بلادا نقتسمها كبولونية ، فنمنح مراكش فرنسة وتونس سردينية ومكانا آخر إنكلترة ، وكيف ان انكلترة وفرنسة اللتين ضمنتا سلامة الامبرطورية العثمانية تنتزعان مصر من السلطان ؟ ان عملا كهذا يثير العواطف الانسانية والمبادىء الاخلاقية ويطوح بكل حكومة انكليزية تجرأ عليه ، وقد يقضي التوازن الاوربي بمنحنا مصر ولكننا لانريد هذا العبء ، وان كان بمقابل منح مراكش لفرنسة ، فلنحاول اصلاح هذه البلاد كلها بتجارتنا واعمالنا ، ولنجتنب الدخول في حرب فتوحات تعرضنا للوم جميع الشعوب المتمدنة .

واي ذكرى تثير كلمات بلمرستن بعد اتفاق ١٩٠٤ ، فان احد الذين خلفوه وهو ادوارد غراي قال في خطبة له : انه من الحق انعام النظر قبل عقد اتفاق ممكن الدوام مع اي دولة كانت ، والتحالف الذي كان موافقا اليوم يصبح ثقيل العبء في ظروف اخرى ، واذا ما عقد تحالف اعتباطا فانني اخشى ان تكون هذه البلاد قد اخذت به على عاتقها مسؤوليات تستوجب الاسف ، غير ان الرجل الذي صدر عنه هذا الكلام وهذا التحذير لم تنقض عليه الا اشهر قلائل ، حتى

وافـق على اقتراح باريس بمفاوضات الخبراء العسكريين التي كانت من مقدمـات الحرب .

وكانت قضية البلجيك السبب الذي ادعت به انكلترة لدخول الحرب،ولكن كثيراً من البريطانيين انفسهم الذين درسوا القضية نظروا في وجوهها لم يكونوا يعتقدون الاعتقاد كله بذلك ، فقد ذكرت التيمس بعد اعلان انكلترة الحرب في ٢ آب : ان شرف بريطانيا ومصلحتها يجمعان بينها وبين فرنسا في عمل مشترك ، حتى لو ان المانيا لم تنتهك حياد البلجيك .

والسياسيون يستبيحون ويعنمون على حسب مايتراءى لهم ومايتأثرون فيه من العوامل الطارئة والمصالح الخاصة المختلفة ، وقد كان يقول اللورد كوابر ، احد وزراء المالية السابقين في انكلترة : نحن في ايدي عصابة من محـترفي السياسة والقواد وصنـاع السلاح والصحفيين ، وكلهم يطالبون بالاكثار من السلاح ولا ينفكون يخترعون الاساليب المخيفة لارهاب الشعب والوزراء ، والحماقات التي ترتكبها ساسة الدول ورؤساؤها يتحمل وزرها الشعوب — كما قال كارليل — الذي كان يتمنى ان تزول وزارات الخارجية ويزول كل شيء فيها .

واذا كان انتهـاك حياد البلجيك استثار بريطانيا وجعلها تنادي بانها لم تغضب الا للحق والعدل وحرمة المعاهدات ،فقد مرت بتاريخ بريطانيا مثل هذه الاحداث ولكنها لم تغضب مثل هذا الغضب ، فقد كتب الملك ليوبولد ملك البلجيك في اثناء عصيان البولونيين سنة ١٨٦٧ الى الملكة فكتوريا يقول : انه من الحماقة ان تحارب انكلترة للمحافظة على بولونيا وسلامة اراضيها ، كما ان الملكة نفسها كتبت في اثناء حادثة الشلزويغ واستيلاء بروسيا عليها انه من سفه الرأي ايقاد النـار في اوربا للمحافظة على سلامة الدنمرك ... في حين ان الدنمرك ضمنت بمعاهدة سنة ١٨٥٢ .

وادعاآت رجال السياسة وحججهم متشابهة في جميع الحروب ، فعندما كان نابليون يهدد اوربة كان خصومه ينعتونه باقبح النعوت وافظعهـا ، ويعدون الانسانية بانها ستنعم بعد القضاء عليه بكل ماترجو ان تنعم به من حرية ورخاء ،

فتنال الشعوب حقوقها وتنزع الاسلحة من مقاتليها وتعم الدمقراطية ارجاء الارض، ولكن لاتكاد الحرب تضع اوزارها حتى يطفىء السلم نيران الحماسة ، وتقع الانسانية مرة اخرى في معالجة غصصها وآلامها ، ويستأنف رجال السياسة في الدواوين والمكاتب اعمالهم واساليبهم التي تؤلف مجموعة منظمة هي اقوى من كل مجموعة عسكرية منظمة .

اما الرخاء الذي وعد به الناس فيكفي ان ننقل ما كتبته جريدة لندنية بعد حروب نابليون ليعرف الناس مصير تلك الاوهام :

ان موقف انكلترة بعد انتهاء هذه الحرب الطويلة على ماتحب ، هو عجيب وجدير بالتأمل ، فالامر الواقع هو ان السلم بدلا من ان يحمل الينا السكينة والطمأنينة ويخفف اعباءنا ويوسع تجارتنا نرى انه قد اثقل ظهورنا بنفقات حرب عظيمة ، ولم يمنحنا مودة الشعوب التي قاتلنا في سبيلها ، بل ان الدولة التي قاتلناها اشد قتال خرجت من النضال بدون ان تمس باذى ، والدولة التي اثارت كل شيء وبذلت كل جهد ، هي التي تعاني اليوم ماتعانيه اكثر من الجميع.

وكانوا في ايام تلك الحرب كدأبهم في غيرها من الحروب ، يستفزون الامم بدعوة الشرف والكرامة والاخلاق والسلم والحق والعدل ، ولكنها ليست الا اسماء سموها به ، اما العاقبة فهي شر على الغالب الذي يريد ان يحتفظ بثمار نصره ، وعلى المغلوب الذي لاينسى ماحل به فيسهر طرفه ويوقظ قلبه ويواصل جده ليثأر لنفسه ، وقد كان يقول اناطول فرانس قبل حرب ١٩١٤ : لقد ذهب الزمان الذي كان يسحق فيه الغالب المغلوب ويستعبده ، فالحرب بعد الان كارثة غير مجدية وجريمة غير معاقبة ، ونحن لانجهل انه بين فرنسة والمانية شعور حنق ، وبين المانية وانكلترة تنافس اقتصادي ، ولكن الذي نجهله ان يكون بين بلد وآخر من هذه البلاد الثلاثة نزاع اساسي لايمكن ازالته ، ويكفي لذلك ان تنزع الضغائن من القلوب وتطفأ نيران الاحقاد .

ولكن هذه الصرخات السلمية واشباهها كانت تذهب ضياعاً ، وتغلبت العناصر

التي تبعث الحرب فعمت العالم بشرورها ونكباتها ،ولم يكن من بعدها الاسلم اشبه بهدنة في حرب مستمرة .

٣ – المحالفات

يري غروسيوس اشهر مؤسسي الشرائع الدولية ان المحالفات هي عقود متساوية ترتبط بها الجماعات ، ويكون لها مجال تأثيرها ونفوذها في السلم كما في الحرب ، ويرى كثير من المؤلفين غيره ان المحالفات هي عقود مشتركة تستلزم واجبات متقابلة لجميع المتعاقدين ، وغاية التحالف المحافظة على حالة راهنة او حالة مؤسسة .

على ان كثيراً من المحالفات كان لها نتائج مشكوكة ، كذلك كان تحالف لويس الخامس عشر مع فردريك الكبير على ماري ترز ومعها على فردريك ، وتحالف النمسة مع نابليون بعد تقهقر موسكو ثم تحالفها عليه مع روسية ، وكثير هي المحالفات التي لم يتقيد بها واضعوها ، وقد قال مارتنس انه ليس مما يستغرب ان رفض كثير من المتحالفين معونة حلفائهم اوان يقوموا بجزء يسير منها ، ومحالفة ايطالية لالمانية والنمسة قادت الى نتيجة معكوسة وهي دخولها الحرب سنة ١٩١٥ في صف اعدائهما ، والتحالف بين فرنسة وانكلترة في حرب ١٩٣٩ لم يمنع الاولى من تخليها عن حليفتها عندما وقعت بها شدائد الحرب واخذت تلتمس لنفسها سبيل النجاة .

والحكومات كالافراد تحتاج في الغالب للاشتراك والتعاون لتحقيق غاية مشتركة ، والغاية المشتركة هي التي تربط بينهم وهي التي يستوحونها في شروط تعاهدهم المتقابلة ، وعندما يكون شرط التعاهد قريب المنال فان المصالح تبقى على حالها من غير ان يطرأ تعديل عليها ، وينتظر حينئذ الوفاء بالعهد والاخلاص له . والمعاهدات اذا كان شرطها صعب المنال بعيد المرتقى فانه قلما يوصي بها — كما قال لويس رينو العالم الفرنسي — لانها وإن كانت قد اتقن وضعها واحكم ابرامها ونظر فيها الى

مصالح المتعاقدين على سواء فقد تقع تقلبات ذات شأن، سواء أكان ذلك في وضع المتعاقدين المتحالفين او في علاقاتهم مع الآخرين ، وهذا التغيير يجعل للتحالف فائدته التي انتظرت منه حين عقده او يجعله مضراً .

والمعاهدات كالشرع الدولي تطالب بأكثر مما تستطيع منحه ، ومعاهدات التحالف هي في الحقيقة من غايات السياسة لامن غايات الشرع ، واذا كانت الشرائع الخاصة قد عدل بها عن اكراه الفرد على حمل مالا يطيقه مما عاقد عليه ، فكيف يطالب في الشرائع العامة بان تقوم الدولة بتنفيذ ما عاهدت به وان ضحت بكيانها في سبيله ، وكيف تلزم جماعة بأسرها بما لايلزم به فرد واحد .

ويرى انصار الاخلاق ان القواعد التي يجبر الفرد عليها يجب ان تجبر عليها الدولة ،ولكن هذا الشبه بين الافراد والجماعات هو من صنع الاخلاقيين والفلاسفة ولا يستند الى العنصر الشرعي والسياسي الذي يعتبر في جميع مظاهره تبعاً للقوة التي تنفذه ، وسواء اريد ام لم يرد فان الحق في اساسه يرجع الى رغبة واضعيه واستمدادهم الى تأييده بقوة السلاح التي هي وحدها تمنحه سلطة التنفيذ ، على انه لاشك ان هذه القوى ترمي احيانا الى غايات معنوية ، ولكن الغايات المعنوية وحدها لاتقدر على الجبر والاكراه .

وتشبيه الجماعات البشرية بالافراد لايخلو من اعتراض في حالة العلاقات القائمة بين الدول الآن ، فهي قائمة على مايسمى شخصية هذه الدول الموهومة التي لايمكن دفعها كثيراً الى الامام في عالم الحقائق ، والدولة في آخر الامر كشخصية معنوية ممثلة بالحكومات التي هي صورة حزب يكون في الغالب اكبر الاحزاب في الشعب ، والاحوال التي يتعرض لها الفرد ويخاطر بها في نفسه وماله وحقه تختلف كثيراً في نتائجها عن احوال الجماعة وما تجره من العواقب ، وكثيراً ما يكون للذين بيدهم الحكم التأثير الكافي لاقناع سائر الشعب حتى يسير معهم في تنفيذ المحالفات التي عقدوها ، ولكن الدولة لاتقدم على تنفيذ ماعاهدت عليه اذا كان هذا الاقدام يقضي عليها ان تضحي بكيانها ، وليس معنى ذلك ان الضرورات

لاتعرف حقاً ، ولكن الدولة هي التي تحكم في قضاياها فلا بد من الوقوع في الشطط والاسراف .

والمحالفات لاينظر اليها غالباً بارتياح ، اذ قلما توجد محالفة لاتنشط اطماع احد المتعاقدين او كليهما ، والرجال السياسيون الذين يريدون ان تقوم العلاقات بين الشعوب على اساس من الحق والعدل يرون في المحالفات اخطاراً جسيمة حتى ان اسكويث احد رؤساء الوزارة السابقين في بريطانية . قال في خطبة له في ايلول سنة ١٩١٤ : ستحل بعد الان محل القوة وتنازع الاطماع وتنافس المحالفات الزائلة ، جمعية حقيقية بين دول اوربة ، مؤسسة على الاعتراف بالحقوق المتساوية والارادة المشتركة ، وقال كذلك الرئيس ولسن في ايار ١٩١٧ : لن يكون بعد الان تحالف يعارض تحالفا ولا اتفاق يعارض اتفاقا ، ولكن ينبغي ان يكون عمل مشترك لغاية مشتركة تقوم على اساس حقوق الشعوب المقدسة ، غير ان هذه الاحلام اضمحلت كما يضمحل حباب الماء ، ولم تقم جمعية الدول الا عهداً قصيراً لم يكن لها فيه سلطان حقيقي ولا ارادة مشتركة او حقوق متساوية ، واستأنفت المحالفات سابق عهدها في اثارة النزاع وايقاد الحروب .

اما من وجهة عملية ففي حالة الاعتداء بدون سبب ، وفي المحاولة لاحراز فتح واستيلاء ، فان الحليف عليه ان يؤازر في الحال حليفه ، ولكن الحليف الذي يكون سبباً في اطلاق الحرب من عقالها ، ولايبدي اي تسامح في تسوية المشاكل لايستطيع ان يحمل حليفه على تأييد دعواه لانها جائرة في رأيه ، والتحالف لايمكن ان يكون الا بين دول ذات سيادة ، اما الدول التي لاتتمتع بسيادتها وهي منقوصة في حقوقها فانها لاتستطيع ذلك ، على حين ان رومانية سبق لها وحالفت روسية قبل ان تنال استقلالها ، وقد جرى لبعض الشعوب التي كانت تطالب باستقلالها في اثناء الحروب الكبرى — كحرب ١٩١٤ — ان عدت حليفة ، كأن بلادها قد حررت واصبحت ذات سيادة .

٤ — المعاهدات

تحتل المعاهدات اوسع مكان في المعاملات السياسية ، وهي الاداة التي لابد منها لتحديد المصالح المشتبكة وتعيينها وتطبيقها في حياة الشعوب اليومية ، وتمر بعدة مراحل :

الاولى : المفاوضة وكانت في الماضي صناعة الملوك والرؤساء . وقد ظن احيانا ان مشاركتهم تزيد في قيمة العهد وقوته ، ولكن معاهدة فينة التي حضرها الملوك ومعاهدة فرساي التي حضرها الرئيس ولسن باسمه وسلطته لم تحققا ذلك ، وفي هذه المرحلة يكون تبادل الصلاحيات وتحققها ، وذلك مايقتصر في الغالب على تقديم الوثائق واستعادتها ، وقد تسلم الى احدى الدول المتعاقدة فتحفظها لديها ويسجل ذلك في المعاهدة ، ويتلقى المفاوضون قواعد الخطة التي يجب السير عليها او انهم يحملونها معهم .

والمرحلة الثانية هي التوقيع ، والثالثة الابرام وذلك بحسب ماينص عليه نظام كل دولة ودستورها .

وكانت احدثت مرحلة رابعة وهي التسجيل في عصبة الامم .

وتقع احيانا عند التوقيع والابرام تحفظات من جانب دولة ذات علاقة ، كما انه ينص احيانا على شرائط الالتحاق بالمعاهدة .

وهناك قضية تأويل المعاهدات التي يرجع في امرها غالبا الى ديوان العدل الدولي الدائم او ديوان التحكيم الدائم .

وتنتهي المعاهدات بنفس الطريقة التي تعقد بها من حيث المبدأ لامن حيث العمل ، وكذلك بالتنفيذ التام والاتفاق المتبادل ، وتأثير الشخص الثالث والاتفاق على مرجع يقضي في هذا الشأن .

وقد يحدث ايضاً تأكيد المعاهدات وتمديدها وتجديدها وتثبيتها ووقفها وتعديلها .

اما الغاء المعاهدات فانه ذو وجوه نظرية وعملية ، وقد يكون عند حدوث شرط مذكور في المعاهدة وبلوغ حد معين ، وعند العجز عن التنفيذ وزوال الموضوع وزوال احد المتعاقدين ، وبسبب قوة مجـبرة ومناقضة للشرع الدولي اللاحق والسقوط بعدم الاستعمال ، والنبذ من قبل الفريق الواحـد ، وحرية الالغاء التي تنص عليها المعاهدة ، والانتقام بسبب انتهاك العهود ، وهناك تساؤل فيما اذا كان نشوب الحرب وتغير الحكومات يؤثران في العهود المقطوعـة ، واذا كان تغير الاحوال يقضي بتغيير المعاهدات .

واذا نظرنا الى المبادىء التي سنها المشرعـون وجدنا ان العهـد هو غاية الحضارة ، وانه قد تعيش الدولة بلا جيش ولا مورد ، ولكنها تصبح في موقف صعب اذا لم تكترث بصدق العهد ، الذي هو في مقدمة ماتحتـاج اليـه الشعوب لصيانة مصالحها المادية والادبية ، وشرف الدولة وكرامتهـا ميراث مشترك في تعامل الامم وعلائق الدول ، واذا اصبح الخيس بالعهد قاعدة عامة للعلائق الدولية اصبحت الريب والشكوك سائدة ، وامسى العدوان كامناً والنضال خفياً ، ممـا تكون نتائجه بالغة من الضرر حداً لايضاهيه تنفيذ أسوأ ميثاق ، ولا يبقى بعـد ذلك عهد قائم على الحق ولاسلام ولانظام ، وتصبح الحروب حروب فنـــاء ، واستئصال ، والصفة الجبرية للعهود نتيجة لفكرة الاسرة الدولية ، والمصلحـة هي التي تحمل الدول على التعـــاقد ، كما ان المصلحة هي التي تقضي بالمحافظة على شروطهـا وتنفيذها . وقد قال بسمرك في آرائه وخواطره : ان التمسك بالمعاهدات عند الدول العظمى يتوقف على مايستلزمه النضال في سبيل الحيـاة . على انه اذا كانت معاهدة في بدئها موافقة فما هو السبب الذي يجعـــل الفريق الذي يدعي انها مضرة وحده ذا حق في الغائها بسبب وقوع هذا الضرر ؟

ولكن مهما كانت المعاهدات واجبة التقديس ، وكان ذلك امراً لازماً للحياة الدولية ، وكان انتهاكها مسبباً للفوضى وجاعلا كل حياة مشتركة غـير ممكنة ، فانه مع ذلك تحدث احياناً تبدلات عظيمة لايمكن ولايجوز انكار عواقبها ونتائجها ،

وقد قال براديه فودره : ان نتيجة كل معاهدة تتوقف على التبدل الذي يحدث في الحالة الراهنة للفريقين المتعاقدين ويحول دون الوصول الى الغاية ويجعل بقاء المعاهدة خطراً على الدولة ، ولايجوز ان ينتظر من شعب ان يضحي بنفسه للوفاء بمعاهدته ، وملاحظة عنصر التبدل ضروري في كل معاهدة لاجل احترامها ، ولما تمسكت ايطالية في فرساي بشروط معاهدة لندن من ناحية وانكرت حق يوغوسلافية في فيومي من ناحية اخرى، باعتبار انها في تلك المعاهدة قد ادخلت هذه المدينة في منطقة كرواتيه التي لم تنشأ فيهادولة ،احتكمت هي ويوغوسلافيه الى الرئيس ولسن ، فصرح بان مايسمى ميثاق لندن لم يعد بعد الآن يسري على القضايا المعلقة ، لان دولة النمسة التي وضع الميثاق لاجلها قد زالت وقامت مقامها شعوب مستقلة ، كما انه دخلت بعد ميثاق لندن دول كبيرة وصغيرة في الحرب من غير ان تطلع على هذاالميثاق ، والعالم يعمل على توطيد نظام جديد ، فعلى الشعوب ، ولا سيما التي كانت تقاتل في معركة الحرية ، ان تناصره وتشد من ازره .

٥ — الحياد والدول المحايدة

ان الحياد الحديث هو من مخلفات القرون الوسطى في ايامها الاخيرة ، ولم يكن الحياد معروفا قبل هذا العهد لان المتحاربين لم يكونوا ليقبلوا ان يبقى الاخرون بمعزل عن القتال او ان يعاملوا الفريقين على سواء ، ومنذ العهود العريقة في القدم فانه لم يعد يسوغ لبلاد الحق ان تبقى في سلم على حين ان مجاوريها في حالة حرب ، وكانت خطة المتحاربين ان كل بلد غير حليفة هي عدوة ، ولذلك لم تنجح مساعي الشعوب في محاولتها لادراك العدل والانصاف ، واذا كانت العهود القديمة لم تكن تعرف الا ولاذة للذين يعملون على البقاء بعيدين عن مكاره الحروب وشرورها ، فقد رأينا العهود الحديثة ايضاً تسجل في صحائفها اساليب القسر والاكراه والعدوان في معاملة الذين لاشأن لهم في الحرب ولا علاقة .

على ان الحياد منذ القرن السادس عشر اصبح في مقدمة المسائل التي يعالجها الشرع الدولي ، وقد بحث غروسيوس بايجاز سنة ١٦٢٥ في كتابه الذي وضعه عن السلم والحرب مشكلة الحياد التي كانت في بدء عهدها واوائل ايامها ، وسلم بحق الشعوب بان تبقى محايدة ، ولم يكن ماذهب اليه في هذا الشأن منطبقاً على التطور الذي حققته العصور الحديثة ، ولكنه مع ذلك كان يصرح بان الذين يتمسكون بالحياد ، لم يكن يجوز لهم ان يصنعوا امراً يؤول الى تعزيز المعتدي واضعاف المعتدى عليـــــه .

وقد طوى مبدأ الحياد منذ عهد غروسيوس مراحل كثيرة ، ولم يجد مرتعاً خصيباً في بلد كما وجـــد في الولايات المتحدة ، ففي سنة ١٧٩٤ وضعت الولايات المتحدة قانوناً موقتاً ، وفي سنة ١٨١٨ سنت قانوناً دائماً للحياد ، وكذلك في سنة ١٩١٧ و ١٩٣٥ ، وكانت الغاية من هذه القوانين بقاء الولايات المتحـدة بمعزل عن الحروب الاجنبية ولكنها قلما حققت هذه الغاية .

وكان الرئيس ولسن قبل ان يقرر الدخول في الحرب يدعــو في بلاده الى الحياد المطلق ويقول : اني اسوغ لنفسي يامواطني ان احـذركم جهرة من خرق الحيـاد في جليل اموره ودقيقها وعظيمها وصغيرها ، فلا يقودنكم الهـوى الى ارتكاب جريمة التعصب لهذا الفريق من المحاربين او ذاك ، فالولايات المتحـدة ينبغي عليها ان تحافظ على الحياد ليس من وجهة الرأي فقط ولكن من جميع وجوه الوقائع والحقائق في هذه الايام التي تمتحن فيها النفوس ، فيجب ان نتحلى بحلية الانصاف في آرائنا واعمالنا ، وعلينا ان نجتنب اظهار اي عاطفة والقيام باي مسعى يمكن تأويله بتفضيل لأحد الفريقين . وليس الذي اقصده من الحيادوماتحراه من مصلحة الولايات المتحدة فيه ، هوحرص مني على الراحة والدعــة ، فالذين يحكمون علي بحسب مايعرفونه في ماضي لايشكون بانني لم اكن من الذين يسكنون الى الراحة والدعة ، ولا من الذين يسعون لاجتناب المصاعب ، بل انني بضد ذلك لقيتها دائما واصطدمت بها ولم اتحاش ابداً ان اكون في طريقها .

وقال : ان موقف اميركا موقف مفرد ، وعليها ان تقدم للعالم مثل شعب متمسك بالسلام ، ليس لان هذا الشعب لايريد ان يخوض غمرات القتال ولكن لان السلام هو خير مايتمتع به العالم ، وهو يرفع الانسانية الى المنزلة التي لاتصل اليها في الحرب ... ومميزات الوطنية الاميركية هي انها لاتقوم على العاطفة وحدها، فهي مبدأ جدي للعمل وهي قوة طلعت على العالم لاجل تجديده لالأجل خديعته.. ان لها قلباً كله شعور ومهزة ، وقد عرفت اميركا ان تسيطر على قلبها فهو لايخفق الا بحب المثل الاعلى ولا يبذل التضحية الا في سبيله .

وفي السنين التي خلت قبل الحرب الاخيرة وصف الرئيس روزفلت سياسة بلاده المحايدة فقال : ان سياسة الولايات المتحدة قائمة على الدعوة الى تخفيض السلاح وتسوية الخلافات بين الشعوب بالوسائل السلمية ، وهي تتمسك بخطة واحدة تستند الى اساسين في معاملة كل شعب محارب لايمس عمله الولايات المتحدة: اولا : اجتناب التشجيع على مثابرة الحرب بأن تأذن للمتحاربين ان يأخذوا من الولايات المتحدة مايحتاجون اليه من سلاح ومادة وذخيرة ، ثانياً : ان لايرسل الى المتحاربين من المواد اكثر مما كان يرسل اليهم في السلم حتى تثبط هممهم عن متابعة الحرب . وذكر كيف ان قانون الحياد لايستطيع ان يتوقع جميع الاحداث وان الاميركيين يدركون حكمة الامور بعد انقضاء الحوادث ، وهم يبحثون الآن عن الاسباب والعوامل التي قادتهم الى الاشتراك في الحرب العظمى كما قادت اوربة الى الاشتباك في ملاحمها ، ولم يكن يتسنى لهم من قبل هذا البحث ، وهم يريدون البقاء بعيدين عن الحرب ، ويعتقدون بالحرية وبالوفاء بالعهد ، ويثقون بسياسة حسن الجوار ، فالجار الذي يحترم نفسه يحترم حق غيره ، والذي يجل ماعاهد عليه لنفسه يجل العهود التي اخذها على عاتقه .

وبحث كوردل هل سكرتير الدولة في الولايات المتحدة عن بلاده وعن حيادها فقال : ستكون سياستنا الخارجية ضعيفة جداً اذا كانت تبدأ وتنتهي في اعلان الحياد وعند وقوع حرب اجنبية ، واني ارى انه من واجبنا ومن الخير

لبلادنا ومن الخير للانسانية عامة ليس فقط اعتزال الحروب التي لاشأن لنا بها ولكن بيذل نفوذنا كله لتسوية المشاكل الدولية ، ومصلحتنا وواجبنا كدولة منظمة يحرمان علينا ان نقف مكتوفي الايدي عند اشتداد الخصومات واستعار الملاحم ، وان نبقى راضين عن انفسنا وعن اعمالنا ، على حين انه يتحتم علينا ان نبذل كل جهد لدفع الحروب وتخفيف ويلاتها من غير ان ننقاد للدخول فيها... وسياستنا كعضو في عائلة الشعوب ينبغي ان تكون لها هذه الغاية المضاعفة: اجتناب الدخول في حرب والعمل على صيانة السلم وتأييد حسن النية في معاملات الدول بقدر ما يستطاع ، ولا بد لنا من سياسة حازمة مقرونة بالحذر اذا اردنا ان تحترمنا الدول الاخرى وان نحافظ على نفوذ كلمتنا في خدمة السلام واستقرار العلاقات بين الشعوب .

وقد وضعت الولايات المتحدة قانوناً للحياد يقضي بمنع اصدار السلاح والذخائر ومواد الحرب الاولى ومنع نقل السلاح ومعدات الحرب بسفن الولايات المتحدة للمتحاربين ، وتحديد سفر المواطنين الاميركيين على سفن الدول المتحاربة ، وتسجيل اسماء الاشخاص الذين يتاجرون بادوات القتال وعدده وغير ذلك .

ولكن هذا القانون عدل في بدء الحرب وقررت فيه قاعدة : ادفع وخذ ، وكان من جملة اسباب التعديل ماقيل من ان الدولة التي كانت معتدية قد تهيأت للحرب في اثناء السلم واستعدت وتجهزت ، فالمثابرة على هذا القانون تكون تأييداً للمعتدي وخذلاناً للمعتدى عليه . وقد تطور قانون الحياد بعد ذلك ودخلت الولايات المتحدة في اعمال تجعل حيادها اسماً لاحقيقة ، وكذلك فان كل حرب تعرض شروطاواحوالا تختلف عن سواها ، وتطورات تغير في وضع الدول المتحايدة وميولها ورغباتها ، وللزمن الذي تكون فيه الحرب والطريقة التي تشتبك فيها الحرب اعظم اثر في ذلك ، فلا يمكن ان تكون القواعد الشرعية التي تؤسس عامة ، وان تكون السلطة التنفيذية مقيدة فيها كل التقييد ، وينبغي ان تكون السياسة الخارجية للدولة متمكنة من اتباع سياسة جريئة تساعدها في نصرة ماتذهب اليه من الآراء في

مدافعة الحرب وتأييد السلم ، ومن ذلك تنشأ الصعوبة في المقتضيات الشرعية التي يجب اتخاذها بحسب كل حرب وحسب كل وقت .

والحياد في اصله وضع للامتناع عن كل تدخل بين فريقين متحاربين ، وكثيرا ماينتهي بالاشتراك في الحرب ، وهو وضع شرعي تابع لقواعد شرعية من حيث الاساس وان كان وضعا عمليا من حيث الواقع ، وهو ايضا علاقة بين دولة ودولة ونتيجة لقاعدة السلطان وحق السيادة ، وحالة الحياد تختلف عن حالة السلم ، وقد اوجدت الحرب الاخيرة حالة جديدة هي حالة الدول غير المحاربة ، والدول الموضوعة في حالة حياد او محايدة هي غير الدول الحيادية ، والحياد يختلف بالنسبة اليهما كوضع من الاوضاع الدولية .

وقد سبق لمؤتمر لاهاي سنة ١٩٠٧ ان ثبت نظام الحياد وحدده ، وعد هذا العمل في حينه من اعظم الاعمال التي قام بها مؤتمر السلام واكثرها بقاءا .ولكن الحياد نفسه اصبح عرضة لانتقاد فريق من كبار المتشرعين مثل المسيو دلابرادل ، فهم يرونه شريكا في الحرب ومؤتمرا ، ولايجدون مكانا له في عالم يريد تحريم الحرب نفسها ، ولا يريد ان يتسامح في اقدام حكومة على الاعتداء واطلاق نار الحرب ، فقد آن ان يتحول الحياد في الحرب ومماثلة جميع المتحاربين على السواء الى امر آخر وهو التعاون والتآزر لصيانة السلم وصد المعتدين ، وقد بحثت هذه القضية في عصبة الامم في صدد العقوبات ومقاومة الاعتداء ، كما بحثت في وشنطن التي عانت كثيرا في الحرب السابقة وقادها الحصار الى الدخول في القتال . وقد كانت حرب ١٩١٤ من الامور التي امتحن فيها الحياد ، كما كانت من قبل حروب نابليون وكما كانت حرب ١٩٣٩ ، والمحاربون في كل حالة ينتحلون الاسباب لانتهاك حرمة دولة محايدة واستباحة العقود المبرمة ، والدول الصغرى تخشى دائما ان تجر الى الحرب ارادت ام لم ترد ، وهي تعرف ان الحرب وبال على الغالب والمغلوب ، وليس في طاقتها ان تحمي بلادها ولا ان تصون حيادها من الدول الكبرى وما تستطيع ان تعمله بوسائلها الحربية واساليبها السياسية .

وسويسرة أقدم دولة محايدة ، والحياد هو اساس سياستها منذ اربعة قرون ، وقد برهنت التجارب للشعب السويسري على ان الحياد يتفق مع مصالح الدولة الدائمة بسبب وضعها الجغرافي وتأليفها من مختلف العناصر والمذاهب ، وقد راعت الدول الاوربية هذا الحياد وعدته موافقا لمصالحها فاقرته سنة ١٨١٥ وسنة ١٩٢٠ وكانت هنالك عقبة بسبب اتخاذ عصبة الامم مقرا لها في سويسرة ، فكان على هذه البلاد اما ان تتباعد عن عصبة الامم واما ان تحافظ على استقلالها وحيادها فتمسكت سويسرة تمسكا شديدا بوضعها واستفتت الشعب فوافق على الانضمام الى العصبة ولكن مع الاحتفاظ بالوضع المحايد ، وقد ابلغت ذلك سويسرة الى عصبة الامم فلم يعترض احد عليه . وهذه البلاد الصغيرة لايجوز ان تقاس مساحتها بالمقام الذي لها في التاريخ ، فهي ذات مكانة كبرى في تاريخ الاوضاع السياسية في العالم واقدم جمهورية في اوربة ، وقد تألفت في القرن الرابع عشر كعصبة دائمة بين دول متحدة ذات سيادة يتعاون بعضها مع بعض ، قد اجتمعت واتحدت في عهود مختلفة من التاريخ وتبادلت العقود والمواثيق ، وهكذا فقدنشأ من شعب صغير عدد عديد من الجمهوريات ورجال مشهورون في السياسة ، واوحت عادة الاشتغال باعمال الدولة الى السويسريين شعور الواجب العام والكرامة الوطنية التي تجهلها الشعوب الاخرى ، وهذه التقاليد في النشاط السياسي التي كانت تثير الخلافات في القرن التاسع عشر جعلت كل ناحية مسرحا للتجارب بحسب شروط اللغة والدين والمساحة والحالة الاقتصادية ، والذي يريد ان يفهم تطور الجمعية الدمقراطية التي عاشت في ظل الحياد الظليل سنين طويلة يجد في تاريخ سويسرة كتاباً حافلا بالفوائد في تطبيق مبدأ سيادة الشعب .

اما بلجيكة التي ضمنت الدول حيادها ، فقد كادت في اثناء القرن التاسع عشر تقود انكلترة الى الاشتباك في القتال مع فرنسة ، ولكنها قادتها الى محاربة المانية سنة ١٩١٤ بسبب خرقها الحياد البلجيكي الذي وقعت عهده ووعدت بصيانته ، ولم تبق بلاد البلجيك محايدة بعد الحرب التي قاست فيها ماقاسته من اهوال

وشدائد ، وقد دخلت في ميثاق عصبة الامم وحالفت فرنسة محالفـــة عسكرية واشتركت في ميثاق الرين الذي نص على ان الغاء الحياد البلجيكي يستلزم ان تقوم مقامه ضمانات جديدة للمحافظة على سلامة الاراضي التي كانت ميـدانا للمنازعات الاوربية ولتسوية الخلافات بوسائل الاصلاح والتحكيم ، غير ان البلجيك التي لم تكن تريد ان تصبح بلادها ممراً للجيوش وساحـة للحروب حاولت ان يكون وضعها الجديد اكثر ضماناً لهـا ، حتى اذا تلقت معونات دولية لاتكون ملزمـة بواجبات مقابلة ، فجاء التصريح الذي وضعته انكلترة وفرنسة ضامنـاً للبلجيك ضمانة وحيدة الجانب ، وقد اخلت الدولتان بلجيكة من تعهدها في ميثاق لوكارنو واعلن هتلر من ناحيتـه ان الريخ مستعدة للاعتراف بان بلجيكة في حالة حيـاد محرمة وهي تسجل على نفسها عدم انتهاك حدودها والمحافظة على سلامتها التي فيهـا مصلحة مشتركة لجميع الدول الغربية وتتعهد بان لاتتعرض لهـذه السلامة وتلك الحرمة في اي حال كان ، وان تحترم اراضيهـا احتراما مطلقا الا اذا كانت في حالة حرب وساعدت بلجيكة في قتالها .

وقد شرح موقف البلجيك وزير خارجيتها في خطبة في تشرين الاول سنة ١٩٣٦ قال فيهـا : لايجوز ان تكون الشعوب مضطرة لان تأخذ على عاتقهـا من العهود مالاتستطيع حالتها النفسية القيام به ... والذي جعلنا نقـاوم في سنه ١٩١٤ وجعل اتحادنا يكون عاماً شاملا هو ان جميع ابناء بلادنا قد فهموا حـق الفهم الظلم الجائر الذي كنا غرضا له ، واذ اردنا ان نعرف مرة اخرى مهالك حرب ومصاعبهـا فانه يجب ان نرجع الى نفس الموقف وان يقنع شعبنا كل القناعة في جميع اجزائه باننا لم نرتكب خطيئة ولم نؤخذ بقلة بصيرة ، وفي الشهر نفسه بحث ملك البلجيك عن تسلح المانية وايطالية وروسية واحتـلال الاولى منطقة الرين بسرعة البرق وتعطيل ميثـاق لوكارنو في اساسه وفي صيغته ، ولذلك فان البلجيك التي عادت لمثل وضعها قبل الحرب تتبع سياسة بلجيكية مطلقة وهي تريد اجتناب الحرب كل الاجتناب في ربوعها وتفضل سياسة التعاون على الدخول في معـارك

القتال التي تؤدي الى نصر قليل او كثير . فلا تعار الاراضي البلجيكية للجيوش حتى يهاجم بعضها بعضا ، ولا تدخل بلجيكا في تنازع جيرانها ... والتحالف حتى ما كان للدفاع لا يعين على بلوغ غاية ، لانه مهما كان امداد دولة حليفة سريعاً فانها لا تستطيع ان تتدخل الا بعد ضربة المغير القوية التي ستكون قاضية ... ويبقى عبء النضال في صدمته الاولى وفي جميع تطورات الموقف على البلجيك التي تصبح ربوعها اطلالا وخرائب ليس ماسبقها في حرب ١٩١٤ الا صورة صغيرة ... وحض الملك بلاده على تعهد جهازها الحربي حتى تنشىء لنفسها بما تعده من قوة حقا باحترام الآخرين .

وكانت البلجيك قد شهدت بين سنة ١٩٣٠ و ١٩٣٦ افلاس الضمانات الدولية واخفاق عصبة الامم والعودة الى مواثيق السياسة السرية واضمحلال المثل العليا للسلم والعدل الدولي التي هي وحدها كانت تضمن سلامة الشعوب ، وقد ارادت البلجيك ان لا تستهدف الاخطار بكرمها وتسامحها وحاولت ان تسن سنة لنفسها ولكنها مع ذلك بقيت الاتصالات العسكرية بينها وبين فرنسة وانكلترة ، ولم تنج من حرب جديدة لا هي ولا هولاندة بعد ان انذرتها الحكومة الالمانية واجتازت حدودها بحجة الحماية ودفع مايحتمل وقوعه من ناحية الاعداء . ولا سيما ان الحصون البلجيكية كانت من ناحية المانية لا من ناحية فرنسة ، فوقعت هذه البلاد بمثل ماوقعت به سنة ١٩١٤ عندما خرقت المانية حيادها ، ولم تنجها سياستها الجديدة من الخطر ، ولو لم تكن الحرب لكانت البلجيك وغيرها من الدول الصغيرة معرضة في حالة اتفاق بين الدول العظمى لخطر التعديلات المقبلة — كما قال تشرشل في خطبة سنة ١٩٣٦ — فتبذل من ميراثها الاستعماري ثمن هذا الاتفاق .

وكانت مسائل الحياد والحصار من اهم المسائل التي اثيرت في حرب سنة ١٩٣٩ سواء في الدول الاوربية او الاميركية او الشرقية كاليابان ، وتوالت الاحتجاجات في الدفاع عن حقوق الدول الحيادية ، حتى انها احيانا انقلبت الى الاعتداء بالمثل ، وقد سببت بعض المعارك البحرية في المياه الساحلية الاميركية مشاكل نظرية

وكانت قررت الجمهوريات الامـيركية ان تمتد المياه الساحليـة الى ٣٠٠ ميل وذلك في مؤتمر بناما الذي عقدته ، وقد هاجمت السفن البريطانية سفينة المانية في المياه الساحلية النروجية وانتزعت ما فيها من اسرى فاحتجت النروج على خرق حيادها ولكن انكلترة لم تكترث بهذا الاحتجاج ثم وضعت انكلترة الالغام في مياه النروج، فرفعت هذه البلاد مره اخرى صوتها محتجة على انتهاك حرمة الشرع الدولي وخرق سيادة النروج وحيادها ، وقد اعلنت انها لا تقبل في حال من الاحوال ان تضع البلاد المتحاربة الغاماً في المياه النروجية وطلبت ازالتها فوراً مع انقطاع مراقبـة السفن الاجنبية ، واعلنت انها ستتخذ جميع الوسائل التي تحتاج اليها لصيانة حيادها فكان جواب حكومة انكلترة عدم الاكتراث ايضا ، بل انها اعادت ذكر ماقاله غروسيوس قديما من انه لابد من التفريق في الحياد بين دولة معتدية ودولة تنتصر للحق ، ولكن الحكومة الالمانية كان جوابها هذه المرة ليس الاحتجاج وحـده، فطلبت الى حكومة النروج ان تضع بلادهـا تحت حماية جيشها لدفـع الاعتداء الانكليزي ، ثم اغارت على الدنمرك محتجة بالاسباب نفسها فاحتلتها ، وقاتلت النروج ودخلت بلادها عنوة لانها رفضت التسليم لها بما طلبت منها . فما كان الحياد مجديا لدولة اعلنت حيادها ، ولا لدولة موضوعة في حالة حياد دائم او ضمانات دولية عامة .

الفصل السابع

السياسة الدولية بين حربين

١ — انحطاط اوربة الفكري والاقتصادي

خلفت حرب سنة ١٩١٤ لاوربة اخطاراً عظيمة ومشاكل سياسية واقتصادية، فبدلا من النعماء التي كان يرجوها النـاس عند انتهاء الحرب ويعقدون عليها الامال القى البؤس جرانه في كثير من اجزاء اوربة وظهر للعيان انحطاطهـا الفكري والسياسي والاجتماعي، وكانت مصائب الحرب منيخة بكلاكلها وعواقبها الوخيمة على الغالبين والمغلوبين ، وقد سادت الانظمة المستبدة في بلاد شتى حتى صدق في بعضها ماقاله كافور في كلمة مرة: في حالة الحصار يتولى القيادة احط الناس ، وقلما يستطيع المستبدون ان يتحملوا في الدول التي تخضع لسلطانهـم الرجال الذين هم اكثر جرأة وابعد نظراً واشد ذكاء واقدر انشاء من اولي المزايا والاختصاص والكفـاية الذين لايستطيعون ان يحتفظوا بمراكزهم الا اذا اظهـروا الخضوع واجتنبوا كل معارضة ظاهرة .

والخضوع لنظام يرجى منه كل شيء ويخشى كل شيء بدون اعتماد على مدافعة رأي عام يمكن الاستنجاد به والاعتماد عليه ، ينتهي بان يحط النفوس ويسقطها الى الحضيض ، حتى اكثر النفوس هدوءا واشدها حذرا ، الذين يظنون انهم يتظاهرون بالخضوع للعاملين والمسيطرين ويحتفظون باستقلال ضمائرهم ووجداناتهم، ولكن الذي يخاف يبدأ بان يتحمل ، وعندما يرى ان سكوته يجعل الظنة والتهمة تحومان حوله فانه يشترك بتأييد الذين يحتقرهم في قرارة نفسه ، ولكنه يخرج شيئا

فشيئا من هذا التناقض الداخلي الذي يزعجه ، ويشرع في تنامي آرائه ، ويتتبع تطور الطبيعة الانسانية عندما تجد نفسها خاضعة من غير ان تطيق التخلص ، وتنتهي بان تألف ما كانت تمده هوانا وترى حقيقة ما كانت تمده باطلا . وقد وصف شاتوبريان حالة فرنسة في عهد نابليون الاول فقال : لقد اصبحت فرنسة باسرها دولة الاكاذيب ، فالجرائد والنشرات والخطب والشعر والنثر ، كل ذلك يعمل على طمس الحقيقة واخفائها . فاذا امطرت السماء قيل ان الشمس مشرقة ، واذا تنزه الظالم في وسط شعب صامت ، قيل انه تقدم في وسط هتاف الجماهير ، فالامير هو الغاية الوحيدة ، والاخلاق هي عبارة عن الاخلاص لأهوائه ، والواجب عبارة عن مديحه ، فاذا ما ارتكب خطأ او اجترح اثماً ينبغي قبل كل شيء ان ينادي بالاعجاب به ، وكل شيء ينشر ينبغي ان يكون فيه اثر نابليون كطابع العبودية .

ولكن ماذا يقع عندما تمر هذه الاحداث في بلاد ذات حضارات قديمة ؟ فالذين سافروا في بلاد الشرق الادنى يعرفون شعوباً كانت ذائعة الشهرة في الماضي وقد جعلتها عهود طويلة من الاستعباد تصبح انضاءاً من الانسانية التي لاعقيدة لها ولا رجاء ، ولا يستطيع شعب مهما كانت مواهبه عظيمة ان يصون اخلاقه وهو يتحمل خضوعا دائماً لعقائد وصيغ ورجال ، ولا سيما اذا كانت هذه العقائد والصيغ والرجال تتطور في بعض الاحيان باطوار تشابه الاديان ، ومن دواعي الحزن ان هذا الانحطاط الاخلاقي تبقى آثاره حتى بعد زوال اسبابه ، وقد اصاب هرودوتس بقوله : ان قوة مدينة ليست في سفنها ولا في معاقلها ، بل في رجالها ولكن حيثما لاتكون حرية لايكون رجال . وهذا الزوال الذي جرته جرائر الحرب وهدد بعض الشعوب الاوربية بالفناء يصح ان يشار في صدد ذكره الى ما ورد في الحكمة اليونانية القديمة من قول هرقليت : كل شيء يمر ويذهب ، وما من احد قد اخترق النهر مرتين بنفسه ، فصحح ذلك احد مريديه قائلا : لا يا معلم! ولا مرة واحدة ، لأن السابح قبل ان يصل الى الشاطىء الآخر يكون قد اصبح هنالك نهر جديد .

وكان الاضطراب الاقتصادي يزيد في الانحطاط الفكري ، وقد بذلت مساع كثيرة لمعالجة الشؤون الاقتصادية ، وكان آخر ماجرى منها قبل هذه الحرب، سفر فانزلاندر ئيس الوزارة البلجيكية في صيف ١٩٣٧ الى الولايات المتحدة بمهمة استطلاع واستخبار كلفته بها انكلترة وفرنسة ، فألفى رجال الولايات المتحدة يشاطرون رجال الدولتين السالفتين آراءهما في تنظيم العالم على اسس جديدة ، والسير به الى غاية تضمن له الرغد والهناء اكثر من النظام الحاضر .

وقد كتب اليه ملك البلجيك حين عودته كتابا خطيرا قال فيه : عند امعان الفكرة في حالة الاضطراب التي تغمر الانسانية ، تساور النفوس عاطفة من قلق شديد ، تعرض لنا المستقبل في جنح من الظلام ، ولذلك فانه يجب ان نؤيد بعزم واعتقاد كل محاولة ترمي الى التنظيم ، ويكون من متابعتها ان يسمو الفكر الى مثل اعلى من التضامن الانساني .. واذا اردنا حقيقة ان نجتنب الحرب وان نلهم الرجال شعوراً يزيد تعلقهم بالسلم ، فينبغي ان يكون لدينا من الجرأة مايجعلنا ننظر الى القضية الاقتصادية من جميع وجوهها ، ونعمل على تسوية جميع الشؤون الكبرى التي تعترض طريق الانسانية وتهددها ، واعني بذلك توزيع المواد الاولى وتوزيع وسائل التبادل وتقاسم العمل بين الامم ، والمحافظة على التوازن بين الدول الزراعية والدول الصناعية ... واني لا اجهل المصاعب التي تحول دون تحقيق مثل هذا البرنامج الواسع ، ولكني لا ارتاب طرفة عين في ان الفرصة سانحة .. وكما نعتمد في بذل هذه الجهود على تأييد جميع الحكومات ، فكذلك نؤمل موافقة الجماهير الاجتماعية والانسانية وتأييد جميع الرجال الذين تنطوي جوانحهم على رغبة التضامن وادراك الحقائق .. على انه لايمكن ان نتغافل عن ان جماعات انسانية بأسرها اصبحت غير متعارفة ، فاذا تقدمنا خطوة للتقريب بين هذه الوجوه المتناكرة ، اقمنا البرهان للناس عامة وللشرق خاصة ، ولكن بالعمل لا بالقول ، على ان الغرب يضع فوق الشواغل الآنية المادية القوى المعنوية التي تستمد من عواطف الاخاء الصحيحة .

وقد تقبلت المحافل هذا الكتاب بقبول حسن وصاغت لصاحبه الملك الشاب

عقود المديح ، حتى ان بعض الصحف الانكليزية غالت في التفاؤل وقالت انه قد يغير وجه التاريخ ... ولكنه لم يغير مقدار ذرة من اتجاه العالم نحو الحرب المهلكة . وكان فان زلاند قد اودع تقريره الذي لم ينشر آراءاً كثيرة تلقاها في رحلته ، وذكر ان الوصول الى الغاية من النجاح يستلزم تذليل المصاعب ،ونيل الضمانات السياسية والاقتصادية ، واعادة النظر في مشاكل توزيع المواد الاولية وشؤون الاستعمار والانتداب ، حتى يتيسر للدول ان تعقد بينها ميثاقا اقتصاديا يؤدى الى تعاون العالم وخروجه من سياسة الاستئثار والانانية .

ولم تكن المسائل الاقتصادية شغل الدول الشاغل في اثناء السلم بل كانت ايضا في اثناء الحرب والمعارك قائمة على قدم وساق ، فقد سلم المستر سمر ولز وكيل الامور الخارجية في الولايات المتحدة مذكرة الى بعض الدول العظمى في اثناء رحلة قام بها الى اوربة سنة ١٩٤٠ ، ذكر فيها آراء الولايات المتحدة في السياسة الاقتصادية التي يجب اتباعها بعد عودة السلم وقد جاء فيها ما خلاصته :

ان علائق تجارية ودولية صحيحة هي الاساس الضروري للرخاء والسلم الدائم بين الشعوب ، والتجارة الدولية لاتستطيع ان تقوم بهذا العمل بطريقة مجدية الا اذا اذنت لكل شعب ان يكون له منفذ طبيعي الى مصادر العالم كله ، لا الى المصادر التي هي منحصرة في حدوده الخاصة وحدها ، وان يجد وسائل تعين على بيع مايزيد من انتاجه ، على اساس التعامل الذي ليس فيه مراغمة .

والتجارة الدولية لاتكون في رخاء اذا عوق سيرها بمحاولات اتفاقات مشتركة او منع بحواجز التعاريف المفرطة ... وهذه الحواجز هي وسائل الحرب الاقتصادية ، وقد دلت التجارب دلالة واضحة على نتائجها المدمرة للتجارة الدولية في ايام السلم وتأثيرها السيء على مستوى الهناء والسعادة ، وهي كذلك بصفاتها باعثة للخصومة الدولية والبغضاء والمشاكل.. فاذا كان يجب بعد انتهاء الحرب الحاضرة انشاء العالم على قواعد من الاستقرار والسلام ، واجتناب الخوف والتباغض ، وتمهيد السبل للتقدم الاقتصادي ، ينبغي ان تقوم التجارة الدولية على اساس صحيح ،

وهذا يستلزم الازالة التدريجية للحواجز التي تقف في سبيل المتاجرة، ويقتضي عدم التمييز بين الشعوب، وتذليل العقبات المتعلقة بالقطع والاعتمادات المالية واجتناب خطط الاكراه ..

٢ — السياسة الدولية في البحر المتوسط

سكنت الاطماع الدولية حول البحر المتوسط مدة خمسة عشر عاما بعد انتهاء الحرب، ولكن هذا السكون لم يكن الا في ظاهر من الامر، وقد برح الخفاء في سنة ١٩٣٥ واصبحت مشكلة البحر المتوسط في مقدمة المشاكل الدقيقة التي يجب حلها، وثارت فيه العاصفة الهوجاء بعد مهاجمة الحبشة، وهذه المشكلة ذات وجوه كثيرة ونواح عديدة تتصل بالشعوب التي تندفع مياهه على شواطئها وتلتقي فيها مصالح بريطانية العسكرية والسياسية، وكان النزاع خاصة بينها وبين ايطالية في هذه السنين الاخيرة.

ومنذ انشئت قناة السويس لم يستول على انكلترة القلق الا مرة واحدة على طريقها في البحر المتوسط المؤدي الى الهند، فان سنين الهناء والرغد الطويلة التي مرت بها حجبت عن عيونها المخاوف التي استيقظت لها في سنة ١٨٩٣، فاهتزت حينئذ لانباء الاتفاق الروسي — الفرنسي، وكانت انكلترة قادرة على مواجهة فرنسة او روسية، اما مواجهة الاثنتين معا ومقاتلة اساطيلهما المجتمعة، فقد نبهتها الى مواطن الخطر، ومواطن الضعف، وقد بلغ التأثر حداً لم يكن بالمستطاع اخفاؤه ولا السكوت عنه، حتى ان جوزيف شمبرلن لم يكتم في مجلس العوام ما يخامره من الحذر، واعلن بصراحته الخشنة قائلا: ان الاسطول البريطاني لامندوحة له من ان ينحرف في طريقه اوان يفر .. اذا وجد سبيلا الى الفرار، وكانت روسية هي المهددة في بادىء الامر، وبعد احتلال مصر جاء التهديد من ناحية فرنسة الى ان وقعت حادثة فاشودا، وقد شغلت روسية بالشرق الاقصى، وشغلت فرنسة

بقضية دريفوس ، ولما اصبحت المانية مهددة كانت العلائق الانكليزية الفرنسية على اتمها ، ولما جاء دور ايطالية وسارت في طريق الاستعمار فاحتلت طرابلس الغرب وجزر البحر المتوسط كان العداء مستحكماً بينها وبين النمسة ، وكانت على اهبة التخلي عن اصدقائها خصوم البريطانيين وقلب ظهر المجن لهم.. فظل هذا الطريق اميناً ، وبقيت انكلترة غالبة في البحر المتوسط ، واعتز جانبها باضافة فلسطين الى الغنائم التي نالتها من قبل .

وفي سنة ١٩٣٥ شعرت انكلترة بالخوف مرة ثانية ، فذهبت ادراج الرياح تلك الطمأنينة التي خيمت على انكلترة منذ عهد بعيد ، وذلك عندما اغار موسوليني على الحبشة بعزيمة شديدة ، فهب الانكليز فجأة ، وأخذوا يسرعون بمعالجة الامور التي اقلقت خواطرهم ، فمالطة لم تبق مركزاً مأموناً بعد ان بلغ الطيران ما بلغ ، اما الحصون الاخرى فهل زال عهدها وانقضى سلطانها ؟ وماذا اصبح في هـذه الحالة جبل طارق وقبرص وعدن ؟ وهل ينبغي التمسك في طريق البحر المتوسط؟ ام أفضل لبريطانية ان تعدل عنه الى طريق اوثق واضمن ؟ لقد انقسمت الآراء في ذلك بين العسكريين واولي الاختصاص ، وادلى كل فريق بحججه من القائلين بالاحتفاظ بالبحر المتوسط او باختيار طريق الكاب ، واصر الرجال المسؤولون على البقاء في كل مركز وتعزيز وسائله .

وكان موسوليني يدعي ان البحر المتوسط لم يكن الا طريقاً كسائر الطرق ، لامزية فيه الا انه طريق مختصر ، ولكن الحكومة البريطانية ردت على موسوليني وعلى القائلين بالكاب ان البحر المتوسط لم يكن طريقاً مختصراً ، ولكنه شريان أصلي ، وهو ذو منفعة حيوية بكل ما في الكلمة من معنى للشعوب البريطانية ، وفي الحق ان السفن البريطانية التي تمخر في عباب البحر المتوسط تفيد بريطانية العظمى ثقة بها واعتماداً عليها فائدة تفوق ما تجنيه من ارباح تجارية في هذا البحر ، اذ تقوم الحاميات البريطانية في أطرافه ، والبوليس الامبرطوري يغدو فيه ويروح ، ولا شك ان خصوم بريطانية لاينظرون بارتياح الى هذه المراكز ، وقد عملت

ايطالية على تعزيز قواها وتحصين مواقعهـا ، وتقاربت مـع اليمن ، واتفقت مع المسيو لافال ليتنازل لها عن بعض الاماكن التي تسيطر على منفذ البحر الاحمر ولم يخش جمهور الانكليز ان تستطيع ايطـاليـة اغلاق هذا البحر من وراء مصر وقناة السويس ، وعاد الفرنسيون فاحتلوا في شباط سنة ١٩٣٩ المواقع التي كانوا قد تخلوا عنها بعد ان نقضت ايطالية الاتفاق وابت ان تبرمه .

فالبريطانيون في البحر المتوسط يستفيدون خاصة من التنويه بشأنهم والاعتراف بمراكزهم العظيمة ، ولكن بعض البـاحثين منهم مثل الزابت مونروه ، كانوا يلخصون آراءهم بان التجهيزات الحربية البريطانية هي في البحر المتوسط ، فالطريق الجوي وطريق البترول لايستفيدان شيئاً من قوى الاسطول والجيش والطيران وهي لاتفيد مطلقا في حمايتها او في الارشاد اليها ، ولا شيء اضمن لبقائهما من العلائق الدولية الحسنة ، اما السياسة التي تقضي بنزول الانكليز في بلاد الآخرين للقيام فيها بمهمة الشرطة ، ولا سيما في هذا الشرق الادنى المهدد في القرن العشرين، فانها تنتهي بان تصيبهم بالاذى الذي يصيب الشرطي ، او وكيل شركة الاعلان ، وقد صدق غلادستن بقوله : لابد ان نستفيد من القناة كائناً من كان مالكها ، ولكن فائدتهم اعظم بعد شراء اسهم الخديوي وبعد انتشار قواهم في المراكز القائمة على هذا الطريق ، وليس بقاء بريطانية في البحر المتوسط لانه أخصر طريق ، فانـه تستطيع ان تدعه وتحل محله طريق بحر المحيط اذا كانت التجارة وحـدها هي الغاية ، ولكن هناك اسباب تتعلق بنفوذ بريطانية السياسي والاتصال بممتلكاتها الشرقية والهند واغنى مناطق البترول . وتأتي بعـــد ذلك قواعد الامبرطورية العسكرية ورخاء سكانها ، وما يسمى بالواجبات الاخلاقية الامبرطورية التي عندما يسمعها بعض الاجانب تتردد الابتسامة على شفاههم اذا تذكروا موقف انكلترة في فلسطين ، وهي لاتعدم من يصمها بالقاب الغدر المشهورة .

اما المصالح الفرنسية فهي ترتكز على اسباب عسكرية وسياسية ، ولكن هل تعوض المستعمرات الافريقية النقص في المواليد الفرنسية في قياسها بالمانية ؟ وهل

تعد فرنسا على صواب في التمسك بالنظام الدفاعي الذي يرجع الى عهد الاتفاق المثلث في البحر المتوسط ؟ وقول الفرنسيين انهم في سورية لحماية مصالحهم في الشرق الادني تدعو الى التساؤل عن هذه المصالح المبهمة ، فاذا كانت مصالح سياسية ذات شأن دافعت عن نفسها بنفسها ، اما رؤوس الاموال الفرنسية فهي ليست بمقدار تمد به عنوان هذه المصالح ، بل هي اقل بكثير من الاموال التي تنفقها في بلدان اخرى ، وقد بقيت الاسباب التاريخية والعاطفية التي تختلف الآراء في تقدير قيمتها في السياسة التي ينبغي لدولة عظيمة ان تتبعها ، فالعاطفة والتاريخ والتقاليد من عناصر السياسة التي تتمسك بها فرنسة ، والتي تكون في كثير من الاحيان موضع انتقاد لها .

وفرنسة كدولة عظيمة ايضاً لها في افريقية الشمالية مصالح شتى لاتقتصر على الناحية العسكرية ، بل هناك اسباب اقتصادية وان لم يكن المستعمرون جميعهم من اصل فرنسي ، وقد كلفتها هذه الممتلكات دماءاً واموالا لاتقبل ان تزهد بها ولا ان تتخلى عما لها من سيطرة ادبية فيها ، على ان المشاكل التي تعانيها في هذه الربوع ليست قليلة ، وان كانت تختلف باختلاف الاجزاء ، وهي اشدما تكون في تونس حيث المطالبة بتغيير الحكم واصوله ، ويزداد الخوف من يد مسيطرة ودولة اجنبية .

وقد نهضت ايطالية الفاشستية تطالب بان تعود ايطالية كما كانت في الماضي عظيمة في البحر المتوسط ، واهتمت بطرق مواصلاتها وانقلبت على حلفائها الاولين ومدت اطماعها الى الشرق والغرب ، فهددت الانكليز والاتراك والفرنسيين والبلاد العربية بسياستها التي غالت في توسيع مطالبها بدعوى احياء الدوله الرومانية ، وهو ماينكر عليها ان تكون وريثته وان تطالب به بعد مر العصور والاجيال. وقد عقد الانكليز والايطاليون اتفاقا في كانون الثاني سنة ١٩٣٧ ، ولكنه لم يوقع الا في منتصف نيسان سنة ١٩٣٨ ، وقد ابرم في تشرين الاول من السنة نفسها ، ولكنه لم يجد شيئا في تعديل المناهج الايطالية ، وعلى جانب البحر المتوسط تتطلع

تركية واسبانية الى مستقبل جديد ، وهاتان الدولتان تضافان الى العناصر العاملة في البحر المتوسط وهي: الاطماع الايطالية ، سياسة المحافظة الانكليزية ، قوى المانية متجهة نحو الشرق ، يقظة الشعوب العربية ، وقد يكون هنالك عنصر خامس وهو الروس في المستقبل .

٣ — التوسع الايطالي ومقاومة بريطانية له

قد يوصف موسوليني بانه يداور الامور ويساير فيها ويعمل في سياسته وتدبيره بحسب ماتقتضيه الساعة التي هو فيها ، ومع ذلك فالسياسة الايطالية قائمة على اساس من الحسابات والخطط ، التي يقل فيها التلفيق والصدفة ، وهي تتطلع دائماً الى البحث عن الساعة الملائمة وعن الحلفاء الملائمين لتنفيذ خططها ، ولا يبالي رجالها السياسيون الا بادراك ماترمي اليه بلادهم من غايات سياسية مهما كانت الوسائل وكيفما كانت ، حتى ان ساسة الالمان البعيدين النظر مثل بسمرك كانوا يحذرونهم ، وقد وصف الايطاليون بانهم كالطيور القشاعم التي تحوم في ساحات الوغى حتى تقع على اشلاء القتلى . والذي يطالع خطب موسوليني منذ اول حكمه لايشك في ان سياسة بلاده التي يسعى لتحقيق مآربها لاتخرج غالباً عن الخطط المرسومة والتقاليد المألوفة . وان كان فيها ادعاء وغرور ، وهذه مقاطع من خطبه :

قال في سنة ١٩٢٥ : كل شعب تدفعه قوته الحيوية الى النمو مضطر بطبيعة نفسه الى انماء قواه الانتاجية والى الانفاق حتى يوسع توغله الاقتصادي والسلمي في العالم ، وينشر قدرته ونفوذه الفكري والمعنوي وراء حدوده .

وقال ايضاً : ان واجب ايطالية الفاشستية المفروض عليها القيام به ، بل اول واجب من واجباتها ان تزيد في قواها الجوية والبرية والبحرية وان تكون على اهبة تامة متى حانت الساعة ، قادرة على تعبئة خمس ملايين وتجهيزها بالعدة والسلاح ، وتعزيز القوى البحرية والجوية التي تزداد ثقتي فيها يوما بعد

يوم، حتى يبلغ عدد الطائرات مبلغاً يملأ ضجيج محركاته شبه جزيرتنا، وتظلل باجنحتها جميع البلاد، ونصبح حينئذ في الغد الخطير في تاريخ اوربة بين سنة ١٩٣٠ و ١٩٤٠، بحالة نستطيع معها ان نرفع صوتنا، وعلى الاقل نحمل الآخرين على الاعتراف بحقنا.

وكان هذا الكلام قبل سنة ١٩٢٧، اما في سنة ١٩٢٩ فقد زادت اللهجة شدة وثقة فقال «نحن الآن نستطيع ان نقول بدون مبالغة وبقناعة مطمئنة ان صوت ايطالية مسموع ومحترم، ونستطيع ان نضيف الى ذلك انه بفضل النظام الفاشستي فان ايطالية الغد ستنال حرمة اكثر، واذا احتاج الامر فانها تكون مخيفة». وفي سنة ١٩٣٥ كان موسوليني يتحدى فرنسة ويضرب ضربته الاولى نحو التوسع، وفي سنة ١٩٣٦ كان يقول. «اني احمل الى العالم غصناً كبيراً من الزيتون، وهذا الغصن يلوح بين القوى العظيمة لثمانية ملايين من الحراب المشحوذة المصلتة التي يحملها شباب ملئت قلوبهم شجاعة».

وقد قال عن البحر الابيض. «ان ايطالية هي جزيرة، وعلى ابنائها ان يجدوا ان تكون لديهم فكرة «جزرية» وهذه الطريقة الوحيدة تضيء لهم اسرار الدفاع الوطني، واذا كان البحر المتوسط طريقاً لآخرين فهو لأجلنا الحياة نفسها..»

وقال موسوليني في وصف مكانة ايطالية كحلقة تصل بين الشرق والغرب: «لايجوز ان يكون هناك سوء تفاهم يتعلق بالعمل المتوارث التقليدي الذي ادعوا اليه الاجيال الحاضرة والاجيال المقبلة الايطالية، وليس الموضوع موضوع افتتاح بلدان، وهذا مايجب ان يفهمه جيراننا وغير جيراننا، بل هو اتساع طبيعي يعود الى تعاون اكثر ارتباطاً وتوثيقاً بين ايطالية والشرق الادنى والشرق الاوسط».

فهذه المقاطع تبين المناهج التي كانت تتبعها ايطالية، والتي لم يكن يصح اغفالها اذا اتضح ما كان من نتائجها في فتح الحبشة، وقد استطاعت ايطالية ان تنال في مقدمة الاتفاق الانكليزي المعقود في كانون الثاني سنة ١٩٣٧ هذا الاعتراف: «ان حكومة صاحب الجلالة في الدول المتحدة والحكومة الايطالية تعترفان بأن حرية

الدخول الى البحر المتوسط والخروج منه ، وحرية اختراقـــه هي من الامور الحيوية للمناطق المختلفة للامبرطورية البريطانية ، وكذلك لاجل ايطالية ،وهذه المصالح ليست متناقضة ابداً .

وكانت انكلترة في الماضي قد حالت دون الاطماع الروسية في البحر المتوسط واكرهتها على البقاء في البحر الاسود ، وعندما اشتد الخطر الالماني والتحالف الثلاثي استمالت انكلترة على اعدائها بمحالفة فرنسة وروسية الى ان كتب لهـا الظفر ، وقد تحدت ايطالية بريطانية في البحر المتوسط واعتمدت على مراكزها الخطيرة في شبه الجزيرة الايطالية وصقلية وافريقيا الشمالية وبحر الادرياتيك وبحر الارخبيل ، وعملت على توسيع نفوذها في ارجاء الشرق ، وجدت في تعزيز سفنها الحربية وطياراتها الجوية التي تجد من المراكز الكثيرة فيها مالا تجده دولة غيرها . وايطالية تهتم كثيراً بتوسيع اراضيها ، ولكن قبل ذلك تهتم بأمر لايفارق خاطرها: وهو ان تعامل كدولة معظمة ، فهي لاتنسى مالحقها من الهوان في فرساي ،وكانت الفاشستية — كما قال شيانو ، تجهل السلم وتعيش في خطر .

وكانت محاولات الاتفاق بين بريطانية العظمى وايطالية غير منقطعة ، ولكن الاولى لم تبرح مصممة على الاحتفاظ بمراكزها في البحر المتوسط وعلى ان لاتتنازل عن شيء اورثها التاريخ اياه ، ولذلك فان فريقاً من كبار السياسيين في بريطانية لم يكونوا يعتقدون بفائدة الاتفاق فضلا عن مفاوضاته ، حتى ان المستر ايدن استقال بسبب ذلك ، ولكنـه ذكر في كلام قبل استقالته ان بريطانية العظمى مصممة على الدفاع عن مصالحها في البحر المتوسط الذي فيه مكان لجميع الناس ، وانكلترة لاتريد مطلقاً ان تخرج احداً من الشعوب التي تنزل في جوانبه ، وبـين ان ماقاله عن البحر المتوسط ينطبـق على البحر الاحمر الذي كان ولايزال عظيم الخطر عند بريطانية ، فهي لاتسمح بان تحتل شواطئه الشرقيـة اي دولة كانت وفي الجملة انكلترة .

وقد ورد ذكر البحر الاحمر في الاتفاق الذي تم بين بريطانية وايطاليـة ،

فتقيدت الدولتان بمعاهدة ١٩٢٧ فيما يتعلق بمناطق النفوذ ، والمحافظة على الوضع الحاضر في الدول العربية القائمة على شاطئه الشرقي ، وتعاهد الفريقان على اجتناب التسلط والتفوق ، واعترفت ايطالية بحماية انكلترة لعدن ، تلك الحماية التي قررت في سنة من قبل ، واكد الاتفاق حرية المرور في قناة السويس في جميع الاحوال، طبقاً للاتفاق الدولي المعقود سنة ١٨٨٨ .

ولم تنقطع الصحف الايطالية عن بث الدعوة للأمور التي تهم ايطالية في البحر المتوسط علاوة على ماعرف من اطماعها في جيبوتي وتونس والسويس ، وكل امة ذات حقوق ومصالح في البحر المتوسط لاتستطيع ان تكون غير مكترثة في مقاومة هذه الاطماع ، وقد احتلت ايطالية البانية وادعت بانها لاترمي الا الى مراقبة الادرياتيك ، كما ادعت في مطالبها المتعلقة بجيبوتي والسويس من انها ليست الا نتائج لضرورات عملية في تأمين المواصلات الحرة بين ايطاليـة وممتلكاتها في الحبشة ، ولكن هذه الادعاآت لم تكن تقنع احداً ولا تستطيع ان تستر المآرب المنشودة من ورائها ، واذا كان العامل الاقتصادي يبحث كثيراً في معرض قنـاة السويس ، وطلب ايطالية بان تمثل في مجلسها الاداري وان يخفض رسم المرور ،فهذا لاينكر الاهتمام به، ولكن بعض الصحف الايطالية نفسها لم تكن تخفي الغرض السياسي الذي ترمي اليه ايطالية من وراء ذلك ، فتبحث من المسائل المتعلقة بحماية القناة والدفاع عنها وتعتبرها حيوية بنظر ايطالية ، لأن القناة ليست طريق اتصال لها فحسب بل هي عامل كبير في طمأنينتها ، ولم يكن يجهل البريطانيون الغاية التي ترمى اليهـا ايطالية ، حتى ان جريدة الديلي تلغراف لم تتردد في القول بانه لايوجد محذور في ان يكون لايطالية مكان في مجلس ادارة القناة لو ان غرضها يقف عند هـذا الحد، ولم يكن وراء ذلك الادعاء بمطالب اخرى ذات صبغة سياسية .

وقد اثار الطليان قضية القناة في ايام حرب الحبشة وخلافهم مع الانكليز عند ماشاع انهم يريدون ان يغلقوها برغم نصوص الاتفاق الذي عقـد سنة ١٨٨٨ ، وحاولوا يومئذ ان يدعوا الى اشتراك جميع الدول ذات المصالح الى جانب القوى

المصرية والبريطانية في الدفاع عن القناة ، ولكن بريطانية لاحظت منذ ذلك التاريخ ماتنطوي عليه هذه الفكرة من خطر ، وادخلت في المعاهدة المعقودة في ٢٦ آب سنة ١٩٣٦ شرطاً ذكرت فيه ان القناة جزؤ لاينفصل عن مصر ، وانها طريق مشترك للمواصلات العالمية ، كما انهـــا واسطة جوهرية للمواصلات بين اجزاء الامبرطورية المختلفة ، فتبقى قوات عسكرية في جوار القناة للدفاع عنها ، مشتركة مع الجنود المصرية ، الى ان يتسنى لهذه الدولة ان تكون بحالة تستطيع ان تصون حرية الملاحة التامة وسلامتها في القناة بوسائلها وحدها .

٤ — الاتحاد العربي وما يقال فيه

الجامعة العربية اسم من اسماء الدعاية ، وهي تشابه الجامعة الاسلامية التي كان يخشى خطرها والتي ظهر انها عديمة الاثر ، وهي من جملة العوامل المذكورة في البحر المتوسط ، ولكنها اكثر العوامل ابهاما ، وستبقى اقلها تأثيراً الى اجل ، والعربي الذي لاينفك يشعر بتفضيل كل عربي على من سواه ، يرى في الجامعة العربية خيالا ساميا تحدو اليه ذكرى نهضة العرب العظيمة التي قام العرب بها قبل ثلاثة عشر قرناً فانتشروا في اقطار الارض ، واتجهوا نحو الشمال ونحو الغرب ، فبرهنوا للعالم في هجرتهم الاولى حول البحر المتوسط على ما يستطيعون صنعه ، وكأنهم دفعوا الى غاياتهم بعوامل خارقة ، ولكن لم يكن ذلك — كما قال لورنس — الا وثبة مستعرة ، ثم رجعت الطبيعة السامية الى ما كانت عليه من قلة الصبر على الشدائد والثبات في المصائب ، فحضارتهم هي من النوع المجرد ، اخلاقية فكرية اكثر منهـا عمليـــة ، وحرمانهم من الشعور العـام يقضي على مالديهم من المواهب الشخصية .

ولو كان العالم العربي اكثر انسجاماً لكان هذا التناقض بين الفكرة والحقيقة

اقل تأثيراً ، والبون شاسع في القياس بين حركة الجامعة العربية في بدئهـا وفي اندفاعها وبين حركة عظيمة كحركة الامة الالمانية، التي كانت تسير وراء غاياتها بقوة ميكانيكية وتمشي محددة كما تمشي الساعة ، وتغمر اقطار اوربة المختلفة بمتاجرها وجنودها واصحاب الاختصاص فيها ، ولكن هل يأتي يوم تتغلب فيـه القوى في العالم العربي وتجتمع كلمته ؟

لقد بحث الكونت سفورزا عن فكرة الجامعة العربية فذكر ان تنفيذهـا يحتاج الى امير عربي منتصر ذي قوة ومهابة وغنى ، وكان فيصل ملك العراق الذي طوته المنون في عنفوان الشباب سنة ١٩٣٣ يستطيع ان يضطلع باعباء هذا الامر ، — وقال سفورزا — لقد عرفت الملك فيصلا معرفة دقيقة ، وقدرت ما فيـه من مزيج غربي وشرقي نادر ، وامتاز بين العرب بذكائه العميق وسياسته الواقعية وبما لديه من شعور التأليف والتقارب الذي يخالف فيه طبيعة العرب ، وكنت اتساءل في نفسي اذا كان اعجاب مواطنيه به لم يكن بسبب هذه المزايا التي تنقصهم ، ولا ارى بعد ذهاب فيصل عربياً يستطيع ان يسد مكان ملك العراق الاول ، واذا كان العالم العربي كما اظن يميل الى الاتحاد فانه لا يجد مع ذلك الرئيس الذي يستطيع ان يقود مثل هذه الحركة ، على ان هناك قضية اتحاد عربي لا تزال كائنة .

وقد وصف كذلك لورنس الملك فيصلا في كتاب اعمدة الحكمة السبعة فقال: كان يجمع بين قوة الرغبة وضعف الجسم وفرط الشجاعـــة ، اما سحر شخصه وشدة اقدامه ونحول جسمه الذي يؤثر في الناظرين اليه ، والذي هو وحده يخفف من كبرياء رجل فخور فقد كان يرفعه الى منزلة التقديس في عيون انصاره، واذا لم يكن مجال للسؤال عن صفات التورع فيه ، فانه مع ذلك قد اظهر في مستقبل الايام انه كان يمنح ثقة بثقة وشكا بشك .. وقد ادرك مداخل السياسة ومخارجها ، وكانت لديه معـارف كافيـة بالشؤون العسكرية ، والف النظر في المعضلات الاوربية ومشاكلها وكان يحكم على الرجال بعناية شديدة ، وطالما وقع في حدسي وظني انه سيذهب الى مدى بعيد في تحقيق احلامه اذا رزق حظاً كافياً من العزيمة

لأن جوانحه كانت تتقد بالحرص على العمل الذي تمكن من نفسه ، وكان يخشى عليه ان يستنفد قواه في محاولة الوصول الى المطالب السامية التي ترمي اليها مطامعه، وقد خانته قواه ذات مرة في احدى المعارك التي خاض غمارها ، فكان يحمي نفسه ويقود المقاتلة حتى سقط مغميا عليه ، فحملوه الى مكان ناء من ساحة النصر... وقد شاءت الاقدار ان تهدينا اليه — لو كانت سواعدنا طويلة بحيث تناله - وتمنحنا مجداً وباعثا — لو انه حفظ ووفر — لمثلت في عمله فكرة الثورة العربية بصورة باهرة ، ولكن هذا فوق مانؤمل ، بل فوق ماتستحقه اساليبنا في التأجيل وعدم الاكتراث ...

ثم قال : لقد بلغت بذلك الغاية من سفري ، وادركت كنه الرجل الذي ابحث عنه في بلاد العرب فقد وقعت عليه عيني .

وقد عالج لورنس مشكلة البلاد العربية في مؤلفاته ، وذكر كيف كان يمني العرب في اثناء الثورة بدخول الشام ، واورد حديثا بينه وبين فيصل عندما التقيا لأول مرة اذ قال له : كيف ترى مقامنا في وادي الصفراء ؟ فاجابه لورنس : انه على غاية من الحسن ، ولكن دمشق لاتزال بعيدة نائية ، وكان يحيط بفيصل رجال من العرب ، جاؤوه على كل ضامر ومن كل فج عميق ، فلما سمعوا بذكر دمشق المغري من فم ذلك السياسي الانكليزي هاجت نفوسهم لذكراها ، وكأنهم يقولون : اين نحن من النصر المؤزر الذي يبلغنا تلك الارجاء ، ثم سكنت جوارحهم واقبلوا ينصتون كأن على رؤوسهم الطير ، بعد ان كان لتلك الكلمة من الأثر مايشبه السيف اذا القي في جمع ... فالذين حملوا اعباء الثورة وركبوا الاخطار في سبيلها كانت دمشق مهوى افئدتهم وقبلة آمالهم ، ولكن كانت دونها عقبات صعبة المرتقى ومهامه فسيحة وفياف مقفرة وسيوف مصلتة وحراب لامعة ، ومع ذلك فقد ابتسم الحظ مرة اخرى للذين يتصفون بالاقدام والجرأة ، وبرغم الوسائل القليلة والآلام الكثيرة والشكوك السائدة ، فان الملحمة العربية طوت الحزون والسهول الى ان ادركت النصر الذي كان جديراً بجرأتها واقدامها ، ولكن هذا النصر لم

يكن الا برقا خلبا واملا كاذبا ، فما عتمت دمشق ان شهدت مصارع القواعد العامة التي نودي بها في اثناء الحرب ، وذهبت امانيها ادراج الرياح ، بعد ان اصبحت في سنة وبضعة اشهر مثابة للعرب وامنا ، وخيل للناس ان العهود الماضية والايام الذاهبة قد رجعت ادراجها ضاحكة متهللة ، ولكن اضمحل كل ذلك بين عشية وضحاها كما يضمحل حباب الماء ، اما الذين طواهم الثرى ومحاهم البلى وماتوا ضحية الكرام في سبيل الغايات الشريفة المقدسة فانهم من وراء القبور وفي سلامها الهادىء يوحون الى امتهم وحي الخلود ويعدونها بعادة الحياة ونور الهداية .

وقد ادعت بعض الصحف الانكليزية ان بريطانية العظمى لم تعدل عن السياسة العربية الا بعد ان رأت اخفاق العرب ، ولكن الحقيقة ان الحكومة البريطانية منذ حالفت العرب في ايام الحرب لم تكن تريد ان تنشأ في تلك البقعة الجغرافية الخطيرة امة قوية الشكيمة عزيزة الجانب واسعة الاثر ، حتى ان لورنس وهو من اشد انصار الفكرة العربية قال : ان هذه البلاد ليس فيها معادن؟ ولا قوى ، ولذلك فانها لا تستطيع ان تكون في المستقبل دولة عظيمة الخطر ، ولو كان الامر على غير ذلك لما عملنا على بعث هذه الشعوب من رقادها في ذلك المكان الجغرافي العظيم بين الشرق والغرب ، وماله من الاثر الكبير في المواصلات الدولية . وناظر لورنس نفسه بين اعمال البريطانيين ونفقاتهم وضحاياهم في العراق ، عندما ارادوا ان لا يعتمدوا الا على انفسهم ونفضوا ايديهم من العرب ، اذ كانت رغبتهم الحقيقية ان ينشئوا في الجزء العربي العراقي منطقة تابعة للتاج البريطاني في الهند ، وبعكس ذلك كان نجاحهم في جهات طور سيناء وفلسطين بعد ان عقدوا التحالف مع العرب .

وكان رأي سفورزا ان سورية كفلسطين ماهما في الحقيقة الا جزء من العالم الذي ينتبه من رقاده ؛ ولكن من هم العرب ؟ فلتسمهم سوريين او عراقيين او مارونيين او دروز او شيعة او علويين فكلهم عرب ، وثمانون بالمئة من دمهم سامي ، والعشر في الشواطىء السورية ينحدر من أصول فرنسية وايطالية عن طريق الصليبيين ، والعشر ايضا في العراق ينحدر من الفرس والترك ، وقلما

يكون في الشعوب من يعتمد على هذا المقدار من الاتحاد في عنصره ، ولكن الذي اودى بالعرب من غير ان يقضي عليهم هو خضوع ثمانية عصور للحكم التركي ، ولاسيما عرب البحر المتوسط ... ومن الذي يستطيع ان يدعي انه في مدى جيلين او ثلاثة لاتصبح حلب وبغداد ودمشق مراكز انسانية مهمة كما كانت في الماضي عندما كان العباسيون يحملون الى العالم رجالا من أولي الفكر والعلم والصناعة ، ومن الخطأ مايظن بعضهم او يتوهم ان نهضة العرب التي هي من حوادث الايام المقبلة التي لاريب فيها ترمي الى الاعتداء على الاخرين ، وتأخذ طور خصومة على كل حال ، ولم اسمع في حديث كلمة جامعة عربية مغامرة .

وقال : انه ليس من المستحيل ان يكون بين المستحدثات التي يخلفها لنا الغد ان نرى تأليف دولة عربية توحد ، بصورة كثيرة الدوام او قليلته ، الاسر العربية المختلفة التي تطالب بالوحدة العربية والتي لاتستطيع ان تجد عاصمة لها غير دمشق ... وفكرة الوطن السوري يعتقد بها سوريون شديد اخلاصهم قد اقتبسوا من الغربيين اساليبهم في النضال الوطني ، وهم اولو حظ كبير من الذكاء ، ولكن هل يستطيعون ان يتجنبوا اقتفاء آثار الغرب في خططه التي ادركها القدم ويقيمون مقامها خططاً جديدة ، وقال : عندما يخترق المرء البادية ويصل الى دمشق عاصمة الثقافة العربية التي مرت عليها العصور والاجيال ، دمشق التي يضطرب فيها صف باسره من المفكرين ... فانظروا ماذا تقول عصبة الامم ، العراقيون والفرس شعوب ناضجة ، وفي سورية شعب متقهقر لايستطيع ان يحكم نفسه ، وقد وكلنا امره لفرنسة .. وهل من الغرابة اذا كان الوطنيون السوريون يشعرون بخصومة وحقد نحو فرنسة ؟ فاللبنانيون الذين هم اكثر حباً لفرنسة يعتقدون في ضمائرهم انهم محكومون حكماً سيئاً ، على انه لايجوز في فرنسة ان يغذوا بالاوهام ، فالعنصر الاقوى لولاء اللبنانيين في اثناء الانتداب يرجع الى امر واحد : الريبة والخشية من السوريين المسلمين ، وبدون ذلك فان اللبنانيين يفضلون ان يتركوا ليدبروا امورهم وحدهم ، واذا كانت المسائل النفسية صعبة في تونس وفاس والقاهرة واديس ابابا ، فلا شك انها اكثر

حدة في دمشق ، حيث المثل العليا لم تنطفئ مطلقاً حتى في اظلم العصور .. ان دمشق ليست فقط قائمة في وسط كل مجرى اسلامي فهي عاصمة اكثر حياة واكثر حماسة لجميع آمال المسلمين .. منها تمر قوافل الحجاج كل سنة الى البلاد المقدسة .. ومن يستطيع ان يضع حداً لآمال دمشق ؟ ومن يستطيع ان ينفي باننا سنراها ذات يوم عاصمة لدولة عربية كبرى ؟

وقد كتبت في مجلة الرابطة العربية في ٢٣ ايلول سنة ١٩٢٤ جواباً عن سؤال وجهته في هذا الموضوع مايلي :

يهتز العالم العربي باسره هزة عنيفة ، وقد تغير في داخله كل التغير ، وتلقى من الغرب مذاهبه في السياسة والاجتماع وثارت في نفوس اهله آراء ومنازع جديدة سدت ظلالها من مراكش الى العراق ومن الشام الى اليمن ، وهو يتطور تطوراً عظيماً لابد ان يعرف الناس آثاره ، وقد ظهر هذا التطور بمظاهر مختلفة : دينية وفكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية ، وتتابع نموه حتى اخرج شطأه ، واستوى على سوقه .

وكانت مبشرات النهضة عند العرب ، كما هي عند غيرهم : الآداب والعلوم والفنون والسياسة ، واذا كانت بلادهم مضطهدة فانهم لم يدعوا مطلقا حقوقهم تزول وتنسى ، ومابرحوا يتحدثون بسالف ايامهم ، وغرر مفاخرهم ، ويعتمدون على التاريخ في تكوين « وجدان قومي » وكان حب الوطن وهو حب الخير العام للشعب كالشمس يضيء سناؤه ، ويجدد لهم ذكرى ماض كبير ، وشعور مستقبل قريب فتحدو بهم الاحلام ، لاقتفاء آثار آبائهم والطبع على غرارهم ، وتسمو بهم الهمم الى ان يحيوا حياة طيبة ، ويعملوا عملا مذكوراً في انشاء وطنهم ، واعادة سلطانهم ، وقد اشتركت جميع هذه العوامل ، فكانت كصيحة ارتجت لها ارجاء العالم العربي وبلغت اقصى طياته .

على ان بعض الاقطار العربية لاتزال مقيمة على تقهقرها ، غافلة عما يحيط بها ، متمسكة باساليبها القديمة ، قد اسلمت اجفانها الى الكرى ، ولم تشتمل نفوس ابنائها

الا على عاطفة مبهمة لاتتجاوز الاشادة بماض غير معروف ، والامل بمستقبل غير محدود،والشعور بقوة كامنة تميل الى الظهور .

هذا هو العالم العربي الذي تربط بين جميع اجزائه وسكان بلاده ، ارحام واشجة ، وصلات متشابهة ، ومنافع متماثلة ، وآمال متشابهة ، وشرائع متقاربة ، وحوزة مشتركة لذكريات حافلة موروثة ، هي قوام الامم ، وسر بقائها وعنوان اجتماعها .

أ ـ طريق الوصول الى الاتحاد

اذا اردنا ان نتساءل عن السبيل الى اتحاد الدول العربية ، وعن زمن العمل وكيف يجب ان نبدأ به فعلينا قبل كل شيء ، ان نجعل غايتنا الوصول الى اتحاد الدول العربية ، لا انشاء دولة عربية متحدة ،فالاول ممكن والثاني متعذر .

والعرب الذين اجملنا وصف حالتهم الحاضرة ، بما تقدم ، لم يفارق نفوسهم الامل باحياء الدولة العربية الجامعة ، وقد سايرت هذه الفكرة مبدأ القوميات الذي انتشر في العالم كله ايما انتشار في القرن التاسع عشر ، وكان من المتوقع ان تعين الحرب العظمى على تحقيق جزء كبير من ذلك فتتألف على الاقل الدولة العربية في آسية،ولكن اطماع الدول المنتصرة حالت دون ادراك هذه الغاية ، وعلى كل حال فالبحث في هذا الموضوع وخاصة فيما يتعلق منه باتحاد الدول العربية لايعد ضربا من الخيالات ، بل من اساليب السياسة الواقعية ، غير انه يجب تحديد المراحل ، وتذليل العقبات ، وتمهيد السبيل .

ولا شك ان سياسة الدول المستعمرة تعترض في طريق الاتحاد العربي اذا اريد من ذلك جميع المناطق الآهلة بالسكان الذين غلبت عليهم العربية في افريقية وآسية، وتعترض هذا الطريق ايضا حالة بعض الشعوب العربية المتقهقرة التي تريد ان تحيا حياتها الخاصة ، وكذلك رغبة بعض الشعوب العربية المتقدمة ، في الابتعاد

عن سواها، ظنا منها ان سياسة العزلة ارجى لتقدمها ونجاحها ، واذا كان الامر الثاني اقرب منالا ، وايسر دركا ، فان الامر الاول لايبلغ الا بشق الانفس .

اما موعد القيام بالعمل فانه لا يؤخر الى غد لان سياسة الامم والشعوب لاتعرف الانقطاع والتأجيل ، وهي تحتاج الى نفوس شاهدة تواقة دائبة متطلعة، وقد تكون السياسة العامة او الخاصة في البلدان العربية مواتية في بعض الاحيان لهذا العمل اوغير مواتية فيكون بحسب ذلك سريعا او يمشي على مهل، وحالةالعالم الحاضرة تعين على تمهيد السبيل لاتحاد الدول العربية ولا سيما اذا تهيأ لكثيرمنها تسوية مشاكلها وتحقيق رغباتها .

ب – ماذا يجب ان يبدأ؟

ان الشعوب التي تمت الى اصول واحدة ، وتتصف باخلاق متشابهة تلجأ في تكوين جامعتها الى توثيق الصلات التجارية وتعزيز الروابط الاجتماعية، ونشر الثقافة وتوحيد القوانين، وازالة الحواجز ، وتبادل المغانم ، وتأليف مايسمونه « بالاتحادات الدولية » وعقد المؤتمرات والمحالفات العسكرية والسياسية .

فالشعوب اللاتينية مثلا حاولت تأليف نوع من الاتحاد اللاتيني ، والشعوب الاميركية في الشمال والجنوب مازالت تنتشر فيها مبادئ الجامعةالاميركية وترمي الى احداث عصبة امم خاصة بها ، والشعوب السكندينافية قد اتخذت لها في عصبة الامم سياسة مشتركة وخطة متحدة ، والامبرطورية البريطانية يقول زعماؤها انها المثال المحتذى الذي يجب ان تقتدي به عصبة الامم ، وقل مثل ذلك عن التحالف الصغير واتفاق دول البلقان، والتعاقد الذي جرى اخيراً بين المانيا والنمسا وكان مقدمة للالحاق والاتحاد .

فعلى الشعوب العربية اذا ارادت تحقيق غايتها من الاتحاد والاتفاق ان تنسج على منوال غيرها ، وتقتفي آثار من سبقها فتستعين على ادراك ذلك بتوحيدالثقافة،

وهذا كان بفضل الكتب والصحف وسهولة الاتصال، وتوحيد القوانين كما هو جار في بعض البلاد الاوربية ثم تسهيل التعاون الاقتصادي والتبادل التجاري . وبعد ذلك عقد المؤتمرات والمحالفات لتوحيد العمل السياسي ، وهذه هي الخطوة الاخيرة لتحقيق الجامعة العربية وادراك ضالتها المنشودة .

٥ — المشاكل الدولية وتأثير بعضها في بعض

سياسة الولايات المتحدة واليابان وروسية

جميع الامور تتماسك ، وما يقع من حوادث عظيمة يكون نتيجة لحوادث غيرها ، ولذلك فاذا بحثنا في السلام الذي لايتجزأ نكون قد وقفنا عند الحقائق ، ولم نتجاوزها الى المحال ، فحرب الحبشة كانت شديدة الارتباط بحرب اسبانية ولوان الحرب الاسبانية لم تحدث ربما كانت اليابان اشد حذراً في مشكلة الصين ، وربما كانت كذلك بعض الدول الاخرى اكثر حزماً ومضاء في معالجة الشؤون الاوربية ، لولا انها كانت مضطرة لمتابعة شؤون الشرق الاقصى بقلق وخشية... والسلام في مكان من الارض لاينفك عن السلام في مكان آخر ، وهذا التضامن في السلام بين اقطار الارض كلها هو كذلك بين الازمان المتعاقبة والاجيال المتوالية ، واذا نظرنا الى الشرق الاقصى وجدنا فيما جرى فيه مصداقاً لذلك ، فلو ان اليابان لم يترك لها الحبل على الغارب في منشورية لما قامت بما قامت به من الاغارة على الصين ، ولو ان اوربة لم تقع بما وقعت به من الاضطراب في حرب الحبشة وفيما تلاها من نبذ المانية للعهود القديمة وانحلال الرابطة الدولية ، لما نشبت في اسبانية حرب ضروس ، ولما اختطت لنفسها ايطالية خطة جديدة فالآن المانية حتى تخلت عن حلفائها بالامس ، ووثقت علائقها معها حتى احكمت المواثيق ؛ واتجهت اتجاها سريعاً نحو سياسة المحور والميثاق الالماني الايطالي الذي كان من بوادره سكوت ايطالية عن احتلال المانية للنمسة .

كذلك كان ينهار شيئا فشيئا الوضع الذي نشأ بعد الحرب وبني على قاعدة التعاون الدولي ، وكانت انكلترة تحاول استبقاءه والمحافظة عليه في نطاق عصبة الامم ونظامها،وكانت قضية الحبشة نذير الازمة الشديدة التي يقضى بها على هذا النظام ، بعد ان اهتز العالم بأسره هزة عنيفة بسبب الخلاف الايطالي الحبشي ، وثارت العواطف في هذا الجانب وفي ذاك ، واشتد الاهتمام بما يعقبه انحلال الوضع الجديد وتداعي بنيان السلام المشترك ، وما ينشأ عن ذلك من اضطراب المصالح الدولية وعظم مسؤولية الحكومات .

وقد دافع يومئذ السر صموئيل هور عن سياسة بلاده ورد على الانتقادات الموجهة الى الشعب البريطاني،الذي يرميه ناقدوه بانه لايهتم الا بعاداته الخاصة وتفضيلاته الخاصة واوهامه الخاصة ... وقال:«ليس هنا مجال الرد على المنتقدين ، والشعب البريطاني ليس منزها عن الخطأ ، ولا ينكر انه قد يكون ارتكب من الاغلاط ما ارتكب غيره من الشعوب ، ولكنه برغم عيوبه وخطياته ، فان الرأي العام البريطاني اظهر في جملة امره شعوراً صادقا عندما كان يجد نفسه امام المشاكل الخطيرة ، فيعرب عن شعوره في الازمات الشداد بحزم وعدل وصحة ورأي . وظن فريق ان بريطانية كانت متمسكة بالعصبة بسبب ماتنقاد اليه من انانية تقضي بها حاجة المحافظة على املاكها العظيمة ومصالحها الكبيرة ، وان الحرب قدانهكت قوى الدول العظمى فاصبحت تفتقر الى معونة الدول الصغرى حتى تقوم لها بالخدمة وتعينها على الاحتفاظ بالحالة الراهنة ، ولكن بريطانية كانت في الحقيقة تريد غير ذلك ، فهي لم تنقد الى اسباب خاصة في طمأنينتها ، ولكن رأت ان نظام المحالفات القديمة لم يبق صالحا لدفع حرب عامة ، فقادتها فكرتها العملية الى البحث عن اداة صالحة للسلم بعد خرائب استمرت اربع سنين ، وهي تريد ان تبذل جميع جهودها لتحول دون نكبة اخرى من هذا النوع ، لاتصيبها وحدها في بلادها بل تصيب العالم بأسره ، وقد صممت على ان تضع جميع مالديها من قدرة في كفة السلم الدولي والنظام الدولي ، وهي تستوحي عملها بصدق واخلاص من مثل عظيم رفيع .

وقد يقول المتهكمون على المثل العليا ماذا يفيد العمل المشترك اذا كان العمل المنفرد الذي يؤثر مباشرة على الشعب اكثر سهولة ؟ وماذا يفيد العمل لأجل السلم اذا كان جميع تاريخ السياسة يدل على ان مشيا كل الشعوب الكبرى لم تجد غير الحرب وسيلة لتسويتها ؟ وقد كانت حوادث السنين الاخيرة معززة لهذه البراهين ، ولكن على الرغم من تجربة الماضي الاليمة ، وبرغم عبادة القوة القائمة اليوم، فان الشعب البريطاني بقي وفياً لمثله الاعلى ولا يريد ان يتخلى عنه ... ولكن لا يكفي اعلان القناعة والتمسك بالمثل الاعلى ، ولا تكفي ان تكون هناك قناعة بل ينبغي ان تحول هذه القناعة الى العمل ، ولا يكفي ان يكون هنالك مثل اعلى بل ينبغي العمل على تأمين أفضل الوسائل لتحقيقه ، ومن اكبر الاغلاط ان يكتفي احد اعضاء العصبة بالبحث عن القواعد العامة ،بدون ان يبين باهتمام وصدق وجرأة افضل الوسائل واكثرها انطباقا على الحاجة ، للقيام بتأثيرنا المشترك واصابة هدفنا من السلم ... وعلينا جميعا عند مصادفة المصاعب ان ننظر الى الاعمال الممكنة والى القيام بالوسائل الحكيمة المجدية .

«وبحث امر احترام العهود والمواثيق والالتجاء الى التسويات السلمية لدفع خطر الحرب ، والامتناع عن الحرب كوسيلة لتسوية الخلافات ، وتخفيض السلاح الى الحد الادنى الذي يتناسب مع السلامة القومية وتنفيذ الواجبات الدولية ،والعمل المشترك لوقف الحروب التي تنشب ... ومنع الحرب كأداة لتحقيق الاغراض الوطنية ، ومنع الحرب لأجل الحرب من باب أولى ، وغير ذلك من اوضاع النظام الذي هو اسمى وارفع نظام عرفه تاريخ الانسانية واشرف غاياتها . وان كان تحقيقه ليس من السهل حتى في احسن الاحوال ، اذ لا يكفي القول بان الحرب لا يجوز ان تقع بل ينبغي منع الاسباب التي تحدثها ، وكل تعديل يراد احداثه لا يكون العدل فيه دائماً متناسباً مع الاهواء الوطنية التي تثيرها وتحرض عليها في الغالب عمداً دعوة الحكومة ، وهذا التحريض هو من اشد الاخطار في الحياة الحديثة ، وكثير من الاحيان ان العدل الذي يطالب به يوجد من الظلم اكثر

مما يريد ازالته ، ويثير النفوس اكثر مما يسكنها ، وكثير ماتكون الغاية من التحريض المصطنع للشعور الوطني اتخاذه كمعذرة للتخلي عن واجب او للتهديد بتحكيم القوة .. واذا كانت الحياة تقضي ببعض التعديل من حين الى آخر، فينبغي ان يجري هذا التعديل بالاتفاق وليس بالعمل الوحيد الجانب ، وباساليب سلمية لا بوسائل الحرب والتهديد بالحرب .

وذكر في كلامه عن المسؤوليات، كيف يجب ان تكون اجماعية وكيف ان الحكومة البريطانية عازمة على القيام بعهودها وعلى مايوجب عليها الميثاق الذي قرر خاصة في جملة ماقرره من المبادىء ان تسوى المشاكل بحسب قواعد الحق ، ان الشعب البريطاني يعتقد في وجدانه بهذه القواعد ، ويعمل على تنمية مبادىء الحكم الذاتي في اراضيه حتى في الجهات المعقدة كالهند ، ويرى تبعاً لهذه المبادىء ان للشعوب الصغيرة الحق في حياة مستقلة وحماية تمنح لها بطريقة اجماعية لصيانة حياتها القومية ، وهو يستدل بشواهد لاتدفع في الحوادث الماضية والحاضرة ان جميع الشعوب تستطيع ان تحمل مشاطراتها القيمة الى تاريخ الانسانية المشترك، حتى ان الشعوب المتقهقرة لها الحق ان تنتظر بدون ان يصاب باذى استقلالها ، وسلامة ارضها ،من الشعوب التي سبقتها في معارج التقدم ماتحتاج اليه من المونة في تنمية مواردها وفي تنظيم حياتها القومية ؛ وانكلترة لاتستحي من تاريخها في هذا الشأن .

«وقال في صدد الامور الاقتصادية ومواد المستعمرات الاولى : ان الشؤون الاقتصادية اصبحت تحل المحل الاول في العالم ، ولكنه يبالغ في تقدير المواد الاولى وتأثيرها ، فاوربة ليست لديها مواد اولى او ان مالديها قليل ، ومع ذلك فقد نعمت واثرت بالصناعات ، وعلى كل حال يجب ان تسوى هذه القضية بحق وعدل.»

هذه خلاصة لخطبة الوزير البريطاني تصور الوضع الذي كان يراد انشاؤه او كانت انكلترة تدعو اليه وتدافع به عن الحق العام الذي شاع امره بعد الحرب ، ولكن كان الامر قد فات واصبح هذا الوضع على وشك التداعي والانهيار ،

فايطالية والمانية كانتا سائرتين في سياستهما الجديدة التي ترمي الى القضاء عليه واقامة وضع جديد يحل محله ، وفرنسة مترددة في سياستها بحسب الرجال الذين يتولون الحكم فيها ، واليابان عاملة في سبيل مغامرتها العظيمة في الشرق الاقصى ، حيث تريد ان تكون لها الكلمة العليا فيه ، والولايات المتحدة في عزلتها السياسية وروسيا في مناهجها واساليبها الغريبة المتناقضة ، وهذه الدول الثلاث الاخيرة اصبحت سياستها ذات شأن في بنيان العالم الذي اوشك ان ينقض ، ولذلك نبحث قليلا في خططها ومناهجها ، معتمدين على مايقوله زعماؤها ومستشهدين باقوالهم في كشف القناع عنها .

فالولايات المتحدة واليابان هما الدولتان العظيمتان اللتان لهما اثر كبير في السياسة الدولية وان كان دخولهما فيها متأخراً ، ومصالحهما فيها تكاد تكون بامريكة والشرق الاقصى ؛ غير ان لكل دولة اتجاها وغاية يختلفان عن اتجاه الثانية وغايتها فطابع السياسة الاميركية اقرب الى ان يكون سلمياً تجارياً ، وطابع السياسة اليابانية اقرب الى الغلبة وبسط السلطان .

وقد وصف الرئيس روزفلت في كلمة كتبها سياسة بلاده فقال :

« ان اعلان الاستقلال والكلمات التي اقترن بها يعلي مكانة الآراء الانسانية ويرفع من شأنها ...

« وعندما تعرضت الممالك في وسط اميركة وفي جنوبها لاخطار الفتوحات والقلاقل لم تجب الولايات المتحدة على ذلك الا بمبدأ مونرو التي اقرت مبدأها ادارة دمقراطية ، والتي ترمي الى حماية الحدود والبلاد ، وكذلك الى اقرار السلم في امريكة ، فكانت الهجوم المعاكس لسياسة التحالف المقدس ، واساليبه في التعرض الى شؤون الحكومات الداخلية وسحق المستعمرات الثائرة التي تريد ان تحيا حياة حرة دمقراطية ، فكان الاتجاه غير اناني في هذه السياسة بل يرمي الى مثل اعلى . »

« وقد تقلبت ادوار السياسة على امريكة ، ولكنها كانت دائماً اميل الى تسوية المشاكل بالوسائل السلمية ، والذين يذكرون الحرب الاسبانية يعرفون ان موافقة

البلاد عليها كان يراد منه تحرير كوبا ، وقد تحتاج اوربة وساستها الى اكثر من عشر سنين حتى يعرفوا اننا لانريد الحاق كوبا ، وكانت غايتنا في الفليبين ان نهيئها لحكم نفسها ، فكان ذلك سابقة عملية لفكرة الانتداب وعصبة الامم »

« وقد عمل هيوز سكرتير الدولة في سبيل تحريم الحرب ، ولم يكن هنالك بأس للقيام بمثل هذا الجهد ، واذا كان الميثاق لم يؤد الى نتائج قطعية فقد حقق بعض الاماني ، على انه يجب ان يعلم ان الحرب لاتلغى بالقرارات ، وقد اخفق ذلك منذ الفي سنة ، وقد وقعت الشعوب معاهدات المودة والاخاء الدائم منذ فجر التاريخ ، ولكن المعاهدات التي كانت توقع لهذه الغاية لاتلبث ان تطوى عما قريب تحت سلطان عدم الادراك وتأثير رغبة القوة ، ولم تتوفر في الماضي الوسائل التي تحول دون الحرب او دون اتساعها اتساعا هائلا ، وهذا ماسبب خيبة المساعي واخفاقها. وقد اشتمل ميثاق كيلوغ على عيبين : اولا — ظن الاميركيين خطأ انهم تقدموا الى الامام تقدما يذكر ، ثانيا — انه لم يساعد مطلقاً على ازالة الخلافات الدولية »

وسياسة اميركة التقليدية في عدم التدخل قد نادى بها واشنطن في كلمة الوداع ، وكررها جفرسن ، ووردت في مبدأ مونرو الذي لم يكن في اساسه يقصد ذلك .. وقد ساد في الولايات المتحدة الرأي في اجتناب المشاكل الاوربية لان الاميركي المفاوض الشريف لايقوم للانكليزي المخادع ، والفرنسي اللسن ، والالماني المجادل ، والايطالي المتفقه ، ولكن بعد ان اصاب الولايات المتحدة خيبة شديدة من تدخلها في شؤون اوربة ، عادت انكلترة بعد اشتداد الازمات وتعاظم الاخطار تدعوها الى الخروج من سياسة العزلة والانفراد ، وبرغم ماقررته من المبادىء للمحافظة على حيادها لم يبرح فريق من رجالها حتى المسؤولين ينادون كلما سنحت الفرصة بانهم يؤيدون الفكرة الدمقراطية في العالم والرأي الحر الذي يسود بعض الدول ، حتى ان وزير الدولة المستر كردل هل خطب في آب سنة ١٩٣٨ خطبة ذكر فيها كيف ان التعاون بين الدول يحل محله في كثير من ارجاء الارض الالتجاء الى القوى المسلحة ، وان كثيراً من الدول المستقلة انتزعت منها سيادتها واغير على

بلادها ، وان كثيراً من المعاهدات قد انتهك ذمارها ، وان الاخلاق في السياسة قد اصبحت من الامور المجهولة المنكرة ، في هذه الحال لا يمكن ان يتوجه الشعب الاميركي بعطفه وتأييده الا الى ان ينتصر لمبادىء السلم في العالم ، ويعين على نشر السكينة والطمأنينة بين الشعوب ، اذ لا يسعه ان يبقى بمعزل ولا بمنجاة من الكوارث التي قد تقع في غير بلاده .

والقى بعده بايام الرئيس روزفلت خطبة في كندا اعلن فيها تضامن الولايات المتحدة مع هذه البلاد التي هي جزء من الامبرطورية البريطانية ، وبين ان الحضارة ليست ميراثاً وطنياً ولكنها ميراث عالمي ، وان المبادىء والافكار لا تقف عند الحدود والتخوم ، وان الولايات المتحدة فيما لديها من ينابيع الثروة العظيمة والتجارة الكبيرة والعدد الدثر من الرجال الناشطين الدائبين ، هي عنصر حيوي في سلام العالم ، سواء ارادوا في الولايات المتحدة ام لم يريدوا . وقال في جملة ما قاله مخاطبا سكان كندا : اني استطيع ان اضمن لكم ان الشعب الاميركي ، لا يظل بدون اكتراث اذا كانت ربوع كندا مهددة من اي ناحية كانت ، فنحن جيران واصدقاء لاننا ندافع عن حقوقنا بصراحة ، ونأبى السير في طريق السياسة السرية الوعرة ، ولاننا نسوي خلافاتنا بالتشاور المتبادل ، وننظر في قضايانا المشتركة بروح المصلحة العامة .

اما اليابان فقد عاقدت الدول الاوربية والدول الاميركية ، منذ بدأت تسلك مذاهب الحضارة ، ولكن المعاهدات التي عقدتها في بادىء الامر لم تكن على قاعدة التساوي ، وكان الاجانب يتمتعون فيها بما يتمتعون به في دول الشرق الاخرى من حقوق وقضاء قنصلي ، فكانت بذلك السيادة اليابانية منقوصة ، فثارت النفوس في اليابان وطالبت باعادة النظر في المعاهدات السابقة وتقرير المساواة فيها الى ان تحقق لها ذلك بمعاهدات عقدتها مع انكلترة وسواها من الدول ، وكان الشرط في بادىء الامر ان تفسح في بلادها المجال للتجارة .

واخذت اليابان بعد ذلك تتدخل في السياسة الدولية وتشترك في جميع اعمالها ،

واخذ يمتد نفوذها في الشرق الاقصى الى ان وقعت الحرب بينها وبين الروس بسبب منشورية فزاد ذلك من شأنها ثم بسطت حمايتها على كوريه وضمتها بعد ذلك اليها . وكان اشتراكها في الحرب العظمى سببا في توسيع نفوذها، فبسطت سلطانها على شنتونغ الالمانية ، وفي جزر المرشال في المحيط الهادي ، وذلك عن طريق الانتداب الذي نالته من عصبة الامم ، وحافظت عليه بعد خروجها منها .

وسياسة اليابان الخارجية قائمة على اساس الطمأنينة والمساواة ، اما المساواة فقد نالتها واما الطمأنينة فانها تسعى كثيراً لتحقيقها ، ولكنها تعترف بان ادراك ذلك لايتم الا في امد بعيد ، وقاعدة المساواة عندها لاترمي الى ان يكون بين الدول تساو في السلطة والقوة العسكرية والموارد الطبيعية ، ولكن ان لايكون هذا الشعب عرضة لمعاملة استثنائية تخل بالمساواة العادلة بين رعايا الدول المختلفة ، غير ان اليابان لم تنجح في تحقيق ماارادته لافي معاهدة فرساي ولا في الميثاق الاميركي المتعلق بالهجرة ، وقد عارضت انكلترة والولايات المتحدة في قضية التسوية بين الشعوب المختلفة، حتى ان الرئيس ولسن نفسه رد مطالب اليابان التي قدمتها في هذا الشأن

وقاعدة الطمأنينة ممتزجة امتزاجاً شديداً بتاريخ اليابان ووضعهم الجغرافي وبالعلاقة بين الشعب وبين سطح الارض التي يعيش فيها ، وفي الغذاء والمواد الاولى والصنائع ، وقد قضى اليابانيون ثلاثة عصور وهم في معزل عن العالم، متمسكين بتقاليد شديدة ، ممتنعين عن السفر الى الديار الاجنبية ، ومانعين الاجانب من دخول بلادهم ، وفي هذه العزلة الطويلة كان الغربيون قد سبقوا اليابان سبقا بعيداً في وسائل الحرب والسلم ، وعندما ايقظتهم بعنف اصوات المدافع الاوربية ، وجدوا انفسهم بدون وسيلة تدفع الدوارع العظيمة التي كانت تضغط على جزائرهم من كل ناحية ، وكانت مخاوفهم المتعلقة بالمواصلات جعلتهم يخشون تفوق الغرب العسكري ويستعدون لادراك طمأنينتهم وخاصة من ناحية روسية، ولما كانت المسافة التي تفصل اليابان عن القارة الآسية ضيقة جداً ، كان على اليابان ان تراقب مايجري في كوريه ومنشورية والصين وسبرية كما تراقب انكلترة الاحداث

التي تجري في شواطىء بحر الشمال ، وكما تعمل انكلترة على صيانة بلجيكة وهولندة فكذلك تهتم اليابان بكوريه ومنشورية ، ولكن مع هذا الفرق وهوان هذه البلاد عاجزة مضطربة ، لاتستطيع ان تحيى حياة مستقلة ، فالوسيلة الوحيدة هي ان تسيطر عليها ، وقد حاربت الصين وروسية لاجلها ، وخرجت من عصبة الامم لانشاء منشوكو ، ثم التغلغل بعد ذلك في ارجاء الصين ومقاتلة الذين يقاومون جيوشها ، والعلائق بين روسية واليابان لاتخرج عن كونها اشبه بهدنة ، منذ معاهدة بورتسموث ، فالفريقان يتبادلان النظر الشزر ، وقد حاولت روسية ان تمد ببصرها الى منغولية وان تثير الصين بواسطة مرسليها من الشيوعيين ، ومازالت سياسة اليابان تهتم بجميع الاحتمالات ، وقد تقاربت مع المانية وايطالية وخرجت من سياستها التقليدية في محالفة بريطانية ، وهي تقول مبدأ في الشرق الاقصى تشابه مبدأ مونرو ، فتتفق معه من حيث الاسباب وتختلف من حيث المدى والتطبيق .

وبقيت سياسة روسية السوفيتية بمعزل عن السياسة الدولية مستقله في اساليها ومناهجها ، ولكنها عادت بعد ذلك فأخذت مكانها واشتركت في المعاهدات والمواثيق والمؤتمرات ، وكانت تظهر بمظهر الحريص على السلم المؤيد لسياسة عصبة الامم (بعد ان هزئت بها) ، العامل على الاستقرار الذي يوافق مصلحتها ، وكان لتفنوف حامل لواء هذه السياسة في وقت ما ، وكانت روسية تدعي تجافيها عن الطمع بكل بلد اجنبي او ارض اجنبية ، ولكنها لاتتنازل عن شبر ارض ، وقواها متأهبة لكل حادث ، ودفع كل اعتداء ، وكان يقول لتفنوف عن المانية : نحن لاننوي مطلقاً ان نتعرض لسيادتها في بلادها ، ونريد ان ننال منها الضمانات التي لاتتناقض مع الوقائع ، ولا تقتصر على الحاضر ولكن تشمل المستقبل ، حتى نكون بمأمن عندما يصبح لديها من القوة والمكنة ماقد يدفعها الى تحقيق الخطط التي كان يدعو اليها قادتها الآن قبل ان يصلوا الى الحكم ، والتي لم ينفك فريق عن الدعوة اليها . وقل : ان عهد الدعوة السلمية قد مضى وانقضى .. فقد كان عالم ه رأس

المال » يدعوا الى السلم في حين من الزمن بعد الحرب الاخيرة .. وكانت المجتمعات والمؤتمرات الدولية التي لاتحصى ، و كانت عصبة الامم .. ولكن النضال السياسي والاقتصادي كان يقسو نظامه ، وقد نشأت اجيال عديدة لم تخض غمرات الحرب ولم تشهد اهوالها ، فتضاءلت دعوة السلم ونشأت انظمة جديدة تحض على النضال، وتشابه في غاياتها ما كان يجري في القرون الوسطى .. وقال ملمحا الى اليابان بعد ان لمح بكلماته السابقة الى المانية : ان قوى السوفييت قادرة على ضرب جيرانها القريبين والبعيدين الذين يريدون ان يغيروا على حدودها ضرباً يعتبرون به ..

وكان يقول لينين ان فلاديفستوك بعيدة عنا ولكنها مع ذلك مدينتنا . وقد اشتد الخلاف بسبب منشوكو والسكة الحديدية المشتركة بين روسية واليابان ولكنه انقضى بسلام ، وعظم الخوف من نشوب الحرب بين الدولتين ، وكان جيش اليابان كثير العدد واسطولهم يضاهي الاسطول الانكليزي برغم اتفاق لندرة .

وكانت علائق الروس مع تركية ودية وثيقة حتى قال لتفنوف : لقد نمت هذه العلائق سنة بعد سنة منذ عشر سنين حتى اصبحت قائمة على المودة الصادقة التي ترضي الفريقين كل الرضى وتوحي اليهم بشعور من الثقة التامة على الحدود القصيرة التي بينهما . وعقدت روسية المواثيق بينها وبين دول البلطيك وبين بولونية وان كانت لاتنكر شكواها من تقلب هذه الدولة .. وكان هتلر يقول : ان بلاده ستفتح طريقها الى الشرق بالحديد والنار من غير ان تقف عند الحدود السوفيتية ، ولكن ذلك كله تبدل في سنة ١٩٣٩ ، فاقصي لتفنوف عن وزارة الخارجية الروسية ، وظهرت السياسة السوفيتية بمظهرها الحقيقي ، متمسكة بتقاليد بطرس الكبير ، وطوى القناع الاشتراكي ووضعت لأمة الحرب والفتوح ، فعقدت في حجب من الخفاء والاسرار ميثاقا مع المانية وتنكرت للذين واثقتهم وعاقدتهم من قبل ، واخذت تلبس لكل حالة لبوسها ، متمسكة بتعاليم الفاتحين لا بحقوق الشعوب ومبادىء الانسانية .

وقد كان الاتفاق الذي تم بين المانية والسوفييت في ٢٣ آب سنة ١٩٣٩ عظيم

الوقع في جميع الاندية السياسية ، فقد اتفق الفريقان على اجتناب الحرب بينهما واجتناب الانضمام الى فريق مخاصم وعلى تسوية المشاكل بالمفاوضات المباشرة او بالتحكيم وعلى التشاور في الامور التي تهمهما ، وهذا هو ميثاق عدم الاعتداء .

ولم يكن ذلك غير متوقع عند رجال السياسة ، فرجال الحرب والدبلوماسية مابرحوا يسعون اليه منذ اتفاق رابالو بين راتنو وشيشرين ، ومساعي بركندورف رنتزو في روسية ، فلما اشتدت الازمة الاوربية وتهالك الفريقان على استمالة روسية ، ولم يستطع الحلفاء اجابتها الى مطالبها او انها كما تدعي لم تجبهم الى مطالبهم في العمل على سحق المانية ، تم التعاون بين الدولتين ، وحسبت المانية ان هذا التعاقد سيحول دون اشتراك انكلترة وفرنسة في الحرب ويضيق نطاقها ، وكان رجال السياسة يتوقعون هذا الانقلاب قبل حدوثه باشهر ، ولا يخفى عليهم ان المانية سائرة في هذا الطريق ، حتى ان هتلر اخذ يجتنب في خطبه الحملة على الشيوعية كما كان يفعل من قبل ، وقد تقاسمت الدولتان بولونية ، وتسلطت روسية على دول الباطيك ، وانتزعت جزءاً من فنلندة وبسارابية وبيكوفينة من رومانية ، واستمر التعاون السياسي والاقتصادي بين الدولتين برغم المحن التي اعترضت سبيله ولكنه بقي غامضاً لايستطاع التهكن عن عواقبه .

وقد ذكر هتلر في خطبة القاها بعد الانتصار على بولونية ، التي سماها بالدولة المصطنعة ، علاقات التقارب مع روسية قائلا : منذ تبين ستالين ان اختلاف الانظمة لايكون سبباً للحرب فان المانية الوطنية لم يبق لديها مايحول دون التعاقد مع روسية ، ومادامت الدولتان لاتهتمان بالنظام الداخلي القائم فيهما فانه لم يبق مجال للتنازع والخلاف ، وغاية الريخ هي اقامة شروط سلمية ثابتة .. وقد قررت الدولتان ان لايكون في علائقهما مايسبب خلافا (وضعا سيئا) ، واقامتا بينهما حداً فاصلا ، ورأى كل منهما انه مضطر ان لايجعل في مسلكه مايبعث الريبة عند الآخر ، فالامان والانشاء الاقتصادي وتنظيم شروط الجنسية مما يؤدي الى ان يكون في آخر الامر حدود افضل من الحدود الحاضرة .. غير ان هذا العمل يذهب الى مدى

ابعد بكثير في الشرق وفي الجنوب الشرقي من اوربة التي هي حافلة باجزاء من الشعب الالماني ، فنحن نريد ان ننقلهم حتى ندفع بهذه الطريقة سبباً من اسباب الخلاف في اوربة ، اذ لا يمكن ارغام شعب لديه حضارة سامية .. واكثر رجال فرساي لم يكونوا يعرفون التاريخ .

وهنا بحث المستشار الالماني عن معاهدة فرساي وذكر ان تعديلها كان من الامور المقررة فيها ، ولكنه لم ينفذ فعلا واضاعت عصبة الامم كل سبب بالبقاء واصبحت هذه العصبة موطن الذين يريدون بقاء معاهدة فرساي .. وقد وعد الشعب الالماني بالقضاء على هذه المعاهدة ويمنحه حقه الطبيعي في الحياة .. وقال: رفضت ان اتقدم الى مجمع دولي راجياً متوسلا منح المانيـة حقوقها،ولكني اردت تحقيق اغراضها بالمفاوضة. وكل محاولات التعديل ماعدا الاخيرة تمت بدون سفك دماء ، وكان بالمستطاع ان تدرك هذه ايضاً بدون سفك دماء ..

٦ ـ خطط المانية ونقض معاهدة لوكارنو

بعد ان نقضت المانية معاهدة لوكارنو ،ابلغت الحكومة البريطانية في اوائل نيسان سنة ١٩٣٦ ، خطة سلمية وضعتها في الرد على مقترحات جاءتها من ممثلي الدول الموقعة للوكارنو (انكلترة وفرنسة وايطالية وبلجيكة) ذكرت فيها ان سياستها تستلهم من القاعدتين الآتيتين : الاولى ـ ان الشعب الالماني مصمم في جميع الاحوال على المحافظة على حريته واستقلاله ومساواته مع سائر الدول ، وهي ترى في هذه القواعد الطبيعية الدولية اساس شرف قومي لا يمكن اغفاله ، واول شرط لكل تعاقد عملي بين الشعوب ، والثانية ان الشعب الالماني صادق في ارادته ان يشاطر في جهود السلم العام، ومساعي الاتفاق بين الشعوب الاوربية،لصيانة هذا السلم الذي لابد منه لثقافتها ورغدها .

وقد جاء في هذه الخطة ايضاً بحث عن قواعد الرئيس ولسن الاربعة عشرة وعن نزع السلاح قالت فيه : عقدت المانية الهدنة طبقاً لقواعد الرئيس ولسن ، ولم يكن في اي واحدة من هذه القواعد مايحدد السيادة الالمانية في منطقة الرين بل انه بضد ذلك كان الاساس الجوهري لهذه القواعد اقامة نظام دولي يقود الى سلم افضل واثبت ، ويقيم قسطاس العدل بين الشعوب فيكون لها الحق بان تتعرف نفسها لافرق بين غالب ولامغلوب .

ثم ذكرت خطبة لوزير الخارجية البريطانية في ٢٦ آذار سنة ١٩٣٦ قال فيها : كان يقصد من نزع سلاح منطقة الرين التعويض على فرنسة التي كانت تريد فصل هذه المنطقة عن المانية ، واستخرجت من ذلك ان المنطقة المجردة من السلاح قامت على اساس انتهاك مقدم لميثاق قطعه الحلفاء على انفسهم ، وقد ادخلت هذه النصوص المتعلقة بتجريد المنطقة المذكورة والتي لاتستند الى برهان غير برهان القوة في معاهدة لوكارنو بعد خرق جديد للحق ، وهو احتلال الرور الذي وصفه مشترعو التاج انفسهم بانه خرق للقانون ، فما يقال عن تنازل المانية الاختياري عن سيادتها في اقطارها الشرقية ، ليس الا نتيجة معاهدة الاكراه في فرساي وما تلا ذلك من اساليب الضغط التي عومل بها الشعب الالماني ونشأ عن تلك المعاهدة .. واذا كان قد جرى ضغط في فرساي ولم يجر ضغط في لوكارنو ، فهل شوهدت في العالم دولة عظيمة تتنازل باختيارها ومن ذات نفسها ، عن الحق الاول الذي تتمتع به في الدفاع عن حدودها بدون ان يكون هنالك ضغط خارجي ، ومع ذلك فقد اعلن مستشار الريخ في ايار سنة ١٩٣٥ ان حكومة الريخ ترى في بقاء منطقة الرين العزلاء مساهمة ثقيلة العبء في المحافظة على السلم ، ولكنها ستستمر في تنفيذ العهود التي اخذتها على عاتقها في لوكارنو مابقي الآخرون عاملين على ذلك ، غير ان الميثاق الفرنسي السوفيتي حرم معاهدة لوكارنو من اساسها الشرعي بل من السبب الذي انشئت لاجله ، ولا شك ان سياسة المحالفات تحول دون تعاون الشعوب الصحيح وتنذر بالاخطار وتحرض على الحروب ، واذا لم تستطع اي حكومة ان تحول دون

هذه الخطط والاساليب ، فان من واجبها ان تعمل على حماية نفسها من المفاجآت في حدود سلطانها وقدرتها ،وترد على الخطط العسكرية والسياسية التي تلجأ اليها بعض الدول ، ولهذا فقد رأت المانية ان تنقض من ناحيتها معاهدة لوكارنو،وان تمم بسيادتها منطقةالرين المزلاء ، وهي لاتريدان تحمل ماقررتهفي هذا الشأن، مما يهمها وحدها ، الى هيئة (لاهاي) التي لاتستطيع في احسن الوجوه ان تنظر لغير الوجهة الحقوقية ، على حين ان لمجلس العصبة ان يتخذ قراراً لايوافق حكماًشرعياً في ذلك ، ولا يكون لحكم صادر اية فائدة في قضية من قضايا حقوق السيادة ولا يساعد على تقرير السلم ، ولذلك فان الحكومة الالمانية تنفيذاً للمهمة التي وكلها اليها الشعب الالماني ترفض كل مراجعة وتحكيم .

والحكومة الالمانية لاتنوي ابداً مهاجمة فرنسة او بلجيكة ، وقد يكون من الحماقة ان تفكر بمثل ذلكاذا نظرت الى تسليح فرنسة الهائل وحصونها المنيعة ، والمفاوضات بين رجال اركان الحرب سابقة لاوانها قبل تشييد اركان السلامة والامان ، وموضع التساؤل هو : هل كانت الحكومة الالمانية تستطيع ان توافق على سياسة تقسيم اوربة بصورة تتفاوت الحقوق فيها ، فشعوب شريفة واخرىغير شريفة ، وشعوب حرة واخرى غير حرة ، ومتى اعتدل الحق في ذلك واسس لهذه الشعوب بنيان انشائي صحيح امكن الوصول الى سلم مستقر الاركانمأمون العواقب ، ولا شك ان الحكومة الالمانية ملزمة امام شعبها ان لاتوافق الا على الخطة المستمدة من هذه المبادىء ، وهي ترى ان السلم ينبغي ان يمر بثلاث مراحل الاولى : تهدئة الجو ، الثانية : المفاوضات العملية الناشطة ، الثالثة : الاشتغال بالمسائل المتممة كنزع السلاح والمشاكل الاقتصادية .

وقد انطوت خطةالسلمهذهعلى تسع عشرةقاعدة تتعلق بالتساوي في المفاوضات والمعاهدات وبث الهدوء ، واجتناب تعزيز الجيوش الالمانية في منطقة الرين ، والتباعد عن الحدود البلجيكية والفرنسية ،وعقدميثاق عدم اعتداء لمدة خمس وعشرين سنة بين فرنسة وبلجيكة والمانية بضمان انكلترة وايطالية ، والتعاقد على

تبادل المونة ، ووضع ميثاق جوى ، ودخول هولنـــدة اذا ارادت في الميثاق ، والامتناع عن كل نشر او تعليم يثير الحزازات ويبعث الضغائن ، والاستفتاء لنيل موافقة الشعوب على العهود المعقودة، ومفاوضات الدول الاخرى المجاورة لالمانية اذا ارادت الاشتراك في هذه المواثيق ، واستعداد المانية للعودة الى العصبـة ، والمفاوضات المتعلقة بالمستعمرات ، والفصل بين ميثاق العصبة ومعاهدة فرساي وانشاء مجلس تحكيم ينظر في احترام العهود والعقود وتكون احكامه اجبارية ، ثم نزع السلاح الذي لايحسن العلاقات بين الشعوب فحسب انه يعين على تحسين الاحوال الاقتصادية والمالية ، وكذلك جعل الحرب انسانية اخلاقية في معداتها وفي وسائلها ، وبعد ذلك بحث عن تحسين الاحوال الاقتصادية وتمهد في الاشتراك بانشاء اوربة جديدة على اساس الحرمة المتقابلة والثقة المتبادلة .

وقد وضعت الحكومة الفرنسية جواباً في ١٧ نيسان سنة ١٩٣٦ ، اجابت فيه على خطة الحكومة الالمانية، وجاءت من لدنها بمقترحات جديدة ، تعرضت للاسباب التي ادت الى تجريد منطقة الرين من السلاح وقالت ان الغاية منها اعطاء الضمانات الى اوربة ، وليس هناك اي مناقضة المبادىء التي وضعت عليها الهـدنة ، ولو كان هنـالك تناقض لكان الوفد الالماني في مؤتمر السلم قد انتقد هذا الشرط ، مع انه لم يدع الا قليلا من الشروط بغير انتقاد ، وكذلك لم يكن لاحتـلال الرور ادنى صلة بمعاهدة لوكارنو ، لان الرور كان قد اخلي قبل ان يفكر بمفاوضات هــذه المعاهدة ، وفي الحقيقة ان ميثاق الرين اوجد في اوربة الغربية وضعا جديداً قائماً على احترام العهود التي اعطيت باختيار ، والتي دعت اليها الحكومة الالمانية نفسهـا لضمان حدودها الغربية ، والاعتراف الاختياري في المنطقة المجردة هــو بمقابل ضمان السلم لالمانية ، وقد كانت معاهــدة لوكارنو من اعظم القواعد التي وضعت لصيانة السلم في غربي اوربة ، ولكن حكومة الريخ لم تتردد في القضاء عليهـا ، مؤيدة دعواها بمذهب شرعي جديد وهو ان كل شعب لايستطيع ان يتنـازل مختاراً عن حقوقه في السيادة الا بضغط خارجي ، وعندما سلمت المانيــة بتجريد

سلاح هذه المنطقة كانت مضطرة مكرهة ، ومعاهدة لوكارنو لايمكن ان تعد مقدسة لانها تستند الى معاهدة اخرى وافقت عليها بعد الانكسار ، وهنا تظهر دعوى المانية الغريبة بكل مافيها من خطر يجب ان تقيس اوربة مداه ، فان نظام الاراضي في اوربة الذي نشأ من معاهدات ١٩١٩ ، قد قررت المانيـة ان تحتفظ برأيهـا فيه كله ، وتطلب اعادة النظر فيه مهما كان تأييده منذ عقد السلم ، وماذا يفيد بعد ذلك اذا كانت الحكومة الالمانية تقول انها لاتغذي اي مطمـع في اية بلاد ؟ وماذا يفيد ان تعلن ارادتها باحترام العهود اذا كانت منذ الآن تستبقي لنفسها الحق بالادعاء ذات يوم بان التأكيدات المختارة التي صدرت عنها لم يكن من شأنها ان تغير الصفة الاصلية للتنازل عن الاراضي التي نشأت عنها هذه الحدود ، والتي سلمت بها تحت تأثير الضغط وسلطان الضرورة ؟ وهل يستنتج من ذلك ان المانية ــ معتمدة على هذا الاساس الشرعي الجديد المستعار من حق دولي لم يسبق من قبلــ تستطيع في الغد ان تضع موضع النظر نظام دنتزيغ ونظام ممل ونظام النمسة ، وان تطالب بتعديل هذه او تلك من الحدود في اوربة واعادة هـذه او تلك من المستعمرات الالمانية ؟ (كل ذلك لم يلبث ان تحقق)

وبحثت المذكرة الفرنسية في رفض المانية المناقشة، وارادتها ان تكون حكم نفسها ، على حين ان المعاهدة تنص انه في حالة خــلاف يرجع الى التحكيم او الى التراضي ، والمانية لاتريد ان تذهب الى لاهاي لانها عارفة بانه سيحكم عليهـا ، ثم انتقدت اساليب المانية ورفضها كل مايعرض عليهـا ، وذكرتها بتساهل دول لوكارنو واستعدادها للوصول الى تسوية برغم العمل الخطير الذي قامت به المانية من تلقاء نفسها في احتلال منطقة الرين ، وانتقلت بعد ذلك الى الكلام عن خطة المـانية التي وضعتها لضمان السلم والمشاركة الجدية في انعاش اوربة ،فذكرت انهـا ظاهرية اكثر منها حقيقية ، ورحبت باستعداد المانيـة للعودة الى عصبة الامم ، ولكنها تساءلت كيف تكون هذه العودة بدون ضمانات بعـد ان قامت المـانية بما قامت به من سياسة الامر الواقع . وكيف تكون خاضعة لمراقبـــة العصبة

وانظمتها بعد ان أوردت في مقترحاتها رأيها في انشاء محكمة جديدة كأنها تريد ان تنكر كل سلطة لمجلس العصبة او لمحكمة العدل الدولية .. وختمت الحكومة الفرنسية انتقاداتها بتساؤلها اذا كان الحق الحيوي لشعب يسمح له بان يلغي وحده العهود المقطوعة ؟ وهل تقوم صيانة السلم على احترام حقوق الجميع أو ان الدول تستبقي لنفسها الحق بتسوية خلافاتها مع الدول الاخرى ومفاجأة نياتها الحسنة ؟ وعلاوة على ذلك فهل تنوي المانية ان تحترم بدون اي تحفظ الحالة الراهنة في اوربة ؟ وهل ترضى بان يكون احترام هذا النظام مضموناً بمواثيق تعقد على اسس التعاون المتقابل ؟

اما خطة الحكومة الفرنسية فقد انطوت على انها تريد السلم للجميع ، السلم الشامل الدائم ، الذي يقوم على التساوي في الحقوق الموثوق به، الحافظ لشرف الجميع، والراعي للعهود والعقود ، والسلم الهنيء الثابت الذي يعود على الناس بالخيرات والثمرات بدلا من الجدل القاتل في الوطنية الاقتصادية ، السلم الحقيقي بتحديد السلاح وتقييده .

ومقترحات الحكومة الفرنسية التي اوردتها ترجع الى اربعة اصول : الاول في المبادىء، وهو يحتوي على الاعتراف بالتساوي في الحقوق واحترام العهود ، وعلى القانون الدولي الاجباري ، وعلى عدم التسلط ، وعلى الضمانات التي تقبل فيها الدول تحديد حقوقها ، والثاني في النصوص السياسية ، وهو يقوم على اساس السلامة الاجماعية ، والتعاون المتقابل ، ونزع السلاح ، واقامة السلم في مدة خمس وعشرين سنة . وانشاء لجنة اوربية وقوى دولية مراقبة ، والثالث في السلم الاقتصادي وهو قائم على تعاون الشعوب ، وتنظيم التبادل ، وتوسيع الاسواق ، وغرفة تحكيم للتبادل ، وتثبيت للنقد ، وزيادة في الاعتمادات ، وتقرير لشؤون المواد الاولى واسواق المستعمرات ، والرابع وهو النص النهائي الذي يقرر فيه ان كل شيء ينبغي ان يجري في نطاق عصبة الامم .

٧ ـ الازمة الشيكوسلوفاكية

احدثت معاهدة فرساي دولة شيكوسلوفاكية التي هي مجموعة من العناصر وفيها مايزيد على ثلاثة مليون الماني ، وكان يظهر ان الامور سائرة فيها سيراً حسناً ايام كانت المانية تتلجلج في حبائل الضعف والانكسار ، فلما نشطت من عقالها رفع المان شيكوسلوفاكية المسمون بالسوديت صوتهم ، وبدأت الازمة الشيكوسلوفاكية ، بالمطالب التي قررها السوديت في مؤتمر عقدوه في اواخر نيسان سنة ١٩٣٨، وكانوا يرمون في هذه المطالب الى التساوي السياسي والشرعي المطلق ، والى الاعتراف بالمنطقة الالمانية والمجموعة الالمانية وتعيين حدودها واعادة تنظيم الدولة والتعويض على السوديت ماصابهم من الإضرار منذ سنة ١٩١٨ ، وقد مال الرأي العام الانكليزي الى تأييد مطالب السوديت وتسوية امورهم ، وكان في الوقت نفسه قد اثيرت مطالب للهونغاريين والبولونيين في البلاد الشيكوسلوفاكية فزاد ذلك في تحرج موقف هذه الدولة ، وقد حاولت الحكومة الشيكوسلوفاكية التي كانت مقاليدها يومئذ في يد الرئيس بنش ان تعالج قضايا الجنسيات السياسية في نطاق من المساواة وفي نظام الاوضاع القائمة والانظمة الدمقراطية ، مؤملة ان تستطيع تسوية القضايا المتنازع فيها ، واحياء الثقة والتعاون ولاسيما بين الشعبين اللذين هما اوفر عدداً في بلادها ، واقرار السكينة والسلام في ربوعها .

ولكن التضحيات التي عزمت شيكوسلوفاكية على بذلها لم تكن كافية ، علاوة على انها جاءت متأخرة . وقد القى هتلر خطبة عنيفة عرض فيها بقوة المانية واكد حرصها على السلم وماعملته في سبيل توطيده من الاتفاق مع بولونية والتخلي عن الالزاس واللورين ، مع ان الالمان لاينسون الذكريات التي تربطهم بكاتدرائية ستراسبورغ ، وقال انه لايستطيع احد ان يكرههم على هذا التنازل وعلى ان يتركوا المطالبة بالانتقام واخذ الثأر ، لولا انهم من انفسهم يريدون ان ينهوا هذا النضال الدائم بينهم وبين فرنسة ، وذكر ان كثيراً من الحدود الالمانية اصبحت

نهائية ، ولكن هنالك مصالح لالمانية تدافع عنها كما تدافع انكلترة وفرنسة عن مصالحها ، وتهكم هتلر في خطبة على معاهدة فرساي وعلى واضعيها وعلى دولة شيكوسلوفاكية وعلى رئيسها واساليبه ، وذكر انه لا يمكن تركهم عرضة للاضطهاد ، ولا اغماض العين عما يلاقونه من اذى ، وانكر على المسيو بنش ان يقدم منحا لهؤلاء الالمان ، وعلى الدمقراطية ان تساعد الذين يضطهدونهم ، وهو سيجيب دعوتهم ويطالب لهم ان يتصرفوا بشؤونهم ، والمانية لا تدعو الى اضطهاد ثلاث ملايين ونصف فرنسيين او انكليز .

وفي ٢٥ ايلول سنة ١٩٢٨ ارسلت المانية مذكرة الى حكومة براغ طلبت فيها ان تسلم بانفصال السوديت عن شيكوسلوفاكية ، وارفقت مذكرتها بخارطة حددت فيها الاماكن التي ستحتلها جنود المانية وطلبت ان تكون سالمة من كل تعطيل ، واعلنت انها تقبل الاستفتاء في احوال معينة ، واضافت الى ذلك شروطاً اخرى تتعلق بتسريح الجنود الالمان واطلاق سراح المعتقلين السياسيين .

وبعد الاتفاق الذي تم في مونيخ قدمت الحكومة الفرنسية بياناللبرلمان ، وصفت فيه قضية السوفييت والمساعي التي بذلت منذ بدء الازمة ، وما كان من المفاوضات المباشرة وسفر المستر شمبرلن الى برشتسغادن بعد ان تساءلت اذا كانت هذه الرحلة لم تكن تظهر انها غير مؤتلفة مع كرامة الوزير الاول ، ولكن شمبرلن كان جديراً بتقدير العالم في المحافظة على السلم في هذا المسعى الجريء .

وكان قد عقد اجتماع في لندرة اطلع المجتمعون بتأثر على آراء اللورد رونسيمان الموفد الانكليزي الذي قال بكل اخلاص وصدق انه لا يستطيع السوديت والشيك ان يعيشا معاً ، فبعد ان كان الاتجاه يرمي الى نوع من التحالف مع ضمان سلامة البلاد اصبحت هنالك مطالب اشد خطراً وحقائق ينبغي الوقوف امامها وجها لوجه ، فاما ان تقابل بالرفض المطالب الالمانية وان تدفع حكومة الشيك في سبيل العناد ، واما ان يبحث عن طريقة اتفاق وتفاهم ، وكانت الخطة الاولى تؤدي الى الحرب ، فاختارت الدولتان انكلترة وفرنسة خطة السلم ، وبحثتا بمقترحات

مؤلة الى حكومة شيكوسلوفاكية ، وقد وافقت حكومة الشيك على هذه المقترحات ، ولكن الموقف كان قد تطور بعد اجتماع هتلر بشمبرلن في غودسبرغ فارسلت المانية مذكرة بمطالب محددة تختلف عن المطالب التي وضعت في لندرة، وتطور الموقف واشتدت الازمة ، وكان هنالك اتجاهان ، ففريق يرى السلامة بالاستمرار بالمفاوضات وفريق يرى الاخذ بأساليب الحزم ، ولما بلغ الخطر مداه وبدأ التأهب والاستعداد من كل جانب مع العمل على اجتناب مالا يمكن تلافيه ، كان آخر مااقترحه شمبرلن وايده فيه موسوليني هو عقد اجتماع في المانية ، فعقد مؤتمر مونيخ وقرر فيه التخلي عن بلاد السوديت وضمانة انكلترة وفرنسة للجمهورية في بنيانها الجديد ، وتأجيل المانية وايطالية ضمانتها حتى تسوى قضايا الاقليات البولونية والمجرية ..

وكان التحول الذي اصاب شيكوسلوفاكيه سبباً للتفكير في مايجب اتباعه من الخطط في هذه الدولة او في ماعدا ذلك من الامور المتعلقة بالسياسة العامة ، فكانوا يتساءلون في بلاد الشيك عن قيمة الاستقلال اذا لم يكن يأتي عن الطريقة التي يترجم بها في اعمال كل يوم وكل ساعة ، ولم يكن يقوم بها شعب يتمتع بالحرية الحقيقية ، بعيداً عن كل مؤثر فيه وعن كل ضغط اجنبي يراد حمله على الانحناء له ، واذا اريد ان لاتضمحل الدولة فينبغي ان تكون قائمة على الحقائق وان تتمسك بصورة عملية على الغاية التي ترمي اليها في سياستها الداخلية والخارجية وان تتعلق بالاوضاع والمنشآت القائمة على صدق الحس وصحة الرأي ، فلا يسلك سبيل المغامرة في اطلاق الحبل على الغارب للأهواء والنزعات، ولا سبيل المغامرة ايضاً في الاستبداد وخنق الاراء والافكار ، والزمان لايقبض على ناصيته فهو يسوق امامه الخير كما يسوق الشر . والتغير والتبدل من قوانين الطبيعة،والانسانية لاتبقى الا على شرط التحول الذي لاينقطع ، وكثير من رجال الدولة الذين عرفوا بالذكاء الخارق لم ينظروا الى هذه الحقيقة العليا القائمة على التغيير والتبديل ، ولم يفكروا في المواقف الدقيقة بعلاج غير علاج الصلف والتعنت والشدة في القمع

والافراط في العنف ، وكان يفسد على فريق منهم بعد نظرهم مايشتملون عليه من عيب كبير هو الغرور ، حتى يظنون انهم معصومون عن الخطأ على حين ان الغيوم تتلبد في الآفاق والبروق اللامعة تنذر بالصواعق ، وليست الحقيقة السياسية بغاية خيالية يسعى لادراكها ، بل هي تلمس باليد وترى بالعين وتحاط بالحس وتستقر في النصوص ، وكانت المفاوضات السياسية حتى الآن محاطة بالكتمان الشديد ، ولكن خطر الساعة يعلن ان وقتاً آخر يقترب، حيث ترى الشعوب التي تقرر مصائرها انه يجب ان تعرف معرفة تامة جميع عناصر قضيتها .

وكان يقول بنش رئيس الجمهورية ان ابحاث الماضي تتعلق بالتاريخ، واما مايجب علينا ان نقوم به فانه يتعلق بالمستقبل ، وفي الامة قوى مادية وادبية عظيمة فهي اذا لم تتحد تصبح عقيمة ، واذا اجتمعت واتحدت واستثيرت بالمثل الاعلى وتقدمت لخدمة القضايا الشريفة العادلة فانها تستطيع ان تأتي بما يشابه المعجزات ، فالاتحاد اذن هو واجب الساعة التي نحن فيها ، وعندما يكون بيت الآباء والاجداد في خطر فان جميع بنيهم يتناسون خصوماتهم واجتهاداتهم ولا يبقى لهم الاشغل واحد هو انقاذه ثم انقاذه . فالآن وغداً وبعد غد تتحتم على الامة واجبات جديدة ، وقد عرفت في ضوء الحوادث التي تمر بها ماهي مواطن الضعف فيها ، وليس هذا وقت تعدادها ، ولكن هذا يوم توحد فيه جميع الجهود ، وتوضع امام العالم اليد في اليد ، حتى يكون الوطن اكثر قوة واكثر عدداً ويكون جديراً بمهمته الخالدة.

وقد ذكر في كتاب استقالته : يلوح لي ان زماناً اهنأ سندركه ، وان اياما سعيدة هادئة بالجد والنجاح تنتظر شعبنا ودولتنا ، على ان التضحيات التي دعينا الى تحملها غير متناسبة وغير عادلة ، ولن ينساها الوطن ابداً على الرغم من انه يتقبل مامني به من الاقدار بصبر واباء ، ولا اريد ان اكون عائقاً في الوقت الحاضر للسياسة الجديدة والاساليب التي تضطر الى التسليم بها ، وستزول عوامل كثيرة من الخلاف مع جيراننا ، وما بقي لنا من هذا الوطن الممزق كثرات نحتفظ به للاجيال القادمة، لانزال ملكا لنا له قيمته الخالدة ، ان الوطن في خطر محدق، وسيكون في خطر

اشد اذا لم نكن جميعاً الآن متحدين بجميع قوانا، يشد بعضنا ازر بعض ونتبادل الاخلاص والثقة والقوة ، وبدون ذلك فلا قيمة لما نتبادله من الامتيازات ونقابل بعضنا بعضاً به ، واني اتوجه بكلامي الى جميع طبقات الامة وادعوها لتحتفظ بسكينتها واتحادها واخلاصها وتحابها ، فالوطن والدولة هما نحن جميعاً باتفاقنا وقيامنامتحدين في ثرى هذه الربوع ، وذروا الآن مناقشاتكم وخلافاتكم ومصالحكم الصغرى اليومية ، واتحدوا واجمعوا قواكم نحو غاية واحدة : العمل المشترك لاجل الوطن ولاجل الدولة .

وكان اتفاق مونيخ داعياً فرنسة الى اعمال الفكرة في السياسة الماضية التي سارت عليها حكوماتها في مدى عشرين سنة ، فلو انه عولجت فيها بسرعة حالة الاضطراب في اوربة لكان ذلك اكثر سهولة واقل كلفة لوانها تمت قبل سنين ، وكل اسف لايبقى له شأن اذا احرزت الغاية التي لاتضع حداً لاغلاط الماضي ، وتكون فاتحة عهد جديد يقوم بنيانه على الاشتراك في المآرب الرفيعة والمصالح المتبادلة ، والتعاون القائم على الاحترام المتقابل للحقوق والشرائع ، اما الحرب فليست بحل ، ولكن الاتفاق بين الشعوب هو الذي يستطيع تسوية الخلافات .

وقالت جريدة الطان في هذا الصدد كأنها تنكر ما اطرته من خطط السياسة التي سلكتها فرنسة في مدة عشرين سنة : علمتنا الازمة الحديثة ان السياسة الفرنسية لم تحسن الاختيار عندما كان الزمن مواتياً للاختيار ، اما المواثيق التي عقدت مع دول اوربة الشرقية وشرقي اوربة الوسطى فقد ظهرت بمظهر التعارض والتناقض ، كما دل عليه النزاع بين بولونية وشيكوسلوفاكية ، وكذلك الجمع بين فرنسة وبين بلاد اكثر منها تعرضاً للخطر ، وقد برهنت الازمة الحديثة بصورة قاطعة الى خطر هذا المحذور ، والذي ظنه الفرنسيون انه حماية لهم في مدة طويلة ظهر انه خطر عليهم ، فلنكف عن القول بأن عدم وجود المواثيق يجعل فرنسة بمعزل ويحكم عليها بخطر شديد من الانفراد ، ومهما يكن فان موقفاً جديداً قد ظهر الآن ، ويجب على فرنسة ان تجيب على هذا الموقف الجديد بما

يقتضيه من شعور جديد بالواجب .. وفي هذا اليوم اكثر من كل يوم آخر، فان الفرصة سانحة للشعوب التي تريد ان تنشىء عهداً جديداً .

وقد اخذت العلائق السياسية بين فرنسة والمانية تتطور تطوراً حسناً، وان لم يكن طويل الامد ، فزار فون ريبنتروب باريس في ٦ كانون الاول سنة ١٩٣٨ واعلن يومئذ ببلاغ رسمي ان هذه الزيارة قد مهدت السبيل لتبادل آراء واسع النطاق بين فرنسة والمانية ، وجرت محادثات بين فون ريبنتروب والمسيو جورج بونه بحثا فيها اهم القضايا الاوربية ولا سيما التي تتصل مباشرة بالعلائق السياسية والاقتصادية بين الدولتين المذكورتين ، وقد اعترف الفريقان ان نمو صلات بلديهما على اساس الاعتراف الرسمي بحدودهما يخدم مصالحهما المشتركة ، ويفيد علاوة على ذلك السلم فائدة عظيمة .

وقد اتفق وزير الخارجية فون ريبنتروب والمسيو جورج بونه على توقيع بيان باسم حكومتيهما ينص على الاحتفاظ بما بين كلتي الدولتين من علائق خاصة مع الدول الاخرى ، ويعرب عن ارادتهما بالتعاون السلمي وتبادل الاحترام ، ويسجل خطوة مهمة في سبيل التهدئة العامة ، وقد ورد فيه :

١ — ان الحكومة الالمانية والحكومة الفرنسية تشاطر احداهما الاخرى كل المشاطرة، القناعة بان العلائق السلمية وصلات حسن الجوار بين فرنسة والمانية؛ تؤلف عنصراً جوهريا للاستقرار الاوربي وتأييد السلم العام ، وبحسب ذلك فان الحكومتين تبذلان جهودهما لضمان نمو العلائق بين بلادهما على هذه الطريقة.

٢ — تقرر الحكومتان انه لا يوجد بين بلادهما اي خلاف يتعلق بالاراضي ويعترفان رسمياً بان حدود بلادهما قد قررت نهائيا .

٣ — تعزم الحكومتان، مع الاحتفاظ بما بينهما وبين الدول الاخرى من علائق خاصة، على دوام الاتصال في جميع المشاكل التي تهم بلديهما ، وعلى تبادل التشاور فيما اذا تطورت هذه المشاكل في المستقبل تطوراً قد يؤدي الى مصاعب دولية .

اما وقع الاتفاق في انكلترة فقد كان شديداً ولا سيا في الاوساط المعارضة ، وساء بعض رجال السياسة في بريطانية ان بلادهم لم تقم الدليل القطعي على انهـا كانت مستعدة للقتال ، على حين ان هتلر لم يخفف من غلوائه الا عندما عرف انباء تعبئة الاسطول الانكليزي ، وقد وجـه اللوم الى شمبرلن لانه لم يجر على حسب القواعد التي تسير عليها الامبرطورية في سياستها الخارجية في الاتفاق الذي عقده مع هتلر في ٣٠ أيلول سنة ١٩٣٨ فلم يستشر شمبرلن زملاءه ولا دوائر حكومته المختصة ولا الحلفاء ولا الممتلكات، وذلك مع الثناء على مساعي شمبرلن واخلاصه ودأبه

وقـد ذكر زعيم المعارضة اتلي ان ماناله الالمان لم يستطيعوا ان ينـالوا اكثر منه لو انهم قاتلوا وحاربوا ، واحتج وزير البحرية داف كوبر معترضا على هذه الخطة ومنددأً بهـا ، وقال ايدن في اثناء ذلك انه يجب على الدمقراطيات ان تظهر من التصميم في السياسة ومن التفكير في الخطط مالايقل عن الشعوب الخاضعة لنوع آخر من الحكم ، ولا تستطيع السياسة الخارجيـة ان تستمر على الاخذبالقاعده : اطلبوا وخذوا ، فان التسليم لايؤدي الى غير الصغار المتوالي الذي يقود الى مطالب متوالية اكثر هوانا وصغاراً ، والاخطار التي تهددنا لاتدفـع بالكلم الطيب مهما كان يخرج عن قلوب صادقة ، ولكن تدفع ببعث جديد للروح الوطنية وعمل حازم في السياسة الخارجية يعيد وحدة الامة ، وقال تشرشل زعيم هذه الفئة : يجب علينا ان نعترف ان القوة الحرة قد اصيبت بفشل يجعلهـا اكثر ضعفا من الوجهة المادية والادبية لنواجـه اخطاراً متفاقمة . ولكن القوة التي تستعين بها قضية الحرية نفسها لها فضيلة تبعث القوة في النفوس وتمدهـا بروح جديدة ، فلننتظر اذا كانت لدينا وسائل للمقاومة ،فقـد اصابتنا كارثة كبرى تنكرت لها وجوهنا ، واذا كان قد ساء الموقف فمن الواجب ان نجد لجمع قوانا وتأليف جهودنا حول غاية مشتركة قائمة على الحق والواجب ، وليس ما نحن فيه من الامور الخيالية ولكن من الحقائق الواقعة ، فلا يعالج ولا تدفع مخاوفه بنير

الاتحـاد السريع والعزائم الصادقـة التي تسير الى الامام في سبيل التقـدم والتعـاون والاخاء .

وكان اشمبرلن وهاليفاكس غير هذه الآراء في معالجة الموقف ، فقد ذكر الاول ان الغاية التي يرمى اليها هي اجتناب الحرب ، ورد على الذين انتقدوا محادثته الودية مع هتلر ، وقال انه اراد ذلك ليتبين ماذا يكون وراء الاتفاق بين رئيس حكومة دمقراطية وبين دكتاتور ، وذكر ان الاتفاق البحري بين المانية وانكلترة دليل على ان الدولتين لا تريدان ان تتحاربا بعد الآن ، ثم بحث عن السلم فقـال : انه لا يمكن ادراك السلم الدائم بالانتظار والاكتفاء الدائم بهذا الانتظار ، والسلم يقتضي جهوداً عملية وجدية ، وكل ما صنعناه انمـا هو وضع قواعد السلم ، ثم تكلم عن نزع السلاح فقال : لا يظن احد اننا بعد اتفاقنا في مونيخ سنبطىء في بذل جهودنا فقد حاولنا في الماضي نزع السلاح المنفرد فقادنا الى تهلكة ، واذا كان نزع السلاح سيأتي ذات يوم فسيكون في مراحـــل ، وسيكون في اتفاق وتعاون بين سائر الشعوب ، واذا لم يتحقق ذلك فعلينا ان نبقى ساهرين يقظين . اما هاليفاكس فقد قال في خطبة له : يشهد العالم بعد اتفاق مونيخ تعديل معاهدة فرساي التي كانت قررت احتمال ذلك في ميثـاق العصبة ، ولكن لم يعمل ابداً في هذه المادة ، واشار الى مطالب المجر الشرعية ، واعرب عن امله بان تجري في اوربة الوسطى واوربة الشرقية الجنوبية تعديلات في الحدود تكون مطابقة لتوزيع العناصر ومعينة على تقرير السلم وتثبيته ، على انه لا يمكن الوصول الى غاية تنطبق على المثل الاعلى المراد ادراكه ، وستبقى اقليـــات وراء الحدود والتخوم ، ولكن اذا كان الفريقان اللذان يختلفان في امر يتفاوضان بنية حسنة ، ويرغبان حقيقة معالجة اسباب هـذا الخلاف وازالتها ، فحينئذ يرجى ان يكون الاتفـاق ممكناً على الضمانات التي تمنح للاقليات ، والتي تخفف المظالم وتسهل التعاون الودي في المستقبل ... والحرب ليست امراً لابد منه ولكن على انكلترة ان تتجهز حتى تستطيع ان تقول كلمتها ، وحتى

يكون عندها من القوة ماعند غيرها ، ولا يمكن ادراك الغاية مالم تتحد النفوس والقلوب ، وتنسى في السياسة الخارجية الاجتهادات والآراء المتباينة .

وهذا نص البيان المشترك الذي اذاعه نيفل شمبرلن وادولف هتلر في ٣٠ ايلول سنة ١٩٣٨ : نحن فهرر ومستشار المانية والوزير البريطاني الاول قد عقدنا اليوم اجتماعا جديداً واتفقنا على الاعتراف بان العلاقات البريطانية الالمانية هي ذات اهمية اولى لبلدينا ولأوربة ، ونحن نعتبر ان الاتفاق الذي تم توقيعه مساء امس في مونيخ والمعاهدة البحرية البريطانية لم يكونا الا رمزاً لرغبة بلدينا بعدم محاربة بعضهما لبعض ابداً ، وقد قررنا بان اسلوب التشاور هو الاسلوب الاصلح لتسوية جميع المشاكل التي تنشب بين بلدينا ، ونحن مصممون على ان نتابع جهودنا لاستئصال جميع مصادر الخلاف ونؤمل ان نثبت بذلك اركان السلم في اوربة .

وكانت الصحف البريطانية لاتنفك عن اطراء سياسة الوزير البريطاني الاول وكياسته واصالة رأيه، وترى ان خطة التسامح التي يسلكها تجعله في الصف الاول من العاملين على صيانة السلام في العالم ، وقد اسس بنيان سياسته على العمل المجدي لا على الكلام الضائع ، وهو يجد ويدأب في صمت ، وباقل مايمكن من الظهور ، ويعمل بفكرة وقادة ونظر صحيح ، لايحب الالحاح والجدل ، ولايخاصم ولايتهم ولا يهدد بقول او فعل ، وقد لايكون خطيباً بليغاً ، ولكن على كل حال يحسن التعبير عما يريد . وقد قالت جريدة التيمس في هذا الصدد بعد اتفاق مونيخ : لو تيسر الوصول الى اتفاق مشترك في السنين التي تلت الحرب ربما كان تطور المانية السياسي يتبع طريقاً غير هذا الطريق . والجهد الذي يبذل الآن لصيانة السلام لايمكن تأجيله بل ينبغي المثابرة عليه او التخلي عنه ، وكل مناقشة ينبغي ان تتوجه الى الغاية الآتية : هل يجوز ان تقاوم المطالب التي كان يجب ان تمنح لالمانية وهي ضعيفة ، لانها اصبحت الان قوية؟ ان تبدل خارطة اوربا الوسطى يستعجل القضاء على سياسة خطرة لم يكن لها امل بالبقاء ، وهي محكوم عليها منذ بدئها ، وكان ينبغي العدول عن هذه السياسة شيئاً فشيئاً ، واسدال الستار عليها

بهدوء واناة ، ولكن تركت هذه السياسة تتزلزل اركانها وتتقوض قواعدها ... وبفضل الوزير البريطاني الاول انقذت اوربة من ان يشملها الدمار ، وقد كان برنامج تعديل المعاهدات بسبب ذلك سريعا وعنيفا وقاسيا ، وفي بعض الاحيان استبداديا ، ولكن النتيجة ان اوربة الوسطى بدأت تنتقل كما قدر لها من سياسة قلقة مضطربة الى سياسة مستقرة ثابتة ، ويحق لبريطانية ان تنظر الى هذه الامور وتتأمل بها نادمة على مافرطت في سبيل السياسة الخرقاء التي حملت على التغاضي عنها واعاقتها بالمساعي التي كانت في طاقتها ، ويحق لها ايضا ان ترفض الآن كل خطة تدعوها ان تعارض ، لاسباب معنوية، فيما حدث من تغيير او ان تنكره او ان تعتبره مهدداً مباشرة لمصالحها المادية ، وختمت التيمس كلامها قائلة :

ان المانية تنهض من عثارها كما كان ينبغي ان يكون ، وهي دائبة في سبيل زيادة عظمتها وسلطانها ، وكان من المحتمل ان تؤثر الحوادث الاخيرة في السياسة التي تتبعها بريطانية ، واني لا اريد منها الا تأييد السلم مهما كانت المساعي التي تسخر له ، غير ان هذه السياسة قائمة على التصميم والثقة وعلى بذل الجهود لتنظيم اوربه وتثبيت الاوضاع الدولية التي لاتقوم على النفي والانكار فقط .

غير ان جميع هذه الآمال ذهبت ضياعا ولم تمض اشهر على اتفاق مونيخ حتى عاد شبح الحرب مخيماً في سماء اوربة . ولم تنقض اشهر حتى زالت شيكوسلوفاكية ، ولم تنقض اشهر اخرى حتى اندلعت نيران الحرب ، ولم يدرك العالم من الآمال التي عقدها على سياسة مونيخ الا خيبة بعد خيبة ، ولم يتمتع انصار السلام الا اياما قلائل بما رجوه واملوه .

٨ — زوال شيكوسلوفاكية واثره في اوربة

لم تكن الآمال التي عقدت على مونيخ الا سحابة صيف ، حتى ان هتلر كان يشكو خيبة رجائه لسفير فرنسة المسيو فرانسوا بونسه ، وقد ذكر هذا السفير في

تقرير لحكومته ان هتلر كان يفكر بان اجتماع مونيخ الذي ابعد شبح الحرب لابد ان يسجل مبدأ تقارب الشعوب وتحسين العلائق بينها ، ولكنه لم ير شيئاً من ذلك ، فالازمة لم تفته بعد ، وهي تنذر بان تنفجر عما قريب اذا لم يتبدل الموقف ولم تبق انكلترة تتجاوب بكلمات التهديد والدعوة الى حمل السلاح ، واخذ المستشار في صدد ذلك يطعن في انانية انكلترة وفيما تفكر به من الحقوق الممتازة على الاخرين ... فاجابه السفير ان الاغتباط الذي اثاره السلم عقبه رد فعل لم يكن منه بد بعد التضحيات التي اكرهت شيكوسلوفاكية على قبولها والعنف الذي عوملت به ، وهذا امر يثير النفوس ويستفز القلوب ، وقد دلت الخطبة التي القيت في سار بروكن ان التضحيات التي بذلت لم تجد نفعا ، وانها زادت في مطامع الريخ وعززت آراء خصوم مؤتمر مونيخ .

وفي كتاب ارسله المسيو كولاندر الذي خلف المسيو بونسه في ١٥ كانون الاول سنة ١٩٣٨ وصف دقيق للسياسة الالمانية كما كانت تتراءى له ، فهنالك رغبة سائدة في التقارب من فرنسة ، ورغبة سائدة ايضا في التوسع السياسي والاقتصادي والبحث عن مناطق نفوذ في الشرق وفي الشرق الجنوبي عند من شيكوسلوفاكية الى هنغارية واكرانية وبولونية ، وكأن الدولة الشيكوسلوفاكية التي انشئت لتكون حائلا دون التوسع الالماني اصبحت بتحول غريب الوقائع من منافذ سياستها وقواعد حركتها . وقد قل الاهتمام بقضية المستعمرات الا عند طائفة معينة ، وكان هتلر يظهر عدم الاكتراث بها ، ويقول انه اذا كان ينادي بها من حين الى آخر فذلك تأكيداً لحق المانية الذي لايجوز ان ينسى : وقضية المستعمرات كانت من القضايا المؤجلة لبضع سنين ، والظاهر ان النازيين كانوا يتبعون السياسة البريطانية القائمة على تصنيف المشاكل وتوزيعها على الزمان ، وكانت مطامحهم التي توقدها الحاجات والاطماع تسوقهم نحو الشرق حيث المخاطرة الجميلة، ومحاولة تحقيق هذا الامل العظيم الذي هم مدفوعون اليه.

وقد اخذت المانية تتنكر للاتفاق بما ابدته هي وايطالية من محاولات التخلص

من ضمان شيكوسلوفاكية في حدودها الجديدة ، وعلقتا ذلك على تسوية القضايا المتعلقة بالاقليات البولونية والمجرية ، ولم تفد المذكرات الشفوية ، ولا المذكرات المكتوبة ، وتمسكت المانية بخطتها محتجة بانه يصعب الوصول الى اتفاق يرضي الجميع في هذه الارجاء الكثيرة الاختلاف ، والحكم الذي اصدرته المانية وايطالية لم يستقبله اولو العلاقة الا بتحفظ ، واستشهدت المانية بما تلاقيه انكلترة من المصاعب بوضع الحلول المختلفة لفلسطين ، ولذلك فهي ترى ان تدخلا جديدا قبل اوانه وبدون ان يجدي نفعاً ، يثير عليها الانتقادات في بلاد تريد ان تحيا معها في سلم ومودة ، وتوسيع مدى ضمانات الدول الغربية لايكون عامل تهدئة للعناصر الجامحة في هذه المناطق ، بل هو عامل من شأنه مضاعفة الاهواء والشهوات ، والتطور العام في هذا الجزء من اوربة يرجع قبل كل شيء الى منطقة المصالح التي هي جوهرية جدا للريخ ليس من الوجهة السياسية بل كذلك من الوجهة الجغرافية والاقتصادية ، فمن الضروري قبل اتخاذ اي موقف ان ينتظر التطور الداخلي في شيكوسلوفاكية ، والتحسن الذي لابد ان ينتج عنه في علاقات هذه الدولة مع جيرانها .

ثم كان بعد ذلك التفكيك الداخلي ، واضطراب سلوفاكية بتحريض المتطرفين او المتصلين بالمانية ، وانتقاض حبل الامن في كل مكان ، ومطالب البولونيين والهنغاريين في روتينة ، واستدعاء المنسنيور تيزو رئيس الحكومة السلوفاكية الثائرة الى برلين ، وتصريح المانية بانها لاتعترف الا بحكومته ، واعلان استقلال سلوفاكية ، وطلب روتينية حماية برلين وتغافلها عنها ، واستدعاء الدكتور هاشا الى العاصمة الالمانية واملاء شروط الحماية عليه .

وقد تطور الموقف السياسي في منتصف شهر آذار سنة ١٩٣٩ وضاقت المحافل السياسية بما يمكن ان تؤدى الاحداث اليه من نتائج تنشأ عن انتهاك اتفاق مونيخ وازالة الثقة التي بعثت فيه . فدلت الوثائق السياسية المتبادلة بين الوزراء والسفراء البريطانيين والفرنسيين على ان الصمت يعرض دولتيهما لتهمة الاغضاء والتآمر

والاخلال بما اخذتا على نفسهما القيام به امام الرأي العام الدولي ، فاحتجتا على هذا العمل المغاير للقواعد التي اتفق عليها حينئذ ، والظروف التي وقع فيها حكام الشعب وثيقة ١٥ آذار من السنة المذكورة لاتسبغ عليها صفة الحق ، ولاتكون سبباً مشروعا للاعتراف بالوضع الجديد الذي اقامته المانية في شيكوسلوفاكية ، واحتجت روسية ايضاً بقولها انها لاتستطيع ان تعترف بضم الشيك الى الريخ وجعل سلوفاكية بهذا الوضع ، الذي يناقض شرائع الدول وقواعد العدل وحقوق الشعوب بان تتصرف بنفسها ، وعمل الحكومة الالمانية يزيد في الاخطار المهددة للسلم ، ويزلزل الاستقرار السياسي في اوربة الوسطى ، ويبعث في العالم الخوف والقلق .

وقد وصف المسيو كولوندر سفير فرنسة في برلين السياسة الالمانية في كتاب له بتاريخ ١٨ آذار سنة ١٩٣٩ قال فيه : ان الطريقة التي اودت بشيكوسلوفاكية تفوق ضربات النازي السابقة ، وتسبقها سبقاً بعيداً بما تميزت به من البهتان والغدر في اعداد الخطة ، والكتمان في التأهب ، والقسوة في التنفيذ ، فبعدان اقنع رجال الدول بان الالمان لايريدون ان يضموا اليهم عناصر اجنبية وان الشيك يكرهون كل ما هو الماني كرهاً شديداً ، ظهر في اثناء اجتماع اللجنة الدولية للتحديد في تشرين الاول ان الالمان انما يهمهم احراز حدود عسكرية لاحدود جنسية ، وانهم يرمون الى حرمان شيكوسلوفاكية من جميع وسائل الدفاع الطبيعية ومن جميع الحصون والمعاقل بحيث تصبح عاجزة من الوجهة العسكرية عجزا مطلقاً . ولم تبق الان قضية فصل الشيك عن الالمان امراً ضرورياً لتهدئة حوض الدانوب وتهدئة اوربة ، فقد غير ذلك عمل السلاح كل التغيير ، واصبحت العناصر الالمانية الشيكية التي كانت متضادة متناقضة شديدة الامتزاج والاختلاط ، وبعد ان كانت حياة هذين الشعبين بعضهما الى جانب بعض مستحيلة ، اخذت المانية تظهر اليوم للملأ ان ذلك الامر طبيعي ، وانه يتفق مع معنى التاريخ ، وينشأ من الضرورات الجغرافية والاقتصادية ، ولم يبق بحث الاحقاد المتوارثة بين الشيك

والالمان فان الشعبين هما ، بضد ذلك، قادران على ان يعيشا جنبا الى جنب وعاملان في مجموعة سياسية واحدة .

ولم تكن اتفاقات مونيخ في النهاية لأجل اقادة الالمان الا وسيلة لنزع سلاح شيكوسلوفاكية قبل الحاقها ، وقد يكون من المبالغة الادعاء بان الفوهرر قد اتخذ لنفسه هذه الخطة منذ مؤتمر مونيخ ، على انه من الحق مهما كان الامر ان الحاق بوهيمية ومورافية يجعل حكومة الريخ ،موقعة ميثاق ايلول ،مجرمة في نظر الدول التي شاركتها ، مسؤولة عن اساءة الاستعمال وعن الخيانة نحو الذين وقعوا معها ، وخاصة نحو حكومة الشيك التي وثقت بكلام الدول العظمى وسلمت بتجزئة بلادها .

فباسم مبدأ الجنسيات الحقت الريخ ثلاث ملايين ونصف الماني ، وبانتهاك هذا المبدأ تعلن اليوم انها تضم اليها ثماني ملايين من الشيك الذين ابقاهم التخلي عن السوديت بدون دفاع ، وباسم حق الشعوب في تقرير مصيرها تعلن المانية تأييدها لاستقلال السلوفاك الذي لم يكن الا امرا موهوما ، ولكن نفس الحق قد رفض للأوكرانيين في الكاربات الذين تركوا لهنغارية وبولونية ،كما رفض للشيك الذين اضافتهم الريخ اليها بالقوة ، فاظهرت بذلك المانية مرة اخرى ، تفضيلها سياسة العنف والامر الواقع ، ومزقت بحركة واحدة اتفاقات مونيخ وتحكيم فينة ،وبرهنت على ان سياستها لاتعرف الا مبدأ واحدا تسير عليه : انتهاز الفرصة واخذ الغنيمة التي تصل اليها اليد .

ثم قال كولوندر : لقد كانت الوقاحة الالمانية مرفقة ببراعة زائدة ، وقد اجتهدت حكومة الريخ وهي مسيطرة سيطرة مدهشة على الاشخاص والاحداث بان تظهر بمظهر شرعي في انتهاك الحقوق الذي قامت به في شيكوسلوفاكيا ، فعلى رأي المانية ان شيكوسلوفاكية انحلت من ذات نفسها ، وبتمزيق السلوفاك كل رابطة مع براغ ، اما بوهيمية ومورافية فقد رأت الحكومة انها عاجزة عن المحافظة على الامن وصيانة الاقليات الالمانية فسلمت امرها الى الفوهرر ، ولكن هذا الدليل

لايستطيع ان يخدع احدا . وبعد ان سرد الحوادث التي تدل على تثبيت الامور ، ووصف السرعة الخارقة التى نفذت بها المانية خططها ،استنتج السفير الفرنسي مما تقدم ان المانية الهتلرية كشفت القناع عن وجهها ، وقد كانت في الماضي تتنصل من كل فكرة امبرطورية وتدعي انها لاتريد الا ان تجمع المان اوربة الوسطى في اسرة واحدة مـع اقصاء العناصر الغريبة ، وقد اصبح الان واضحا ان جشع الفوهرر وظمأه لايعرفان حدا ، ومن العبث النجاح فيمقاومته ببرهان غيربرهان القوة ، فالريخ الثالثة تنظر الى المعاهدات كما كانت تنظر اليها الامبرطورية فيعهد غليوم الثاني،اي انها قصاصات ورق .

وكان شمبرلن يظن ان تصريحـه هو وهتلر فاتحة عهد جديد في السياسة الاوربية ولاسيما اذا طبق بنظام وعدل ، وقد قال لن ننتظر بعد الان ان تبلـغ الازمات بين الدول درجتها الحرجة بل نبادر الى تسوية المشاكل عندمايذرقرنها، وهذه هي الطريقة التي كانينبغي ان يحافظبهاعلىالسلم ، على انه مهما كانالتمسك به فلا ترضى الشعوب مطلقا ان تشتريه بالتنازل عن حقوقها ، والانكار لتقاليدها ، وقد يجوز الاقدام على الحرب اذا كان لابد منها وكانت نافعة في نتائجها ولكن التدهور فيها كمن يسقط مرغماً في الهاوية لايجوز لاى رجل من رجال الدولة ان يقدم عليه ، ولذلك فعندما شعر الوزير البريطـاني بخيبة آماله في السلم صمم على المقـاومة بجميع الوسائل التي تملكها بلاده ،والوقوف فيسبيل المناهج التي تجعل الحكومات المستقلة تخضع تحت تأثير القوة الى ضغط يبلغ درجة اكراههـا على التنازل عن استقلالها . وقال بعد الاحتلال الالماني لتشيكوسلوفاكية من خطابةله: ان هذا الاحتلال هو مناقض للمبادىء التي وضعتهاالمانية نفسها ، وتساءل اذا كان ذلك خاتمة مغامرة جديدة ؟ وهل هذه هي آخر حملة علىدولة صغيرة ام انهاستعقبها حملة اخرى ؟ واكد اللورد هاليفاكس ان عمل الحكومة الالمانية هو خروج تام على اتفاقات مونيخ،وانكار للروح التي كانت تسودالمفاوضات وتنطوي عليهاجوانح الذين اخـذوا على عاتقهـم ان يتعـاونوا بصدق في سبيل تنظيم السلام وتثبيت اركانه .

وكيفما كان الامر فان احتلال شيكوسلوفاكية جاء بعد الحاق النمسة، وكان لهذا الالحاق وقع عظيم في اوربة، ولكنه كان من الامور المنتظرة، فلما اصبح حادثاً مقضياً لم تستطع انكلترة وفرنسة وايطالية اعتراض سبيله اوانها لم ترد ذلك، اما احتلال شيكوسلوفاكية بعد مؤتمر مونيخ فقد كان نذيراً بالشر المستطير الذي عم العالم بعد اشهر على اثر الازمة البولونية .

٩ — مساعي روزفلت واجوبة هتلر

في اثناء الازمة الشيكوسلوفاكية بعث الرئيس روزفلت بمذكرة الى هتلر وبنش وشمبرلن ودالاديه يذكر فيها الخطر الذي يهدد السلم وما يمكن ان يصيب العالم من جرائه، واوضح كيف ان الولايات المتحدة ليس بينها وبين احد عقد سياسي، وليست متأثرة بمؤثرات الضغائن، وقد نشأت حضارتها من عناصر اوربة جميعها، فهي امام احتمال حرب عامة يكون امرها فيها كسائر الشعوب التي لاتستطيع ان تسلم من نتائج كارثة كهذه الكارثة، وسياسة الولايات المتحدة التقليدية هي تسوية الخلافات الدولية بالوسائل السلمية .

جاء في المذكرة ان الشعوب كلها تحب ان يسود السلم قبل ان تقع الحرب، لا أن يسود السلم بعد وقوع الحرب، واعاد الى الاذهان ميثاق بريان — كيلوغ في شأن تسوية المنازعات بالوسائل السلمية، هذا الميثاق الذي اشتركت فيه جميع الشعوب المتحضرة، كما انها جميعاً عقدت بينها مواثيق صيانة السلم ومواثيق التحكيم وتسوية الخلافات بالوسائل السلمية ... فمهما بلغ الخلاف في قضية ومهما كانت الصعوبة التي تعترض حلها، فلا شك انه ليست هنالك قضية لاتسوى بالعقل بدلا من القوة... ومادامت المفاوضات مستمرة لتسوية الامور المختلف عليها، فالأمل باق بان العقل وروح العدل لاينفكان يسودان، وانه من الممكن النجاة من جنون الالتجاء الى الحرب مرة جديدة .

ثم قال : انه باسم ١٣٠ مليوناً من الاميركيين ، وحبا بالانسانية،يناشد رجال الدول ابلغ مناشدة ، حتى لايقطعوا المفاوضات ويستمروا في البحث عن طريقة سلمية عادلة انشائية تسوى بها المشاكل القائمة .واعاد ماقاله بانه مادامت المفاوضات فالأمل باق ، ومتى انقطعت فانه يهجر المنطق وتحكم القوة ، والقوة لاتحمل اي تسوية تفيد مستقبل الانسانية وخيرها .

وقد كان لهذا النداء تأثير كبير عند رؤساء الدول مشجعاً على المضي في بذل المساعي للبحث عن تسوية سلمية بعد ان لاح شبح الحرب في تلك الساعة الخطيرة ، اما جواب هتلر فقد بدأ بالثناء على عمل الرئيس ، واخلى المانية من كل مسؤولية اذا انقادت الامور الى النزاع بعد كل مابذلته من الجهود ، ثم فصل رأي المانية في قضية السوديت ، وتعرض لعصبة الامم التي لم تقم بمهمتها حق القيام ، وذكر بعد ذلك انه طبيعي ان يطلب السوديت الاتحاد بالمانية بعد ان عادت لهذه قوتها وضمت النمسة اليها ، واشار الى ما كان من عدوان الشك وتحديهم وتعبئتهم، وعدم تدخل المانية وتمسكها بالهدوء والرزانة ، وحمل عليهم وعلى اساليبهم ومفاوضاتهم وعلى اضطهادهم للالمان، وذكر عدد اللاجئين منهم وما اصابهم من قتل وجرح ، ولم تبرح المانية على ذلك صابرة هادئة عاملة على الوصول الى تسوية سلمية عادلة ، وليست المانية مسؤولة اذا كانت توجد مشكلة المان السوديت وكانت مضطرة ان تطلب حلا سريعا لها .

وقد ارسل الرئيس روزفلت رسالة ثانية في ٢٨ ايلول الى هتلر دعاه فيها الى الاستمرار في المفاوضات مهما كلف ذلك ، واشار بعقد مؤتمر تشترك فيه الدول التي تهمها قضية شيكوسلوفاكية مباشرة ، فإن مصير العالم اليوم ومصيره غدا معرض الآن للخطر ، ونتائج الكارثة التي يمكن ان تقع بسبب حرب اوربية لايحصى عددها وليس الامر انه قد ارتكبت اغلاط او مظالم في الماضي ، فالعالم يطلب الينا نحن الذين تقلدنا رئاسات الشعوب ان نقوم بمهماتنا العظمى، وان نقود الى الخير مصائر

الشعوب بدون ان ترهقها عسراً ، وان تكلفها بان تبذل ثمن ذلك تعطيل الملايين من المواطنين او موتهم .

وذكر ان نداءه السابق كان يرجو من ورائه الاستمرار في المفاوضات واجتناب حكم القوة الذي لايجدي نفعاً، ولا سيما بعد ان قام البرهان على صحة نظره اذ حدث اتفاق مبدئي ، ولم يبق الا الوقت الكافي والمنهاج الواجب اتباعه والمهل اللازمة لاتمام عقد الاتفاق .

وقال : ان من رأيي ، وبحسب تجارب هذا العصر مازالت المثابرة على المفاوضات افضل طريقة لتسوية قضية آتية على اساس مكين ... وسنكون جميعاً مسؤولين اذا قصرنا في الاستماع الى اي نداء يراد منه دفع ماتجره الحرب من مصائب، وليس للولايات المتحدة مسؤولية في اوربة، وهي لاتريد ان تتحمل تبعة في الحادثات الحاضرة .. ولكنها مع ذلك فبحسب الحقوق التي نتمتع بها نعترف بالتبعات الملقاة على عاتقنا كمواطنين في العالم ... وان ضمير بلادي وارادتها يتطلبان ان يرتفع صوت حكومتها ، وان يرتفع مرة اخرى في الدعوة الى اجتناب الحرب .

وكانت حجج هتلر والالمان في الدفاع عن سياستهم في هذه القضية وفي غيرها هي انهم كدولة كبيرة لابد لهم ان يتمتعوا بما يسمونه بالمجال الحيوي ، كما ان هذه الشعوب كالشيك مثلا هي مدينة للشعب الالماني بجميع مالديها من حضارة وعمران ، كما انها داخلة في مدى نفوذه ، اما الشعوب الاخرى التي تدعي الفضيلة فما هي الوسائل التي اسست بها امبرطوريتها ؟ ودعوى انكلترة بان المانيــة تريد اجتياح العالم يرد عليها بان انكلترة تملك نحو ٤٠ مليون كيلو متر مربع ، وروسية نحو ٢٠ مليون كيلو متر والولايات المتحدة نحو ١٠ ملايين كيلو متر ، على حين ان المانية ليس لديهــا الا نحو ستمئة الف ، وهي مع رغبتها في التصافي مع بريطانية العظمى لاتحب ان يكون ثمن هذا التصافي اي تنازل عن مصالحها الحيوية ، وليس للدول الغربية ان تتدخل مطلقاً في شؤون اوربة الوسطى واوربة الشرقية، وكان هتلر يقول للسفير الفرنسي : ان المانية تنــازلت عن حقها في الالزاس واللورين ، على

ان ابناءها لا ينسون كاتدرائيـة ستراسبورغ ، ولكن استعادة الالزاس تكلف الالمـان دماء كثيرة وهم يريدون ان يختم هذا النزاع بينهم وبين فرنسة ، والالمان يحتجون ايضاً بسياسة التطويق التي تتبعها انكلترة وفرنسة ولا سيما بعد الضمانات التي اعطيت لبولونية ، ويعدونها غدراً وخداعاً .

وكان من هذا القبيل رأى هتلر في قضية نزع السلاح ، فالمانية وحدها التي نفذت هذا الشرط والتي اكرهت عليه ، اما الدول الاخرى فقـد استمرت على تسلحها ، وبسطت في اعمالها سلطانها ، ولجأت الى السيف في فتوحها ، واجبرت اهلها على الخضوع بالقوة من غير ان تبالي بقاعـدة حق الشعوب في تقرير مصيرها والتصرف بشؤونها ، وما كانت في ذلك الامخاتلة ماكرة ، مسرفة في سوء استعمال الثقة ، وكثيرا ماناقش هتلر بريطانية في وجودها بفلسطين واحتج بعهود ولسن التي نكث بها وانكرها واضموها .

اما الاساليب التي يتخذها هتلر فهي في رأي خصومه كذلك قائمة على الحيلة والدسيسة ،والايقاع بالخصم،والاستعانة بالعنف ،والمسارعه بتحكيم القوة ، واكل ذلك مقدمات كارسال الالمان زرافات ووحدانا بحجة السفر والسياحـة ليكونوا عند الحاجة متأهبين لتنفيذ الخطط الموكولة اليهم ، وكتحريض الصحافة،واحداث القلق حول مايدعى من ارهاق الاقليات الالمانية وسوء معاملتهـا ، فلا بد حينئذ لشعب كبير من ان يغضب لنفسه ويثأر لكرامته ويبذل معونته لابنـــاء جنسه، ويكون انتهاء التعبئة بالتجاء فريق من الالمـان الى بلاد الريخ حيث تشتد الشكوى من سوء مايلقونه ، وحينئذ يصبح لالمانية الحق في التدخل ، اما لصيانة شرفها المهدد ، واما لتقوم مقام السلطات المتخلفة عن القيام بواجباتهـا ... وهي مثلا لاتقبل ان تصبح حدودهـا من جهة بولونية مكدونية ثانية ... ولا تقبل ايضا ان تقام في بلادها حواجز مثل الرواق البولوني ، الامر الذي يأباه كل شعب كبير.. ولا ترضى ان تكون بلادها مثل دنتزغ غرضا للمطامع الاجنبية .

ومن هذا القبيل ان الاتفاق قد عقد بين المانية وبولونية سنة ١٩٣٤ لمـدة

عشر سنين ، ولكنه في الحقيقة لم يكن الا هدنة ، فكانت بولونية تؤمل ان تصبح هذه العشر سنين دولة معظمة مخوفة الجانب ، وكانت المانية تريد ان تسوي مشاكلها الواحدة بعد الاخرى ، وكانت حيلة المانية التي مرت على بولونية في اثناء الازمة الشيكوسلوفاكية قادت تلك الدولة الى ارتكاب اكبر الاغلاط ، فحسبت انها تغنم على حساب جارتها ، ولم يكن ذلك الا مقدمة للقضاء عليها نفسها بعد ان قضت على الدولة الاخرى ، وكذلك صنعت بعد ذلك في سكانديناڤية فمنعت السويد والنروج من مؤازرة فنلندة ، ثم التفتت الى النروج واستولت عليها بعد ان ارسلت الى سواحلها سفناً مكتظة بالبحارة الذين لم يكونوا الا جنوداً .

ولما اخذت تشتد الازمة في نيسان سنة ١٩٣٩ بعث الرئيس روزفلت برسالة الى هتلر وموسوليني دعاهما فيها ان يتعهدا بالامتناع عن مهاجمة احد وعن الاغارة على بلد مستقل ، وذكر لهما المخاوف التي تملأ العالم من حرب جديدة حتى لو كانت محددة فانها تؤثر على الشعوب وتثقل كاهل الاجيال ، وذكر انه كثيراً ماحضهما على تسوية المشاكل العالمية من سياسية واقتصادية واجتماعيـــة بالوسائل السلمية وبدون الاعتماد على السلاح الذي يهدد فيه سير الحوادث ، فاذا بلغ هـذا التهديد مداه اضحى على مايظهر جزؤ كبير من العالم عرضة للخراب الذريع ، والعـالم بأسره من الشعوب الغالبـــة الى الشعوب المغلوبة والشعوب المحايدة لايسلم من ارزاء الحرب .

ثم قال : اني لارفض ان اعتقد ان العالم محكوم عليه حتما بمثل هذا المصير ، بل اعتقد بضد ذلك انه من واجب رؤساء الدول ان يصونوا شعوبهم من النازلة القريبة ، ولا شك ان الشعوب في قلوبها وفي افكارها تريد ان تنتهي المخاوف التي تساورها ، وذكر بعد ذلك كيف ان ثلاثة شعوب اوربية وشعباً في افريقيـــة قد اضاعوا استقلالهم ، وكيف ان اجزاءاً واسعة لشعب مستقل في الشرق الاقصى قد احتلها شعب مجاور ... وهنالك شائعات عن اعتداءآت جديدة على بلاد مستقلة ... وقد اقتربت الساعة التي تنتهي فيها هذه الامور بكارثة اذا لم تكن هنالك

وسيلة حكيمة تعالج بها الحوادث . وقال : لقد بينتم مراراً ان شعبكم لا يريد الحرب، فاذا كان هذا حقاً فان الحرب لا يجوز ان تقع ، ولا شيء يستطيع ان يقنع شعوب الارض بان دولة يحق لها ان تتحمل اعباء حرب ونتائجها او انها بحاجة اليها الا اذا كان ذلك للدفاع عن بلادها ، واذا كان هذا هو الرأي السائد عند الامريكيين ، فما هو عن انانية ولا عن ضعف ولا عن خشية ولكن حباً بالانسانية ، وقناعة بان المشاكل الدولية تسوى كلها بالمفاوضة ... وليس من حق احد من اولي العلاقة ان لا يجيب الدعوة للمفاوضة الا اذا تلقى قبل كل بدء ضماناً باقرار الخطة التي توافق ما يريده ، حتى يضع السلاح، فان في قاعات المؤتمر كما هو الامر في المحاكم، من الواجب ان يبدأ كل فريق المناقشة بصدق ، قانعاً بان العدل الجوهري لابد ان يصيبه ، ومن الاصول بل من الضروري ان ينزع كل واحد سلاحه قبل دخوله ويضعه على الباب.

وذكر الرئيس بعد ذلك ثقته بالسلم العام اذا تقدم الجميع الى البحث فيه باخلاص وصراحة ، وطلب الى مخاطبيه اذا كانا يتعهدان بانهما لا يعتديان على اي بلد من البلدان المستقلة الآتية : فنلندة ، استونية ، لتونية ، لتوانية ، السويد ، النروج الدنمرك ، هولندة ، بلجيكة ، بريطانية العظمى ، ارلندة ، فرنسة ، البرتغال اسبانية ، سويسرة ، ليختنشتاين ، لوكسمبرج ، بولونية ، هنغارية ، رومانية يوغسلافية ، روسية ، بلغارية ، اليونان ، تركية ، جزيرة العرب ، سورية فلسطين ، مصر ، ايران ... وبحث عن عقد ميثاق عدم اعتداء لمدة خمس وعشرين سنة ، وعن تخفيض السلاح ، واستئناف التجارة الدولية ، وذكر التبعة الملقاة على عاتق رؤساء الدول في صيانة الانسان وتأمين رغده ، ودفع الاخطار المحيطة به . وكذلك ما انفك الرئيس يدعو الى السلم ويدعو الى حل الخلافات بالوسائل السلمية او بالتحكيم .

وقد استقبلت الدول الدمقراطية هذا النداء بحماسة كما كانت تستقبل من قبل نداءآت الرئيس ولسن . ومما يذكر ان كالينين رئيس الاتحاد السوفيتي بعث الى

الرئيس روزفلت برقية قال فيها : انه يرى ان من واجبه المحبب له ان يعرب للرئيس عن تهانئه الخالصة وعن عطفه العميق على هذا النداء النبيل الذي ارسله الى حكومتي الريخ وايطالية ، وقال : انكم تستطيعون ان تتأكدوا ان دعوتكم ستجد اشد الاجوبة حماسة في قلوب الشعوب التي ترغب باخلاص ان تثبت اركان السلم في العالم .

ولكن عندما اهتم البيت الابيض بامر فنلندة وانكر عليه السوفيت ذلك، رأى الرئيس روزفلت ان الجواب الوحيد الذي يرد به على مولوتوف هو نشر الرسالة التي بعث بها اليه كالنين رئيس الاتحاد السوفيتي في ١٦ نيسان سنة ١٩٣٩ شاكراً ومؤيداً .

وكان جواب المانية على نداء الرئيس روزفلت انها اخذت تطالب من كثير من الشعوب التي ذكرها الرئيس روزفلت ان تعلن بانها لم تكن مهددة باي خطر ، والقى هتلر خطبة يرد فيها على رسالة الرئيس الامريكي السلمية التي اسلفنا ذكرها والتي عدد فيها الشعوب الواجب رعاية استقلالها ، وبينا ان غايته الوحيدة اصلاح ما افسده الآخرون بسياسة العنف وحكم القوة ، والمانية الكبرى لم تضم اليها شبراً من ارض لم تكن لها من قبل .

وبحث عن السلم المهين الذي الزمت المانية بالتسليم به سنة ١٩١٩ ومن حرمان الملايين من الرجال من التمتع بحقوقهم وبحرية ارادتهم، وما كان من فصلهم عن وطنهم بالطرق الاستبدادية ووضعهم بين عناصر جديدة دون ان يعبأ بصلة الدم وصلة العواطف ... ولما عبثت معاهدة بحقوق الشعوب وحالت دون تقرير مصير انفسهم بانفسهم وجب تعديل شروطها وتغيير قواعدها ... وذكر انه بعد استعادة وادي السار القى بصورة نهائية جميع المشاكل الارضية التي كانت قائمة بين فرنسة والمانية ، وقد اراد بذلك توطيد السلم في اوربة ، ولكن مع ذلك حدثت في السياسة مشاكل لم تكن المانية بمسؤولة عنها ، والمسؤولون هم من المناصر الدولية التي ترغب في خدمة مصالح اصحاب رؤوس الاموال .

وانتقل الى البحث عن التأكيدات التي وردت عليه من دول كثيرة مصرحة بان المانية لا تهدد واحدة منها، كما انها لم تعرض عليها اي اقتراح يمارض سيادتها. اما ضم النمسة الى المانية وحماية بوهيمية ومورافية فقد بررهما بقوله في شأن النمسة انه كان يصرح دائماً بأنه سيضمها الى المانية ، وقد استولت عليه هذه الفكرة في ليله ونهاره ، حتى طوى اسوأ صفحة من معاهدة فرساي ، اما بوهيمية ومورافية فقد تسربت اليها شعوب سلافية غريبة حيث كان يعيش اربعة ملايين من الالمان ، واذا كان قد اتسع نفوذ الشيك الثقافي فذلك بفضل الثقافة الالمانية وليست مباني براغ نفسها الا من صنع هذه الثقافة ، ولم تخلق معاهدة فرساي شيكوسلوفاكية الا لايجاد عنصر مقاوم لالمانية ، وتسوية هذه القضية ، لا تهم غير الالمان القاطنين في هذه البلاد ، ولا علاقة قطعاً للدول الغربية فيها ، ومع ذلك فان اهتمام هذه الدول بهذه القضية يرجع الى ان شيكوسلوفاكية كما قال احد الوزراء الفرنسيين قاعدة جوية لمحاربة المانية ، ولهذا قرر الزعماء الالمان ان يقضوا على هذه القاعدة الجوية ويزيلوها ، وهم لا يحملون اي حقد على الشعب الشيكي وسيحترمون المبادىء العنصرية في معاملته .

وانتقد تدخل انكلترة وفرنسة واحتجاجهما في الوقت الذي تلاشت فيه شيكوسلوفاكية بطلب قسم كبير من سكانها ، حتى ان الدولة الوحيدة التي كان يحق لها ان تحتج وهي رومانية اعرب لها ممثلها بقوله : ما اكثر ماتشتهي الحكومة الرومانية ان تحصل على اتصال مرتبط بالمانية عن طريق اوكرانية وسلوفاكية ، وتكلم عن العلائق مع بريطانية وذكر انه ليس بين المانية وبينها خلاف الا فيما يتعلق بالمستعمرات وهذا امر لا يؤدي الى الحرب ، ثم بحث عن دنتزيغ . وعن الممر البولوني ، ومعاهدة الضمان بين بولونية وانكلترة ، فقال انها مناقضة للميثاق المعقود بين المانية وبولونية بدعوة بولونية نفسها ، وان المانية لا تقبل مطلقاً الاشتراك بمؤتمر دولي تظهر فيه كأنها امام محكمة عدل ، ولكنها لا تأبى ان تضمن سلامة جميع الدول التي عددها الرئيس روزفلت على شرط ان تطالب هذه

الدول هذه الضمانة من المانية بدون وسيط وبطريقة متبادلة ؟ وذكر اليابان وحسن علائقها مع المانية ، وقال ان التعاون بين الدول الثلاث : المانية وايطالية واليابان هو الشرط الاساسي الذي يبنى عليه التمدن الحقيقي ويوطد نظاما عادلا في العالم ، وذكر ان الدول التي طلب روزفلت عدم الاعتداء عليها اعطت بنفسها اجوبتها ، وانتقد بتهكم طلب الرئيس ضمان سلامة سورية وفلسطين وارلندة وعدم الاعتداء عليها قائلا : ان سورية ليست حرة في التصرف بنفسها ، وهي تلاقي العسف من دولة دمقراطية ، وكذلك ارلندة وفلسطين ، وكان يحسن بالرئيس روزفلت ان يوجه نداءه في شأن هذه الدول الى فرنسة وانكلترة ، ثم قال : اني لا أعد نفسي مسؤولا عن مقادير العالم ، لان العالم لايهتم كثيراً بمقادير المانيه ، وليس لي الا غاية واحدة وهي ان اخدم بلادي .

وقد اكتفى هتلر بهذه الخطبة ، وبقي نداء روزفلت بدون جواب ، وعد ذلك في وقته مخالفا للمجاملات الدولية والأساليب المألوفة ، وتجاوز الامر هذا الحد بين زعيمي الدولتين ، فلما نشبت الحرب كان روزفلت ينتقل من مرحلة الى مرحلة في عدائه الصريح للنازية ، وكان جمهور الامريكيين يسير وراءه ، وكان اسلوبه غير اسلوب الرئيس ولسن الذي كان في بدء حرب سنة ١٩١٤ يطلب من الاميركيين ان يبقوا حياديين ليس في اعمالهم وكفى بل في ضمائرهم ايضاً ، اما هو فقد بين منذ ابتداء الحرب مايدل على ان للامريكيين ان يكونوا في ضمائرهم حيث شاؤوا ، وفي تأييد الجانب الذي يوافق آراءهم وميولهم ، ولكنه مع ذلك كان يفاخر بالسير على منهاج الرئيس ولسن ، وتتبع تقاليده ، حتى انه احيى في اثناء الحرب ذكراه في موطن ميلاده ، واشار في هذه الذكرى الى السياسة الخاطئة التي كانت تدعو الى العزلة ، فالعزلة لاتصون الدول الدمقراطية التي تحسب انها تكون بنجوة من الاخطار في انتهاج هذه السبيل .

وقد يستوقف متتبعي الحوادث ما كان من التهكم على مبادىء الرئيس ولسن

في اثناء عقد معاهدة فرساي وكيف ان هتلر نفسه الذي كان عاملا على هدم هذه المعاهدة وحاملا لواء المانية التي نبذتها ونقضت بنيانها لم يغفل في حججه ومدعياته القول بان تنكر الحلفاء لمبادىء ولسن هو الذي قاد الى ذلك السلم الذي لم يستمر ربع قرن على حين انه كان يظن في اثناء وضعه انه يؤسس للقضاء على الحروب وتسوية المشكلات وارضاء الشعوب ، وروزفلت نفسه الذي وقف في وجه هتلر سراً وعلناً ، كان كذلك مشيداً في ذكر الرئيس الذي حاول ان يدخل المبادىء الاخلاقية في الخطط السياسية ، ولكن الاطماع والشهوات جعلته يخفق في حينه ، فكان اخفاقه رزءاً نزل بالقواعد الشريفة ، وقاد العالم الى الحروب المردية المهلكة .

فاي تكرمة تبذلها الانسانية للرئيس بعد ان طواه الثرى عندما يتفق الخصوم على الاشادة بمبادئه ، التي لم يكن يعدها الذين يفاخرون بدهائهم السياسي شيئاً مذكوراً في السياسة ، على انها كانت تخرج بالانسانية المحكومة بسلطان القوة من عالم الى عالم ومن طور الى طور ، وليس الفشل الذي منيت به بمؤثر في عظمها وسموها ، لان الحقائق لاتبرح تملك النفوس وتستهوي القلوب ، وان غلبت للباطل في حين من الدهر حتى ظن انها اصبحت نسياً منسياً ، ولكن لاتبرح ان تظهر بضوئها الذي يخطف الابصار ، ولمعانها الذي يملأ الاجواء ، ولو ان سداد الرأي الذي يدعيه بعض رجال السياسة بعد فوات الفرصة يتصفون به في الايام المواتية لدفعوا عن امهم بل عن العالم مكاره وارزاء كانوا يستطيعون النجاة منها ، وقد تساءل كثير من الفرنسيين كيف ان الرجال الذين استنكروا معاهدة فرساي منذ عشرين عاما قالوا مع القائلين بان هذه الوثيقة لاتمس،وفضلوا بان يضحوا بالرجال ولايضحوا بالاحكام ، وما ذلك الا بسبب الانقياد الاعمى الى الاساليب التقليدية القاتلة التي قادت الى حرب ١٩١٤ وحرب ١٩٣٩ ، ولو استطاعت السياسة ان تتحرر من هذه التقاليد وسارت على آثار الرئيس ولسن لابقت على الانسانية وصانتها من شرور كثيرة .

١٠ — ازمة الحرب وبواعثها

تداعت اوضاع معاهدة فرساي واحدا بعد واحـد ، فاصبحت الحرب امراً لامفر منه ، وكانت مشكلة بولونية سببها المباشر ، وتحققت بذلك نبوءة الذين اعتقدوا في اثناء انعقاد مؤتمر فرساي مثل لويد جورج وسمطس ، انه لن تنقضي عشرون سنة حتى تسبب هذه المشكلة نشوب الحرب،اذا لم تسببها منطقـــة الرين وتجريدها من السلاح ، ولا شك ان هنالك اسباباً اخرى ترجـع الى استفحال الخطر الالماني وتخوف البريطانيين من عواقبه، كما كان الامر عندنشوب الحرب سنة ١٩١٤ ، وتحققت كذلك نبوءة الذين صرحوا مثل سفورزا الايطالي بانه عنـد نشوب حرب بين المانية وبولونية فان روسية لن تكون في جانب بولونيـة — كما يظن البولونيون — لانها تمد ببصرها الى انتزاع العناصر الروسية منها ، وهي لن تخشى غائلة اليابان لانها في شغل شاغل من اطماعهـا في سهول آسية الفسيحة وارجائها المترامية ، ولكن قادة الجيش البولوني كانوا يعتمدون قبـل كل شيء على سيوفهم ...

وقد بعث الرئيس روزفلت برسائل شتى في الدعوة الى حل الخلاف بالوسائل السلمية او باللجوء الى التحكيم ، وكذلك كان نداء البابا ونداء ملك البلجيك باسم مجموعة دول اوصلو واللكسمبرغ وهولندة علاوة على دولته ، لان هذه البلاد كانت تخشى ان تصبح ضحايا نضال محتمل وقوعه ، وستساق اليه كارهــة مهما حاولت ان تحافظ على استقلالها ومهما تمسكت بحيادها ، كما انها تكون عرضة لحلول تتعلق بها من غير ان تكون شاهدة لها ، على انه بدون ان تبدأ المعــارك فالعالم مهدد بدمار اقتصادي ، فالشكوك والشبهات مستولية ، والمعسكرات تجتمع على مشهد من العالم ، فهل تريد القارة الاوربية ان تنتحر في حرب مخيفة لاتبقي على غالب ولا مغلوب ، ولكن تضمحل فيهـا جميع القوى المعنوية والمـادية التي اوجدتها عصور من الحضارة ؟ وهل من شعب يريد ان يبعث بابنائه لمحاربة شعب

آخر ابتغاء حرمانه من حق الحياة الذي يريده لنفسه ؟ نعم ان مصالح الشعوب ليست جميعها واحدة ، ولكن ماهي المصالح التي لايمكن ان تسوى قبل الحرب تسوية تفوق مايمكن ان تناله بعد الحرب ؟ وحق الحياة ينبغي ان يكون قائما على اساس مكين ، والسلم الذي نريده ينبغي ان يحترم حقوق الشعوب كلها ، والسلم الثابت لايؤسس على القوة ولكن على نظام من الاخلاق ، وهكذا كان رأي الدول المحايدة الذي استمرت في الدعوة اليه ، حاسبة حساب الاخطار التي تهددها في اوربة والتي ما عتمت ان اصابتها ، وقد حاولت حتى بعد نشوب الحرب وانتصار المانية في بولونية ان تبذل وساطتها لاعادة السلم ، فلم تجد من يصغي الى دعوتها ، لان الالمان كانوا سائرين في خطتهم ، وان كان هتلر قد خطب داعيا الى السلم ومؤكدا، كما دلت الوقائع، ان ذلك لم يكن عن ضعف ، اما انكلترة وفرنسة فكانتا تقولان بلسان وزرائهما ورؤسائهما انهما تريدان متابعة الحرب ، لان الذين لايعرفون الا لغة القوة سيجدون القوة هي الجواب الوحيد ، وانهما لن تضعا السلاح قبل ان تضمنا لاوربة عهداً خاليا من التهديد الذي شل حياة الشعوب مدة طويلة، فيحرم كل اعتداء مرة اخرى على الحق ، وتعطى الضمانات العملية من وجهة سياسية واقتصادية حتى تحترم في المستقبل حرية جميع الشعوب ويحرر الرجال من المخاوف، ولا يكون السلم دائما ثابتا الا باصلاح ما افسدته القوة ونقضه الغدر بالعهد.

وقبل ان تبدأ الحرب ارسل المسيو دالاديه كتابا الى الهر هتلر ذكره ماتجره عواقب الحرب ودعاه الى حسم الخلاف مع بولونية التي ترتبط بها الحكومة بعهد من الشرف لاتستطيع ان تخل به ، كما لو كانت المانية نفسها مرتبطة بمثل هذا العهد، وقد اجابه عليه المستشار الالماني بكتاب اكثر تفصيلا بحث فيه عن العلائق بين فرنسة والمانية، وعن تنازله حبا بصيانة السلم بين الفريقين عن المقاطعتين الالمانيتين (الالزاس واللورين) اللتين بذلت في سبيلهما دماء كثيرة، وقد قرر الالمان ذلك قولا وعملا حتى انهم اقاموا من دونهما حصونا عظيمة حملتهم اعباءً ثقيلة ، يعدونهما بذلك خارجتين عن الحدود الالمانية .

وبحث الهر هتلر العلائق بين فرنسة وبولونية فتساءل اذا كان يستطيع المسيو دالاديه ان كان في مكانه ان يصبر على الظلم الذي الحقته معاهدة فرساي بالمانية فشطرت بلادها وسلخت عنها ربوعا فيها مايزيد عن مليون الماني خاضعين لدولة اجنبية تسومهم العسف والخسف ، افلا يصنع صنعه اذا كان الامر يتعلق بأرض فرنسية مثل مرسيلية ؟ وذكر ان معاهدة فرساي لاتطاق ، وانه لابد ان تعود دنتزغ والممر الى المانية ، وقد اضاعت بولونية فرصة قبول الشروط المنطوية على السخاء والكرم التي عرضها عليها الهر هتلر والتي لايستطيع ان يعرضها سواه ، ولو ان انكلترة، بدلا من حملة التشهير بالمانية والتحريض عليها ، كانت نصحت بولونية بالاصغاء الى صوت العقل والحكمة لما كانت ركبت متن العناد معتمدة على الضمانات التي منحتها اياها .

ثم ابدى اسفه ان يكون رجال عظماء في فرنسة وغيرها مازالوا يعتقدون ان الابقاء على معاهدة فرساي امر لامنطق فيه ولاعدل ، ومع ذلك فالشعبان يقتتلان : احدهما لازالة الظلم وثانيهما للاحتفـاظ به ، وقال : انني اعلم حق العلم ماتجره عواقب الحرب من الشرور والمكاره ، ولكن بولونية ستتحمل اعظم هذه العواقب ، ومهما كانت نتيجة الحرب فان دولة بولونية القائمة اليوم لن تعود ابدا .

وقد قال المسيو دالاديه في خطبة له : تقلدنا السلاح لمقاومة الاعتداء ، ونحن لانضعه الا اذا نلنا ماننبتغيه من امان لايكون موضعا للبحث في كل ستة اشهر ... ومن يضمن ان هتلر لايحنث بوعده المتعلق بالالزاس بعد ان حنث في كثير من مواعيده ومواثيقه .

وقد جرت الحوادث تباعا فدعي الريشستاغ في صباح اول ايلول لسماع خطبة الفوهرر الذي قال ان بولونية جعلت الحرب امرا لابد منه ، وان المعارك قد بدأت ، وكانت حكومة الريخ قد اذاعت مساء ٣١ آب المقترحات الالمانية التي كانت تنوي ان تعرضها على مندوب بولوني والتي عينت موعدا لها في ٣٠ آب . ولكن لم يأت اي مفوض من هذه الدولة قبل انتهاء المدة المضروبة ، فابلغها فون روبنتروب الى

السفير البريطاني بعد منتصف الليل ، وقد ورد في هذه المقترحات وجوب عودة مدينة دنتزيغ الحرة فوراً ، وتنظيم استفتاء في الممر ، ومنح المانية ارضاً يكون عرضها كيلو مترا تنشىء فيه طريقاً للسيارات وسكة حديدية ... واعلن ارتباط مدينة دنتزيغ بالمانية ، وكان بعد ذلك انذار الحكومتين الانكليزية والفرنسية المانية بسحب جنودها من بولونية ،واذيعت النداءآت الحماسية الى الشعوب ،واعلن شمبرلن انه مادامت انظمة الحكم النازي قائمة في المانية فان اوربة لاتعرف القرار ، وتمنى ان يعيش حتى يرى زواله .

واشتبكت اوربة في حرب ضروس كانت الشعوب الامنة وقوداً لها كالشعوب المحاربة ، وتطورت السياسة تطورات عظيمة بتأثير الحرب وانتصار الالمان في الوقائع ، وكانت هنالك دولة تكتنفها الاسرار هي روسية التي حققت بعد الاتفاق المعقود بين المانية وبينها جزءا كبيرا من مطامعها بأيسر مايكون من العناء ، وذلك قبل اشتباكها بالحرب ، وخرجت فرنسة من صفوف المتحاربين بعد ان كسرت شر كسرة ، وتنازلت القوتان العظيمتان المانية والامبراطورية البريطانية الاولى تعتمد على مؤازرة ايطالية واليابان ، والثانية على مؤازرة الولايات المتحدة وروسية ، واصبحت الحرب بين مجموعتين او بين مبدأين كلاهما يستمد من الماضي خططه ومذاهبه ، ولكن احدهما يتخذ القوة قبل كل شيء وسيلة في بسط سلطانه ، وثانيهما يمزجها بشيء من القواعد الاخلاقية التي يراد ادخالها في السياسة .

ملحق

آراء لرنان واناطول فرانس

في العقائد والسياسة والمجتمع

القى اناطول فرانس الاديب الفرنسي والكاتب اللبق البليغ خطبة نفيسة في ذكرى مرور مئة سنة على مولد رنان سنة ١٩٢٣ ، وقد افتن فيها افتناناً بديعاً وجاء بفوائد جليلة من آراء ذلك الفيلسوف العبقري ، في العقائد والسياسة والحرب والسلم والطريقة المثلى لتكوين امة وايجادها ، وكنت نشرتها حينئذ في « المقتطف » واحببت الان اضافتها الى هذا الكتاب وهي :

ولدت مع الدمقراطية عبادة عظماء الرجال . ونشأت في فرنسة ايام الثورة فقامت مقام اجلال سلطان الاجساد الذى كان له وحده المنزلة والكرامة في العهد القديم . وقد انتزع من ذلك اوغست كونت عقيدة الانسانية وملتها التي تدين بها. وشهد الناس في هذا العام اجلال ذكرى باستور ورنان . ومن وفاء الذمة ان نضيف الى اكرام (السوربون) اكرامنا نحن من غير ان نحاذر ابدا ان لايكون كلامنا الا ترديدا للاقوال الرسمية .

ما اجدرنا ان نشكر صنع رنان الذي انقطع للعلم واخلى له ذرعه وما في سوى العلم ضمان لان تحيا الشعوب حياة طيبة سعيدة ولاسبيل غير سبيله ، لقد انفق رنان اوقاته على تعلم اللغات ودرس الكتب القديمة ونقد الاصول وفن الجمال والتاريخ ، وسائر العلوم التي تعين على ادراك كنه الانسان واستجلاء اسراره ،

وترجى ذات يوم لاستنباط الفلسفة والسياسة والاخلاق التي يحملها الدهر في طياته. طارت نفس رنان في فضاء بعيد عن سلطان الالفة والتقليد اذ هي اكبر من ان تقف عند رسم وتقتصر على حد، وقد وجه صاحبها عزيمته لمعالجة الشؤون الكبرى التي تهم المجتمع البشري قاصيه ودانيه.

قيل انه من اشياع الارسطوقراطية، نعم! ولكن لم يعرف الارسطوقراطية واحدة! هي ارسطوقراطية العلم. قيل انه يرجع القهقري في آرائه، ياعجبا لهذه الرجعة التي يرمي بها الرجل القائل: « ان أهدى الاراء واثبتها على الزمان اكثرها تقدما وابعدها غاية » على اننا لانحكم على سياسته بجملة واحدة من كلامه وهو لم يكن يسر رأيه بلزوم انتقاص شأن الحكومة في الاعمال ووجوب اطلاق الحرية الكاملة للافكار.

وليس مما يجمل بي ان اضم رنان الكبير الى صفوفنا بشدة وعنف. ولعمري انه لاينبغي لنا ان نحاول انزال العبقرية الى مستوى افهامنا فلندع له من الحرية مالا نستطيع تناوله، بل لانستطيع ادراكه، ولنذكر ان في لغة هذا الفيلسوف — الذي مرت عليه المائة من السنين بل عصور لانحصيها لانه ادرك ايام اليونان الزاهرة وعاش في ظل رومة سيدة العالم — كلمات لاتحيط بها المعاني المحدودة التي تمنحنا اياها. فقد كان لكلمتي السلطنة والجمهورية عند مؤرخ تراجان ومرقس اوريليوس معان اوسع مجالا واكثر اختلافا عما دلتنا عليه تجاربنا التي لاتقاس بتجاربه.

ولاينبغي لنا ان ننكر ان رنان لم يكن يرى رأي القائلين بالجمهورية في عهد الامبرطورية الثانية، ايام كانت توصف بالحسن الذي لم تبرز في معارضه حينما ظهرت للعيان. وفي الحق ان تلك الفكرة لاتنطبق على الزمن الذي نحن فيه. فقد عفت رسوم الجمهورية وطمست معالمها ولم يبق منها الا اسم تنطق به الالسنة، هو الحرز الوحيد الذي نعوذ به لصيانة حريتنا التي تحف بها الاخطار، واذا اردنا ان نفهم سياسة رنان ونعرف مكان العدو الذي يتنبأ عنه بذكائه البعيد الغور، فعلينا ان

ننظر الى الايام التي عاش فيها . ان حب المال الذي فشا في هذا المجتمع والمطامع التي استولت على النفوس واستفحال امر الطبقة الوسطى الجاهـلة المستأثرة الحريصة التي اعتزت في عهد حكومة تموز (يوليو) ملأت قلب رنان خشية،وكان له الحق ان يخشاها،فهي اليوم قابضة على مقاليد الحكم تبغي وتجور على الطبقة العامة الدائبة العاملة، وتقرر الحرب والسلم في الدنيا على ماتشاء وتهوى .

كان رنان (وقلما ذكر عنه ذلك) يحب الشعب حبا جما ، الشعب الذي يكد ويسعى فيغدق علينا الثراء ويساعفنا بما نبتغي من رغد وهناء . الشعب الذي له علينا الفضل بكل شيء ولولاه لعضنا الجوع بنابه ولم يبق منا عينا تطرف . كان يريد ان يبلغ به المنزلة الرفيعة التي تسمو بها مداركه وتزكو اعراقه ، فقال في مستقبل العالم :

« ينبغي لكل انسان ان يجد في المجتمع الذي يعيش فيه كل وسيلة تعلي امره وتصلح شأنه ، ينبغي لكل انسان ان يجـد في المجتمع من اسباب تهذيب الروح مامنحتـه الأم من اسباب تنمية الجسد فغذته وربتـه وادنت منه مالايستطيع الحصول عليه بنفسه »

« لايستطاع ادراك هذا الاصلاح الا بمقدار من طيب الحياة . فللرجل الحق اذن في المجتمع ان يمهد له السبيل الى ذلك النعيم »

لقد جهل قدر رنان من يرى فيه رجلا كليل الجدواني العزيمة . ان اسلوبه الذي يصور خطرات النفس ودقائق الشعور ومجاري القلب في سيره حتى يـكاد يلامسه،يبعث القارىء على الظن انه مفكر غير جريء ولا مصمم ،يميل الى الهوادة ويعمد في نقده ودعوته الى الوسائل المتوسطة والطرائق غير الجـازمة . كيف يقال ذلك عن امضى نفس تعاطت الفلسفة والعلم واشدها مراساً ؟ انه كان رفيع الهمة بعيد المطامع . واذا شئتم ان تروه وهو يتلظى غضبا لايستطيع ان يكسر من حدته ويخفف من وقدات غيظه فافتحوا اوراق الصبا الجديدة تجـدوا هذه الصحيفة المضطرمة المتأججة في القيصر نيقولا :

« ياعجبا لهذه المملكة الغشوم المستبدة كيف تجور على الامة وتهزأ بالعباد! تجلد هذا بالسياط وتنفي ذاك الى سيبيريا حتى يستقيم امرها من غير ان ترقب الاً ولا ذمة ! ألا ليت الشعوب تعلم ! الا ليتها تفكر انها مصدر القوة وان العزة والكرامة للآخرين ! حقا ان هذا هو الهول الهائل . ايت الايام تمكن يدي من هذا القيصر اذن لكشفت القناع عن مساوئه ورفعت الصوت بها جهرة ودعوت الامة الى تسفيهه ، والحكم بأن يقتل بايديها ضحوة في وسط الصائحين به والمزرين عليه ، ايه صاحب الجلالة ! أليس الرجال بشيء يذكر؟ كن الآن العظيم الجليل ! سرحوا الطرف في هذا الموقف وتأملوا ملياً ! لله ما اشد هوله ! وما املأه للقلوب فرقاً ! والى متى تعتبر الرعية سائمة مهملة تسد السبل في وجوهها ويؤخذ منها بالنواصي والاقدام »

* * *

لقد صنع الينا رنان أعظم صنع ، فقد كشف لنا بما لديه من وسائل الاستقصاءات العلمية الواسعة، التي يغوص بها على الحقائق ويستخرج مخبآتها عن اصول الدين الذي مابرح سائداً في جزء كبير من العالم المدني على ظهر هذه البسيطة، وهويشاطر الاسلام والبوذية وعقائد الصين واليابان المتقادمة سلطان القلوب والسرائر .

وما احسن ماقال مارسلين برتلو صديق رنان الشهير : « لايجوز ان تحرم ساحة من الساحات على نفوذ العلم » في سنة ١٨٦٣ نشر رنان كتاب سيرة المسيح ثم اتبعه بست مجلدات اتى فيها على اوضاع المسيحية في القرون الثلاثة الاولى . واضاف الى ذلك في اواخر ايامه تاريخ اسرائيل، فبين لنا شأن الاله قبل ان يصطبغ بالصبغة النصرانية، وكيف ظهر بادىء الرأي بمظهر مخلوق قاسي القلب جافي الطباع، الى ان حول انبياء اسرائيل سيرته فاصبح اعدل واحسن وارحم من جوبيتر البانثيون الروماني واستحق ان يحل محله . فهنيئاً للمؤمنين اذا كانوا لايفتأون يرون في سموه العجيب نفس التسامح وعين الجمال .

جمل رنان في سيرة المسيح من اتخذه النصارى ابن الله افضل الناس واجلهم ولكنه انسان من البشر ، تلك جريرته التي اقامت عليه قيامة الاكليروس والمؤمنين فثار ثائرهم وطارت احلامهم ، ارغى البطاركة وازبدوا ولم يبقوا على-م من مذمة لم يطعنوا به المؤرخ ،اما الحكومة فكانت هلعة خائفة شأن الحكومات في مثل هذه الاحوال،ولم يكن لها من سبيل الا ان تلجأ الى قلة الانصاف. ونحى وزير المعارف المؤرخ من كرسي تدريسه ، وهذه ستون سنة خلت منذ ظهور الكتاب الذي ناقض الكنيسة وقوي دعائم الفكر الحر ! فماذا يقال بعد الآن؟ان المساعي الاخيرة وتآويل الكتب القديمة وما وضعه(الفرد لوازي) تدلنا على انه لن تكتب سيرة المسيح بعد الآن،فقد تداعت اركان المصادر التاريخية التي بني عليها كتاب ١٨٦٣ ، الم يتداع معها تأليف رنان ؟ كلا ! ان سيرة المسيح التي انكرها الرهبان والاحبار كل الانكار يوم بروزها لن تضمحل ابداً ولن يسحب النسيان عليها ذيل العفاء ! انها ستحيا وستبقى عزيزة مكرمة في افئدة النصرانية التي تولت عنها في مؤتنف الامر ، ستكون كتاباً مقدسا يحمله رجال الدين المحدثون . اما كنائس الاجيال المقبلة فستتخذها الانجيل الخامس انجيل آخر الزمان .

وقد عرضت علينا المجلدات الستة التي تلت هذا الكتاب الذي لانظير له وقادت النصرانية الى عهد مرقس اوريليوس،صورة حافلة بسيرة العالم القديم الى ايام سقوطه ، فعلمنا رنان طريقة جديدة لكتابة التاريخ ،باضافته الى ذكر الحوادث والوقائع كل مايزيد في ابانتها ويظهر مكنون سرها ، من آراء فلسفية واساليب حديثة لاعهد للتاريخ بها من قبل

* * *

لو ان رنان عاش الى سنة ١٩١٤ لشهد تحقيق احدى نبوآته ، فقد قال مامن امة في اوربة تستطيع ان تمد بصرها بعد الآن الى ان تستأثر وتبسط سلطانها على الجميع . وكل امة تدعي هذه الدعوى فانها ستجد امامها سائر الامم مجمعة على حربها ومناجزتها

حل في سنة ١٩١٤ ماتنبأ عنه رنان فان المانية التي استفحل امرها العسكري والصناعي والتجاري اثارت عليها كل مافي العالم القديم من شعوب وجعلتهم اعداء لها . ولم يكن رنان ممن ينتصر للحرب التي تعترض سبيل الرقي السياسي وتبيد خضراء الامم وغضراءها ولكن لم يكن يعتقد ان النزاع بين فرنسة والمانية ينتهي بحرب ١٨٧٠ ، ولم يكن يشك ان هذه الحرب لابد ان تعقب حربا اخرى ويحض قومه على ان يعدوا مايستطيعونه من قوة ويبذلوا مايقدرون عليه من فدية . ولا بد ان تأخذ منه اريحية السرور اذا رأى الولايتين الجميلتين ترجعان الينا على شريطة ان يكون ذلك برضى اهلها وايثارهم ، وستسمعون عما قليل رأيه في هذا الشأن انه سيغتبط باستردادهما وان كان ذلك على اثر حرب عوان أقفرت بلادنا من العامر وتطاول عليها الامد لاسباب لانعرف جميعها

غير ان الذي يشجي رنان ويؤذي عقله الراجح ويرمض قلبه الكبير هو ان حربا مهلكة كهذه الحرب ختمت بمعاهدة لم تقض عليها ، ولكنها غرست بذور الاضطراب والقلاقل والفتن والاحقاد والشدائد في اوربة البائسة ، ويحزنه فوق ذلك ولكن من غير ان يعجب له ان يرى بلادنا مشرق الضياء ومصدر الحرية اصبحت مرتعا لروح الجهل والخرافات والتعصب مما تجره الحروب في اذيالها ، وهو مالا تتيسر لنا النجاة منه الا ببذل منتهى الطاقة .

اني لاعتقد اعتقادا لايخالطه شك ان الحكيم رنان لو شهد مانحن فيه اليوم لما قال غير هذا القول ولاذهب الى غير هذا المذهب .

تساءل رنان كثيرا عن الاسباب التي تكون امة وتوجدها ، واختص آراءه في هذا الموضوع الجليل في خطبة تقع في ثلاثين صحيفة ، بناها على قواعد مكينة تضمن للشعوب امنها وطمأنينتها لو ان ساسة العالم استوزعوها الرشد واستلهموها سواء القصد كلما اصبح السلم مهددا بالاخطار . ولم يكن رنان يجهل قيمة ماكتبه في هذه الصحائف ، فهو على شدة تواضعه وتجافيه عن كل اطراء لنفسه ، وبعده عن

التنويه باي اثر من آثاره الكبري، دعا الى مطالعتها في مقدمة كتابه : خطب ومحاضرات .

« وفي الحق انه اصاب شاكلة السداد، وقد تساءل الفيلسوف في هذه الصحائف القليلة كيف تتكون امة من الامم ؟ هل تتكون باللغة ؟ كلا ! فان اللغة تحض على الاجتماع ولكنها لا تضطر اليه . هل تتكون بالجنسية ؟ كلا ! فان حق الجرمنية على اي ولاية لا يكون اعظم من حق سكان هذه الولاية على انفسهم ، وليست اعتبارات الجنسية شيئا من الاشياء في تكون الامم الحديثة ، ان فرنسة سلتية ايبرية جرمنية ، وان المانية سلتية جرمنية صقلبية . فهل الديانة ؟ كلا ولا الديانة ! فانها لا تصنع امة جديدة ، ولكل انسان ان يعتقد بما يريد وليس لاحد ان يسأله عن معتقده ، فهل الجغرافية ؟ كذلك لا شأن لها . فليست الامة بطائفة محددة حسب تكونات الارض واطوارها ، وكل شعب يريد ان يرى في جواره نهرا يسهل الدفاع وراءه وجبلا يعتصم به للقتال فما هو من شعوب الحضارة والمدنية ، فاذا لم تكن اللغة ولا الجنسية ولا الجغرافية اسبابا في تكون الامم فما عسى ان تكون؟ اجاب رنان على هذا بقوله: يكون الامم شيء واحد : حوزة مشتركة للذكريات حافلة موروثة هي موافقة الشاهدين ورغبتهم ان يعيشوا جميعا بعضهم الى جنب بعض وارادتهم على ان يتابعوا سيرهم في هذا السبيل ،ويجلوا شأن ماتوارثوه وانتهى اليهم امره ، غير ان الرغبات الانسانية تتغير ، ولكن اي شيء في هذه الدنيا لا يتغير ؟ ليست الشعوب مخلدة . لها اول ولها آخر . وقد يحل الحلف الاوربي محلها .

هذا هو احسن رأي وأسلمه واقربه للعدل والانصاف وادله على معنى الوطن فهل يقدر له ياترى ان يتغلغل ذات يوم في كل نفس ويصيب السواد من كل قلب.

ايه رنان ! ايها الاستاذ الجليل المكرم اني عرفتك ودنوت منك بجميل صنع لا أستطيع ان اقدره حق قدره وابلغ كنه محامده . سمعت كلامك الزاخر بالوضاحة والقوة والحق . وفهمت كل الفهم معنى قولك انقشوا على قبري هذه الكلمة : « أحب الحقيقة » ! اجل ان الحقيقة كانت ضالتك المنشودة في حياتك

كلها ، كانت شعارك ودثارك . لقد اخلصت لها حبك وهواك حتى رغبت عن كل صنعة وكل زينة وحتى عطلت اسلوبك احيانا من ابهى حاله وسلبته اجمل معارضه، ليكون الفكر بارزا في اتم معانيه واجلى مبانيه .

ايها الاستاذ هذه الحقيقة التي احببتها وفضلتها اجدني مغلوبا على امري في ان اشيد بها اليوم من غير خشية ولا وجل وبذلك احمل اليك من الثناء والحمد اسنى ما انت اهل له .

الخطأ والصواب

الخطأ	الصواب	ص	س
مبتذل	متبذل	٤	١٨
الفجح	النجح	٦	١٩
وأن يحفي	ويخفي	٨	٦
خذاع	خداع	١٠	١١
تتصفح	تتضح	١٢	١٨
تضاهي	تضاهى	١٥	٣
القرات	القرارات	١٨	١٠
بكون	يكون	١٨	١٢
بوماً	يوما	١٨	٢٣
الى	الي	٢٤	٢١
اتسامح	التسامح	٢٧	٥
ليغضب اذا اذا وجد	ليغضب اذا وجد	٢٨	٤—٥
ثلاث اجيال	ثلاثة اجيال	٣١	١٥
بصف	يصف	٣٣	٦
تذورها	تذروها	٣٣	٢٤
اعصاة	العصاة	٤٨	٧
لأنه	لأنهم	٤٨	٧
وعندما	عندما	٤٩	٢٤
بينهما مثل	بينهما احد مثل	٥٤	١٢
ملكة	ملكه	٦١	٢١
لاقدار	الاقدار	٧٣	١
نحكم	تحكم	٧٣	١٧

الخطأ	الصواب	ص	س
واهواه	واهواءه	٨٣	٩
المسمي	المسمى	٨٤	١١
النهالك	النهالك	٨٩	٤
انستفيد	انستفد	٩٧	٧
تهرب	تهرب	٩٩	١٥
لاوريد	لانريد	١٠٠	١٦
القضية نظروا	القضية ونظروا	١٠١	٤
افرق	الفريق	١٠٧	٤
مجاورها	مجاوريها	١٠٨	١٨
ذ ة	ذمة	١٠٨	٢١
خصا في لد	خصيباً في بلد	١٠٩	٩
الحياد وعند	الحياد عند	١١٠	٢٤
يفتبع	يتبع	١١٨	١
اراها	اواءها	١١٩	٥
قارة	قادرة	١٢١	١٥
بالمستصاع	بالمستطاع	١٢١	١٧
تستطيع ان تصون	تستطيع معها ان تصون	١٢٩	٦
او دروز	او دروزاً	١٣٢	٢٢
علبم	عليهم	١٣٣	٢
لايستطبع	لايستطيع	١٣٣	١٨
الاحماعية	الاجتماعية	١٣٦	١١
الغرسه	الغربية	١٤١	٦
عيمين	عيبين	١٤٢	١١
انبزعت	انتزعت	١٤٢	٢٤
كولاندر	كولوندر	١٦٤	١١
حتى	ان	١٧٠	٢

مطبعة الانشاء - دمشق